التفسير

المبسوط

للفاضل المحقق على المشكينى

الاردبيلى

المجلد الرابع

Princeton University Library
32101 057499277

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

Mishkini

التفسير

المبسوط

للفاضل المحقق على المشكينى الاردبيلى

المجلد الرابع

٣ شهر رمضان
١٣٩٩
١٣٥٨/٥/٦

حقوق الطبع
محفوظة

المطبعة العلمية ـ قم

(Arab)
RECAP
BP130
.4
.M57
mujallad 4

بسم الله الرحمن الرحيم

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 019697334

قال تعالى : **قل ان تخفوا ما فى صدوركم او تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات ومافى الارض والله على كل شىء قدير** (آل عمران ـ ٢٩)

التفسير

الصدر والنفس والقلب والروح والعقل ، تستعمل كثيرا فيما هو حقيقة الانسان وبه انسانيته ، وفيه علومه وادراكاته وعليه تعرض صفاته و ملكاته ، اعنى ما يقابل جسده ، وما هو الباقى بعد فناء بدنه فى البرزخ وماهو المزدوج مع جسده المتجدد خلقه فى القيامة ، وهو الذى يشير اليه بقوله : انا ونحن

قوله : **ما فى صدوركم** ، الموصول يراد بـه هنا امور ثلاثه : التصورات الحاصلة للنفس ، والتصديقات والعقائد ، والصفات والملكات ، ولكل منها حق وباطل ، وصحيح وفاسد .

والاول حصوله غير اختيارى فى الغالب ، وهو دائم التردد والانقلاب ، فيوجد وينعدم ويجىء ويرتحل وهذا امره فى جميع الاحوال.

والثانى : أثبت وأدوم من الاول ، فيحصل غالبا بعد التأنى والتامل ، و قد يبقى الى الابد .

والثالث : من الالوان الثابتة للنفس ، وتحصله للنفس قديكون قهرياً وطبيعياً فطرياً ، وقديكون بالتعمد والتمرن ، وعلى اى تقدير يحتاج تحصيله الى مضى مدة من الزمان كما يحتاج زواله الى مضى مدة .

(2/1) 1-12926-88

قوله: **اوتبدوه**، اظهارمافی الصدوروابدائه یکون تارة باللفظ والبیان. واخری بالقلم والبنان ، وثالثة بالعمل والارکان .

قوله : **یعلمه الله** استعمال کلمة المضارع هنا لایدل علی کون علمه تعالی حاصلافی زمان دون زمان ، بل الافعال الدالةعلی الزمان ، المستعملةفی بیان اوصاف الله تعالی علی قسمین منها ما یکون منسلخا عن الزمان ، ومنها مایکون دالاعلیه ، والضابط فی ذلک ان کلما استعمل منها فی صفات ذاته، فهوالمنسلخ عن الزمان وما استعمل فی صفات الفعل فلا ، والاول کالعلم والحیاة والقدرة ونحوها، والثانی کالأحیاء والاماتة والرزق وغیرها فقولک علم الله اویعلم اوقدر او یقدر، معناه انه عالم وقادر بلا قید زمان ، وقولک یحیی ویمیت ویرزق ویخلق او احیی وامات ، ورزق، تدل علی الحصول فی المستقبل اوالماضی .

والقانون الکلی فی تشخیص صفات الذات عن صفات الفعل هو ان کلمایقع تحت الارادة بحیث یصلح تعلق الارادة به فهوصفة الفعل، کالخلق والرزق، وما لایقع تحتها فهو صفة الذات، کالحیاة والعلم .

۵- وقوله : **ویعلم مافی السموات** ، بیان سعة علمه تعالی وعدم اختصاصه بما فی الصدور ، والموصول فی (ما فی السموات) یشمل الاجناس العامة، کالجواهر والجمادات والنباتات والحیوانات ، ویشمل الانواع الواقعة تحت جمیع الاجناس والاصناف الموجودة تحت الانواع، والافراد الشخصیة کلهاواجزائها حتی الذرات الاتمیة وابعاض الذرات .

قال تعالی : ومایعزب عن ربک من مثقال ذرة فی الارض ولا فی السماء
(یونس ـ ۶۱)

لا یعزب عنه مثقال ذرة فی السموات ولافی الارض ولااصغر من ذلک ولااکبر الا فی کتاب مبین　　　(سبا ـ ۳)

۶ ـ ثم ان المقصود من ذکر علمه تعالی بکل شیء ، وتعقیب ذلک بذکر

القدرة ، بيان انه سيجازى المحسن والمسىء بالنسبة الى مافى الصدور فالاية فى مقام الوعد والوعيد بالمجازاة او بالمحاسبة ، فتوافق قوله تعالى : لله ما فى السموات وما فى الارض وان تبدوا ما فى انفسكم اوتخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير (البقرة ـ ۲۸۴)

وح فيشكل الامر بانه كيف يعذب الله عباده على الخواطر ، مع انها غير اختيارية ، ومثله التعذيب على الاوصاف والملكات النفسانية .

والاولى ان نقول فى المقام: ان الاية المبحوث عنها باق على عمومها بالنسبة الى الخواطر والعقائد والملكات ، فعلمه تعالى شامل للجميع ، واما كونها فى مقام بيان الجزاء ، فلاينافى ماذكرنا، فليكن المقصود ان الله عالم بالجميع ، ويجازى على مافى الصدور فى الجملة لاعلى كله، فتحتاج فى تعيين مايجازى منها الى دليل آخر ، وهو الاية الاخرى (۲۸۴ من البقرة) :

وان تبدوا مافى انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله ا ه وحيث قد علمنا من دليل خارج ، عدم ترتب العقاب على الخواطر مطلقا فهى خارجة عن مساق هذه الاية (۱) فيخصص بالعقائد والاخلاق ، وحيث ان المترتب على ذلك المحاسبة

(۱) لكن لايبعد القول بترتب الثواب والعقاب على النية اى القصد والارادة ، من بين الخواطر، اذ قد يظهر من عدة اخبار ومن بعض الايات ايضا ذلك ، كما نقل بعضها العلامة الانصارى فى رسائله كقوله : نية المؤمن خير من علمه ، ونية الكافر شر من علمه .

وقوله : انما يحشر الناس على نياتهم .

وما ورد من تعليل خلود اهل النار واهل الجنة بعزم كل من الطائفتين على الثبات على ماكان عليه من المعصية والطاعة لو خلدوا فى الدنيا .

وما ورد من انه اذا التقا المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول كلاهما فى النار ، فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول . قال : (ص) لانه اراد قتل صاحبه .

وما ورد فى العقاب على بعض مقدمات الحرام ، كغارس الخمر والماشى لسعاية المؤمن.

وما ورد من ان الراضى بفعل قوم كالداخل معهم ، وعلى الداخل اثمان اثم الرضا*

المترتب عليها استحقاق العقاب ، سواء شمله الغفران ام لا ، فينحصر الموصول فى العقائد الباطلة والاخلاق الرذيلة ، فيتحصل من هذا البيان ان كل عقيدة باطلة ورذيلة خلقية ، مورد للمحاسبة ومقتض للعذاب ، ولعله يؤيده قوله تعالى .

«لايؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم» (البقرة-٢٢٥) .

وقوله تعالى : «ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا» . (٣٦-الاسراء)

وقوله تعالى: «ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والاخرة» (النور١٦) .

فهذه الايات تدل على محاسبة الانسان بما فى قلبه، وان كان مورد بعضها خاصاً من حيث السياق .

ثم ان قوله تعالى : فيغفر لمن يشاء ويعذب الخ ، يدل على ان الانحراف فى العقائد والاخلاق قد يقع مورداً للغفران يوم القيامة .

فنقول : اما الاخلاق الرذيلة فلعل المغفور منها ما لم يكن مؤثرا فى العمل ولم يكن مصدراً لقبائح الاعمال وفواحشها ، بان كان مقهوراً تحت سلطان العقل، وممنوعا من قبله، وح فغير المغفور ما كان منشأ لحصول المعاصى ،ومؤثرا فى القبائح والرذائل .

او يقال : ان الصفات الرذيلة اذا كانت مودوعة فى النفس وحاصلة قهرا

---

*واثم الدخول .

وقوله تعالى : فلم قتلتموه ان كنتم صادقين، وانما النسبة لرضاهم بفعل من سبق منهم وقتلوا نبيهم .

وقوله تعالى : تلك الدار الاخره نجعلها للذين لايريدون علواً فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين .

بلااختیارمن‌الانسان، فهی مغفورة وماکانت حاصلة بالتحصیل فهی‌سبب للعقاب هذا فی‌الصفات .

واما العقائد الباطلة ، فیمکن‌ان یکون‌المغفورمنهامن فروع العقائدالاصولیة لامن ارکانها . کما اذا اعتقد ان المعراج لم یقع من مکةالاالی المسجد الاقصی، اوان بعض الانبیاء غیرمعصوم من المعصیة الصغیرة .

او نقول : ان المغفور ماکان انحرافه عن قصور ، وغیر المغفور ماکان عن تقصیر ، فالعقائد الباطلة حتی الاشراك بالله تعالی فضلا عـن سائر ما یعتقده بعض الجهال ، اذا کانت عن جهل قصوری کاهل بعض الممالك غیر الاسلامیة الذین نشائوا علی الکفر والعقائد الخرافیة ، ولم‌یقرع سمعهم ما ینبههم ویوقظهم فهی غیرمأخوذ بها ، ولایترتب عقاب علیها فی‌الاخرةواطلاق بعض الآی المزبورةمقید بما ثبت من الادلة علی عدم عقابهم قال تعالی:

وماکنا معذبین حتی نبعث رسولا . «اسراء ـ ۱۵»

قال تعالی: **یوم تجدکل نفس ما عملت من خیر محضرا ، وما عملت من سوء تود لوان‌بینها وبینه امداً بعیداً ، ویحذرکم الله نفسه والله رؤف بالعباد .** (آل‌عمران ـ ۳۰)

التفسیر

الظرف متعلق باذکر المقدر کما فی نظائر الموارد من الذکرالحکیم ، وقد یقال بتعلقه بیعلمه الله . اوویعلم ما فی السموات ، ویمکن تعلقه بقوله (قدیر) فی آخرالایة السابقة .

فان قلت : ان تعلقه بالعلم او القدرة ، یوهم ان علمه تعالی‌اوقدرته ثابت فی‌ذلك الیوم لامطلقا ، والحال ان الامرلیس کذلك

قلت : لا اشکال فی ان اوصاف الله تعالی الذاتیة لاتتغیر ولاتتبدل ولا فرق

فی ذلك بین الدنیا والاخرة ، الا ان ظهور بعض الاوصاف اوجمیعها وتجلیه تعالی بذاك الوصف الجلالی اوالجمالی لعباده ، لایکون الافی الاخرة وفی البرزخ و القیامة وما بعدها قال تعالی :

یوم هم بارزون لایخفی علی الله منهم شیء لمن الملك الیوم لله الواحد القهار (۱۶ ـ المؤمن)

والامر یومئذ لله (الانفطار ۱۹)

فالمعنی علی هذا ان علمه تعالی بما فی الصدور ، اوبما فی السموات والارض یظهر وینکشف کمال الانکشاف یوم القیامة ، اوان قدرته تعالی علی کل شیء لاتظهر کما هوحقها الافی ذلك الیوم .

قوله : **تجد کل نفس** ، المراد بالنفس هنا اما خصوص النفس الانسانیة ، اوالاعم منها ومن الجن ، لانهم ایضا نفوس مکلفون مثلنا بتکالیف الدین ، صائرون معنا من حال الی حال ومن عالم الدنیا الی القیامة ، مثابون معنا علی الحسنات و معاقبون علی السیئات .

قال تعالی : قل اوحی الی انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا یهدی الی الرشد فامنا به ولن نشرك بربنا احداً (الجن ۲ـ)

وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك کنا طرائق قددا (الجن ۱۱ـ)

سنفرغ لکم ایها الثقلان ، یامعشر الجن والانس . یرسل علیکما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران ، فیومئذ لایسئل عن ذنبه انس ولاجان ، ولمن خاف مقام ربه جنتان .

ویمکن ارادة الاعم منهما ومن الشیاطین والملائکة وان لم یصدر من الاول منهم خیر ومن الثانی شر بل هم یحضرون لیروا اعمالهم ، وحضور الملائکة هنالك لتدبیر الامور ، کما انهم هم المدبرون امرا فی الدنیا .

قال تعالی : فوربك لنحشرنهم والشیاطین ثم لنحضرنهم حول جهنم جثیا (مریم ۶۸ـ)

۱ ـ وقال تعالى: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (الرعد ۲۳ـ)

۲ ـ وجاء ربك والملك صفا صفا (فجر آيه۲۳) .

۳ ـ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون(۱۰۳ـ الانبياء)

۴ـ «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا»(۲۹ـالفرقان)

۵ـ «ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا تعبدون» (۴۰ـ سباء)

۶ـ «عليهاملائكةغلاظ شداد لايعصون‌الله .»(۶ـ التحريم)

۷ـ«وما جعلنا اصحاب النارالاملائكة» (۳۱ـالمدثر)

۸ـ «يوم‌يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون»(۳۸ـالنبأ)

ويمكن ارادة الاعم مما سبق ومن الدواب والحيوانات قال تعالى: ومامن دابة فى‌الارض ولاطائريطير بجناحيه الاامم امثالكم مافرطنا فى‌الكتاب من‌شىء ثم الى‌ربهم يحشرون (۳۶ ـ الانعام)

واذا الوحوش حشرت (۵ ـ التكوير)

قوله تعالى : **ما عملت من خيرمحضراً** : الموصول‌يشمل النيات الحسنة والعقائد الحقة ، والصفات الفاضلة والاعمال الصالحة ، و احضارها اما بوجودها الكتبى ، وذلك فى ضمن كتابين:كتاب خاص لكل احد يؤتى بيمينه اوشماله

قال تعالى : وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأكتابك (الاسراء ـ۱۳)

وقوله‌تعالى : فاما من اوتى كتابه‌بيمينه فيقول‌هاأوم‌اقرؤاكتابيه (۱۹ـالحاقة)

واما من اوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم‌اوت كتابيه (۲۵ـ الحاقة)

وكتاب عام لجميع الناس قال تعالى :

واشرقت الارض بنورربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق (۶۹ـ الزمر) .

ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادرصغيرة ولاكبيرة الااحصاهاووجدوا ماعملوا حاضراً (۴۹ـالكهف)

واما باحضارجزائها عنده من النعيم المبذول للمكلفين يوم‌القيامة ومابعدها فى الجنة والعذاب المعدلهم فالكلام بتقدير مضاف ، اى وجدوا جزاء ما عملوه محضراً .

واما باحضارنفس الاعمال ، الاعم من القلبية والبدنية وهذا مبنى‌على‌تجسم الاعمال فى‌عالم الاخرة ، ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً

واما باحضارها بصورها المنقوشة ونحوها

وقوله : **تود لوان بينها وبينه امدا بعيدا** جملة «تود» امااستينافية ابتدائية او هى جواب لقوله تعالى وما عملت من خير، بجعل الموصول شرطية ، و على اى تقدير فالامد كلمة تدل على‌الزمان الطويل الممتدكالابد ، الاان الابد مالانهاية له والامدمانهايته مجهولة

وهؤلاء المجرمون ، اماهم الذين الهى عنهم فى البرزخ فلم يعلموا مدة مكثهم فيه، وحيث رأوا فى القيامة جزاء عملهم تمنوا طول عالم البرزخ وبقائهم فى مرقدهم ، فانهم فى‌اعتقادهم كان لم‌يلبثوا الاعشية اوضحاها . او جميع الكفار حتى‌الذين‌كانوا محضوا الكفرمحضا فعذبوا فى‌البرزخ الى‌القيامة ،ثم تمنوا طول البرزخ لشدة ما رأوامن عذاب ما بعد البرزخ

قوله « **ويحذركم الله نفسه** »

اى من‌انقطاع نعمه المادية والمعنوية فى الدنيا ، ونعمه فى الاخرة وشمول عذابه فيهماوبعبارة اخرى يحذرالله عباده عن عدله، فان‌الله تعالى هوالذى لايخاف الاعدله ، ولايرجى الا فضله ، او المراد التحذير عن جميع ذلك .

وقوله : «**والله رؤف بالعباد**»

رأفة الله تعالى‌ورحمته من صفات فعله بمعنى ترتيب آثار الرحمة والرأفة ، وليست مثل مايحصل لنا من حالة خاصة فى‌القلب توجب الانعطاف الى‌المرئوف المرحوم والحنان ، والبذل له والاحسان ، فان هذه الصفات لاتعرض على الرب تعالى .

ثم ان اخباره تعالى برأفته للعباد بعد ذكرانهم يرون فى القيامة اعمالهم، ويود المجرم بعده عن عمله ، بمنزلة مايقوله الموالى للعبيد او الاباء للابناء ، ان فعلت كذا عذبتك بكذا؛ اقول هذا رأفة بك فالمراد تحذيرهم ايضاً كقوله ويحذركم الله نفسه .

ثم ان تمنى المجرم بعده عن عمله فى المقام كتمنيه بعده عن قرينه فى قوله تعالى :

ومن يعش عن ذكرالرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون (۳۷) حتى اذا جائنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (۳۸ الزخرف) والعشوة : التعامى وان لم يكن ببصره آفة ، وقيل العشوة آفة العين .

قال تعالى : **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم والله غفور رحيم** (۳۱ آلعمران) .

التفسير

ظاهرالاية الشريفة يعطى ان لازم تحقق حب العبد لربه اتباعه النبى الاعظم، ولازم ذلك الاتباع حب الله تعالى لعبده وغفرانه ذنوبه .

لكن حب العبدلله لايحصل الا بعد ان يفيض الله اليه نعمة الوجود ، ونعمة العقل، وارسال الرسل، وانزال الكتب واعطاءالمعجزات، وتوفيق التعقل والتفكر فيها ، حتى يعرف ربه اولا فيحبه ثانياً وهذه الامور لاتصدر من الله تعالى الا بعد حبه لعبده ، بل هى عين حبه ، فانه من صفات الفعل لامن صفات الذات كما فى الحب الحاصل فينا كما عرفته فى صفة الرأفة والرحمة فهنا حب متحقق من الله مقدم على حب العبد ، وعلة لحدوثه .

واما اتباع النبى (ص) ، فالمراد اتباعه فى جميع ماجاء به من كتاب ودين، فالاتباع يحصل بالقلب والاركان بان يصدق مايجب التصديق به ويعمل بما يلزم

العمل به وهذا فى الحقيقة اتباع لله ، فانه ليس للنبى (ص) الا البلاغ وهو ماينطق عن الهوى ان هو الاوحى يوحى ، فسوق البيان بهذا التعبير دون (فاتبعوا الله) تعظيم للرسول (ص) واشارة الى ان اتباعه اتباع الله. وانه من قبل الله ، وان وساطته بين الله وخلقه لازم الاذعان .

واما حب الله لعبده فحيث انه عبارة عن ترتيب آثاره كما عرفت، فالمراد هنا ليس بذل نعمة العقل وارسال الرسل والكتب والمعجزة وغيرها مما ذكرنا ، فان ذلك كان قبل تحقق حب العبد، بل المراد به ح توفيق الله لعبده فى تكميل نفسه، وصعوده مدارج الكمال فى مراحل عقائده، واوصافه النفسية واعماله البدنية وعلومه وادراكاته ، ثم اعطائه الجزاء الجميل والثواب الجزيل فى دنياه وآخرته .

فتحصل ان حب العبد لربه يقع بين حبين من الله، حب فى مرتبة العلة لحب العبد ، وحب فى مرتبة المعلول له ، والحب الاول عام لجميع العباد من الانس والجن والمؤمن والكافر، والثانى خاص لمن اتبع وآمن وعمل صالحاً، فاذا احب الله عبدا عرفه نفسه ، واذا قبل العبد ولبى دعوة ربه واتبعه احبه بالتوفيق واعطاء الثواب، وهذا كما يحصل للفرد يحصل للجامعة البشرية، ان اتبعوا وعملوا صالحاً.

ونظير هذا، التوبة الحاصلة للعبد من الذنوب وتوبة الله تعالى عليه والقبول منه ، فان توبة العبد ايضا تقع بين توبتين من الله تعالى، فيعطف الله على العاصى عطفا ويوفقه للتنبه والتفكر توفيقاً، فيندم ويتوب، ثم يقبل الله رجوعه وتوبته، ويعود اليه بالاحسان والانعام قال تعالى :

ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم (١١٨ - التوبة) .

فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه (٣٩ - المائده) .

والايتان بعد الانضمام ظاهرتا الدلالة على ان توبة العبد تقع بين توبتى الرب.

وقوله **يغفر لكم** قد يتحقق اتباع النبى والعمل بما اتاه ممن كان كافراً او فاسقا خارجا عن الاتباع والطاعة ، فترتب حب الله وغفران الذنوب عليه (ح)

واضح ، واما لو فرضنا ان احداً وفقه‌الله من اول تكليفه لاتباع نبيه والطاعةله فيما امره ونهاه فامن واتقى ، فلامحالـة يتحقق حب الله فى حقه على طبق وعده ، واما غفران الذنوب فعلى الفرض لاذنب‌له حتى‌يقع مورداً للمغفرة، مع‌ان الاية‌الشريفة تشمله ايضاً قطعا .

فيمكن ان يقال ان المعنى يغفر ذنوبه لوكان له ذنوب، او يقال ان فى‌الاية اشعاراً بانه‌لايكون احد خالياً عن الذنب كائناً من كان غيرالمعصوم الذى قد عصمه الله تعالى بامداد غيبى ، وروح من عنده وعناية خاصة منه تعالى .

اويقال ان الاية تشعر بان جميع الناس مذنبون مفتقرون الى‌غفران‌الله‌تعالى حتى الانبياء والاولياء، الا ان الذنب‌له مراتب ودرجات فان‌الذنب يقع تارة‌بمعنى مخالفة الاوامر والنواهى الالزامية، واخرى بالمعنى الاعم منه ومن مخالفة الاوامر الندبية والنواهى الكراهية ، وثالثة بالمعنى الاعم ـ منها ومن ترك مـاهـو اولى ، كاختيار المندوب المفضول عند التعارض مع الافضل ونحو ذلك ، ولااشكال فى عدم وقوع الذنب بالمعنى الاول من المعصوم ، وكذا الثـانى على مايترائى من ظواهر كلمات اصحابنا ، واما الثالث فـالظـاهر جواز صدوره منه ، وعليه يحمل ماصدر من‌الانبياء (ع) فى‌بعض الاحيان ـ من‌اطلاق الظلم‌بالنفس اوكلمة‌العصيان او وقوعهم مورد اللوم والذم فى الكتاب الكريم ، وكذا ماا‌سندوه الى انفسهم‌من الذنوب والمعاصى وما استغفروا منه وبكوا عليه، فان الذنب امر اضافى نسبى‌فكم من عمل لايعد ذنبا اذا صدر من الجهـلاء وبسطاء الناس ، ويعد ذنبا اذا صدر من علمائهم وكبارهم .

قال تعالى فى آدم (ع) :

وعصى‌آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال‌اربنا ظلمنا انفسنا (۱۲۲ ـ طه) .

وفى نوح (ع)قال يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غيرصالح فلاتسألنى ماليس لك به علم انى اعظك ان تكون من الجاهلين ، قال رب انى اعوذ بك ان

اسئلك مالیس لی به علم والاتغفر لی وترحمنی اکن من الخاسرین (۴۸ ـ هود) .

وقال تعالی فی داوود (ع) .

قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الی نعاجه . . . وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب ، فغفرنا له ذلك (۲۳ ـ ص) .

وظلمه اما فی تعجیله فی‌القضاء بعد سؤال المتسورین علی المحراب، واما استنزا لـه اوریا عن زوجه ، او استباقه فی خطبتها علی ماذکروه فی تفسیر الایـة الشریفة .

وقال تعالی فی سلیمان (ع) :

ولقدفتنا سلیمان‌والقینا علی کرسیه جسداً ثم‌اناب قال‌رب اغفرلی (۳۵ـص)

وقال فی‌موسی (ع) :

فوكزه موسی فقضی علیه قال هذا من عمل الشیطان انه عدو مضل مبین قال رب انی ظلمت نفسی فاغفر لی فغفر له (۱۷ ـ القصص) .

وقال فی یونس (ع) :

وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر علیه فنادی فی الظلمات ان لااله الا انت سبحانك انی کنت من الظالمین فاستجبناله ونجیناه من الغم(الانبیاء ـ ۸۷)

وقال فی یوسف (ع) :

وقال‌للذی‌ظن‌انه‌ناج‌منهما اذکرنی‌عندربك فانساه الشیطان ذکرربه‌فلبث‌فی السجن بضع سنین (یوسف‌ـ۴۳)

قوله تعالی : **قل اطیعواالله والرسول، فان الله لا یحب الکافرین**
(۳۲ ـ آلعمران)

التفسیر

الطاعة لله عبارة عن اتباع هدایته فی‌الاصول والاخلاق والاعمال والاخذ بما امره ، والترك لمانهاه ، سواء وصل ذلك الی الانسان بواسطة کتابه الکریم ، او

بلسان نبيه‌العظيم فان ما اخبرالنبى صلى‌الله‌عليه‌و آله عنه تعالى كله‌منه واتباعه طاعة له قال تعالى .

وماينطق عن‌الهوى ان‌هوالاوحى‌يوحى (النجم ـ۳)

واما طاعة الرسول (ص) فهى على قسمين ، طاعته فيما يخبربه ارشاداً الى طاعة‌الله ، كاوامره ونواهيه المتعلقة بالواجبات والمحرمات الالهية، فهو فى‌ذلك كالوالد يامر ولده بالصلوة والصيام ، فالطاعة‌فى‌هذه‌الموارد حقيقية اصالية‌بالنسبة الى‌الرب تعالى ، وتبعية‌اعتبارية بالنسبة الى الرسول (ص) وهى‌بهذا المعنى داخلة تحت قوله اطيعوا‌الله .

والقسم الاخر طاعته (ص) فيما يأمر به وينهى عنه استقلالا و مولويا لاتبعاً وارشاديا ، فان للنبى الاعظم واوصيائه المعصومين (ع) ولاية تشريعية وتكوينية، بالنسبة الى جميع الناس ، كمامر البحث عنها مستقصى فى اوايل السورة ، فاذا امر زيدا بتصدى ـ امر القضاء فى بلد مثلا ، او دخوله فى صف‌العسكر للمحاربة اواقامته فى‌محل‌خاص لتصدى امرمن‌الشئون الدينية، اوبذله المال‌الكذائى اونحو ذلك ، وجب ذلك عليه وجوبا تكليفيا لمكان الولاية الشرعية الالهية .

قال تعالى :

النبى اولى بالمؤمنين من‌انفسهم (الاحزاب‌ـ۶)

وقال تعالى :

وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى‌الله ورسوله امراً ان يكون‌لهم الخيرة‌من امرهم (الاحزاب ـ ۳۶)

فح نقول ان الظاهر ان المراد بطاعة الرسول فى هذه الجملة ، طاعته فى اوامره ونواهيه المولوية، والاكان الكلام تكرارا فالاية‌الشريفة مسوقة لبيان‌امرين قبول دينه وكتابه وهى القوانين العادلة الالهية ، واتباع رسوله وهوالامام العدل، والدليل الى الله المصون عن الضلالة والجنف وهذان الامران لو توجهت اليهما

الجوامع الانسانية ، واخذت بهما اخذا قلبيا ، وعمليا ، لصلحت وفاقت وتكاملت ورقت وسادت وحازت فضائل النفس وارتقت مدارج الكمال فى شتى نواحيها ، وفازت بالعيشة المرضية فى الدنيا والسعادة الابدية فى الاخرة .

ثم ان الخطاب فى الاية لا يختص بمن كان حاضرا فى زمان نزول الكتاب ، فهو متوجه الى العباد من تلك العصور الى قيام يوم التناد ، فلابد من ان يكون المراد بالرسول النبى الاعظم لابوجوده الخاص وعنوان رسالته وبما انه علة محدثة للدين بل بما انه معصوم منصوب من قبل الله اماما للجوامع وهاديا للانام الى الحق المبين ، وعلة مبقية للبرنامج النازل من الله تعالى ، فلامحالة يشمل الامام العدل المنصوب من الله خليفة له وحافظا لدين الله .

ثم انه لم يذكر فى الاية الشريفة الغرض الاقصى والثمرة المقصودة من طاعة الله وطاعة رسوله ، ولعل العلة تقدم ذكر ذلك فى الاية السابقة عليه .

فان هاتين الطاعتين اريدتا بقوله تعالى فيها (فاتبعونى) اى فى الاحكام الارشادية والمولوية ، وقد علمت الثمرة المترتبة عليه فى تلك الاية فالغرض من تكرار الطاعتين فى هذه الاية بيان امر آخر ، وهو ما يترتب على ترك الطاعتين كما يعلم من قوله فان تولوا .

ثم انه قد صرح عدة من مفسرى العامة ان المراد بطاعة الله اتباع الكتاب ، وبطاعة الرسول اتباع السنة وهو غير ظاهر ، اذ فيه مع ان اتباع الرسول بهذا المعنى يرجع الى اتباع الرب تعالى ، خال عن بيان لزوم الامام العدل وغير خاف على البصير انه لايكفى الكتاب والسنة اعنى القوانين العادلة فى اصلاح حال الجوامع مع عدم وجود قوة مجرية لها وامام عدل يقيمها و يدبر امرها ، وهل وقع الفساد والاختلاف بين المسلمين وخسر العالم بانحطاطهم وخسرانهم الا لعدم اعتقادهم بلزوم وجود الامام و تركهم ما اوصى به النبى الاعظم من لزوم اتباع الخليفة الالهية فيما بينهم ؟

قوله تعالى : **فان تولوا فان‌الله لايحب الكافرين**

اى ان اعرضوا عن طاعةالله وطاعةالرسول كانوا كفاراً والله لايحب الكافرين فالجزاء محذوف وقع موقعه امرآخرومعنى عدم حب الكافرين عدم ترتيب آثاره فى حقهم من النعم الدنيوية والاخروية .

فان قلت :كيف تقول بان الله قد قطع آثار الحب عنهم مع انه قد بذل لهم الوان النعم ، مما بذلها للمسلمين الخاضعين لجنابه بل واكثر منه ، من نعمة الوجود ومابه دوام العيش ونعمة العقل، وقدعرض لهم الكتاب والدين كما عرضه لمن‌قبلها ، فلابد من‌القول بان المراد عدم ترتب آثاره فى‌الاخرة.

قلنا : ان بعض تلك المذكورات قد انعمه‌الله عليهم قبل ان يتولواويعرضوا كنعمة الوجود ووسيلة الحياة والعقل وعرض الدين عليهم ، وقدعرفت عموم هذه النعم لجميع الناس نشأوا على الاسلام والفطرة ، اوتهودوا او تنصروا بتحريف المنحرفين‌وظاهرالاية الشريفة ان‌عدم الحب انما هوبعد الاعراض والتولى، فذلك خارج عن موضوع البحث فى الاية .

واما بعد التولى والعناد منهم فهناك آثار من‌الحب زائلة مقطوعة وآثار منه باقية ثابتة .

اماالاولى : فتوفيق‌الله تعالى عبده وتأييده وتسديده‌لان‌يرتقى مدارج‌الكمال فى مرتبة عقائده الحقة الثابتة المطلوبة ويحصل فضائل النفس و مكارم الاخلاق ، ويعمل بمحاسن الاعمال ، فيترتب عليها كماله المقصود من خلقه و فوزه بالعيش الهنيىء الدنيوى والسعادة العالية الاخروية ، وهذه كلها آثار لحب‌الله تعالى ، و ما اكثرها من آثار ونتائج وما احسنها ، وهى تنقطع عن الكافر بعد توليه واعراضه هذا مع مايتوجه اليه من الشرورفى‌شتى مراحلها النفسية والعملية وغيرهاوهذاايضا من آثار انقطاع حبه تعالى .

واما مايرى من بقائهم على سلامة الابدان ورفاه العيش واتساع ابعاد الحضوظ الجسمانية ، والوصول الى ماراموه من المحاب و اللذائذ الدنيوية ، فقد يتوهم لذلك ان لله عليهم حباً وكرامة وان لهم عنده حظاومقاما كلا وليس كذلك بل ذلك نوع من المكر والخداع ، فالله تعالى يخادعهم ويمكر بهم ويستدرجهم من حيث لايعلمون ليصلوا الى اسفل الدرجات فى شقائهم وانحطاطهم قال تعالى :

ولايحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين (١٧٨-آل عمران)

قال تعالى: **ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** . (٣۴ - آلعمران)

التفسير

يقع الكلام فى الاية الشريفة فى موارد .

الاول : الاصطفاء طلب صفو الشىء واختياره ، من بين ما يكدره ، كأخذ الحب السمين من بين الحبوب، وحيث عدى هنا بعلى، فالمراد ان الله اختار هؤلاء المذكورين وصفاهم وطهرهم عن العقائد الباطلة والاخلاق الرذيلة والاعمال القبيحة مقدما لهم على العالمين ومرجحاً لهم عليهم ، و ليس المراد خصوص تطهيرهم وجعلهم مقربين الى ساحة قدسه والا لقال من العالمين .

الثانى: فى آدم (ع) والمقصود من اصطفائه .

فنقول يمكن البحث فى آدم من جهات شتى كلها خارجة عن مقصد الاية الا مسئلة اصطفائه فلا نتعرض لها الا بنحو الاجمال وهى الجهات التالية .

١ ـ كيفية خلقته .

۲ ـ تعليمه الاسماء : اسماء المسميات ، او نفس المسميات .

۳ ـ عرض المسميات عليه وعلى الملائكة اختباراً له ولهم، وتمكن آدم مما سئل عنه دون الملائكة .

۴ ـ امر الملائكة وفيهم ابليس بالخضوع له والسجود لجنابه تعظيما له ولمقام علمه ، فاطاعت الملائكة وعصى ابليس .

۵ ـ اسكانه وزوجه الجنة مع شرائط خاصة منها اجتناب الشجرة .

۶ ـ مخالفته وزوجه النهى الالهى وتوجه الذم والتوبيخ اليهما. واخراجهما من الجنة واهباطهما عن مقامهما .

۷ ـ تلقيه من ربه ماكان سببا لتوبته واجتباء الله له وتوبته تعالى عليه وهدايته اياه ، والظاهر ان المراد به نبوته كما سيجيء انشاء الله .

اذا عرفت ذلك فنقول : يمكن ان يكون المراد بالاصطفاء هنا احد الامور الخمسة المذكورة . اولاعنى تعليم الاسماء، انبائه بها، اسجاد الملائكة له، اسكانه الجنة، توبته واجتبائه ، كما يمكن ان يكون المراد غير السادس ، ومسئلة نبوته وان لم تكن مستفادة من القرآن الكريم لكنها تستفاد من الروايات الكثيرة وبعضها وارد فى ذيل قوله تعالى : ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (۱۲۲ ـ طه) .

ثم ان البحث من الجهات السبع المذكورة موكول الى محله ، ولعلنا نبحث فى كيفية خلقته فى ذيل الاية ۵۹ من هذه السورة ، والبحث عن غيرها قد وقع مستقصى فى اوائل البقرة فى الاية ۳۰ وما بعدها وفى سورة الاعراف وسورة طه فراجع .

واما قوله (ونوحاً) فقد ذكروا فى وجه اصطفائه انه الاب الثانى للبشر ، حيث يظهر من بعض الايات ان الباقين بعد الطوفان اولاده ، فيقرب هذا ماينقل فى التواريخ ان اكثر راكبى السفينة قد هلكوا بعد نزولهم عنها، لرطوبة الارض وحدوث

بعض الامراض فيها ، فلم يبق منهم الا عدة قليلون من اولاد نوح .

وايضا انه ممن سلم الله عليه بقوله (سلام على نوح فى العالمين-٧٩ الصافات) والاولى ان يقال ان فى نوح النبى خصائص جمة بارزة ، فمنها انه اول المرسلين واول من نزلت اليه الشريعة والكتاب .

قال تعالى : شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى (١٣ -الشورى).

وقال تعالى: كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . (٢١٣ البقره) .

وقال تعالى: انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب. (١٦٣ - النساء)

وقال تعالى: ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب (٢٦ - الحديد)

وقال تعالى : وكم اهلكنا من القرون من بعد قوم نوح

(١٧ - الاسراء)

فيظهر من الاية الشريفة ان اهلاك الامم لم يقع الا بعد نوح، وهذا مع ملاحظة ان الاهلاك ليس الا لاجل الذنوب، والذنوب لاتتحقق الا بعد نزول الكتاب والشريعة (وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) - (وماكنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) يؤيد كون نوح اول الرسل واول من انزل اليه الكتاب والشرع .

٢ - ومنها انه المبتكر الكبير والمخترع العظيم لاول وسيلة نقلية بحرية ، واكبرها واعظمها وهى السفينة ، فهو المخترع لها بالهام غيبى وتعليم الهى قال تعالى :

واصنع الفلك باعيننا ووحينا - وكلما مر عليه ملاء من قومه سخروا منه . (٣٨ - هود) (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) (وهى تجرى بهم فى

موج كالجبال) ؟

وحملناه على ذات الواح ودسر تجرى باعيننا جزاء لمن كان كفر . (۱۴ ـ القمر)

فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك . (۲۷ ـ المؤمنين)

واخبر الرب تعالى بان هذه السفينة آية من آياته (فانجيناه واصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) . (۱۵ ـ العنكبوت)

۳ ـ ومنها . انه هو الذى وقعت الحادثة التاريخية التى لم تسبق بمثلها ولم تلحق به فى عصره بدعائه ، لاغراض اصلية عقلائية ، حيث استجاب الرب دعائه واوجد تلك الواقعة وهى واقعة الطوفان ، والبحث فى كيفية ذلك وكميته فى سورة هود .

قال تعالى: ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر . (۱۳ ـ القمر)

وقال تعالى : حتى اذا جاء امرنا وفار التنور . (۴۰ ـ هود)

وقال تعالى : وهى تجرى بهم فى موج كالجبال . (۴۲ ـ هود)

۴ـ ومنها. انه هو الذى طهر الله به الارض من لوث العصاة والكفار والمشركين والمجرمين جميعا ، بحيث لم يبق منهم احد ، وهذا امر عظيم وهو الغرض الاصيل والهدف الاسمى للانبياء كلهم ، فلم يوفق احد منهم لذلك الا نوح . ولا يتحقق ذلك ابدا الا فى اواخر العصور الدنيوية وهو ماقبل آخر الدنيا ، كما ان ماكان لنوح كان فى مابعد اول الدنيا، ويقع ذلك بيد المصلح الكبير والقائد العظيم مولانا بقية الله حجة بن الحسن العسكرى سلام الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وفى زمانه ايضا لاينتفى اهل الكفر بالمرة، بل يبقى بعض اهل الكتاب تحت سيطرة الحكومة الاسلامية يؤدون الجزية لها ويعملون بشرائط الذمة ، قال تعالى : واذ تأذن ربك ... ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . (۱۶۷ ـ الاعراف)

وقد وقع التطهير فى عصر نوح (ع) بدعائه قال تعالى :

وقال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين دياراً . (٢٦ ـ نوح) .

وقدامر الله نوحاً بالتحميد حين ماركبوا الفلك، وانقطع عنهم ايدى الظالمين وانشاء اللعن والطرد لهم بعد نزولهم من السفينة وهلاك الظلمة فقال :

فاذا استويت انت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . (٢٨ ـ المؤمنون)

وقال تعالى: واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين. (٤٤ ـ هود)

٥ ـ ومنها انه هو الذى عمر طويلا اطول مايمكن البقاء للانسان بمقتضى العادة الجارية والسنة السارية الالهية، عمرفى تلك المدة وهوصاحب اسمى المنازل واعلى المراتب والمناصب ، اعنى منصب النبوة والرسالة بل والمنصب الارقى منها منصب الامامة ، ولم يسبقه احد فى هذه الفضيلة ولم يلحقه لاحق غيرمولانا ولى الله الاعظم حجة بن الحسن عليه الصلوة والسلام قال تعالى :

ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاماً .

(١٤ ـ العنكبوت)

ثم ان الحاصل مما ذكرناه فى حال آدم ونوح ان الله اصطفى كل واحد منهما فى خمس خصال هامة عظيمة .

قوله تعالى **وآل ابراهيم**

الاية متعرضة لحال ولد ابراهيم النبى دون نفسه الشريفة ، وان كان قديقال ان المراد هو عليه السلام وآله الطاهرين كما فى قوله تعالى (ادخلوا آل فرعون اشد العذاب) والمراد بآل ابراهيم اولاد اسماعيل النبى واولاد اسحاق، وحيث انه قد هاجر باسماعيل وامه من فلسطين ونواحيه الى مكة المكرمة فاسكنهما بوادغير ذى زرع عند البيت المحرم ، كان احفاده من نسل اسماعيل هم الباقين فى مكة المكرمة من قريش ، ثم بنى هاشم الى ان انتهى الى النبى الاعظم محمد (ص) واولاده الطاهرين صلوات الله عليهم، فآل ابراهيم يشملهم ونسلهم الطيب جميعا، ولاجل

هجرة اسماعيل الى مكة وتوطنه بها وامتزاجه بقبيلة جرهم العرب، كان اول نبى من العرب هو اسماعيل، وقد ذكر فى الكتاب الكريم بنائهما البيت وتطهيرهما اياه ونحوهما مما صدر منهما هناك قال تعالى .

واذ يرفع ابراهيم القواعد واسمعيل ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك ـ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك (۱۲۹- البقرة) وفى الاية اشارة الى بعث نبينا فيهم !

وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . (۱۲۵ - البقرة)

ولم يذكر فى الكتاب وجود انبياء من نسل اسماعيل الى زمان نبينا فى مكة وحواليها ، ولعل الباقين فيها من اولاده كانوا اوصياء من قبله ، لا انبياء وكان الباقى من الاديان فيما بينهم هو دين ابراهيم (ع) فى الجملة قال تعالى .

لتنذر قوما ما انذر آبائهم فهم غافلون (يس - ۶) هذا ما يرجع الى اسماعيل النبى (ص) .

و اما اسحق النبى فاولاده واحفاده والانبياء من نسله كثيرون متسلسلون ، والظاهر ان الجميع من ولد يعقوب المسمى باسرائيل وقد ذكر يعقوب مع ابيه فى الكتاب فى مواضع كثيرة وقد حمد الله تعالى ابراهيم على ما انعم عليه بعد كبر سنه ولدين نبيين فبقى نسلهما على الاستمرار قال:

الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء (ابراهيم- ۳۹)

ثم ان اسحق النبى واولاده الطاهرين كانوا قاطنين فى فلسطين والشام والاردن ومصر وكنعان ، ومن نسله (ع) الاسباط ويوسف وداود وسليمان و موسى و هارون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام .

وكان الفصل الزمانى بين نوح وابراهيم كثيرا ، قد بعث فيه على الناس هود

وصالح وشعيب ولوط الذى عاصر ابراهيم فامن به .

ثم ان عمران المذكور فى‌الاية الشريفة اما هو ابو موسى وهارون ، اوابو مريم وعمران الاول ابن‌يصهر ابن‌قاهث ابن‌لاوى ابن‌يعقوب

وعمران‌الثانى من‌نسل سليمان بن داود بن ايشا الى ان‌ينتهى الى‌يهوذ ابن يعقوب وقالوا كان بين‌عمرانين ١٨٠٠ سنة

فعلى‌الاول يشمل‌قوله «آل عمران» موسى وهارون وانبياء كثيرين من‌اولاد هارون فيخرجون من تحت‌آل ابراهيم لكونهم فى‌مقابلهم

وعلى‌الثانى‌يخرج مريم وابنها عيسى (ع) عن آل‌ابراهيم وتكون‌هذه‌الكلمة حاكية عنهما .

وبالجملة ، الاية الشريفة تشمل الانبياء اولى العزم و اصحاب الشرائع‌غير ابراهيم ، او تشمله ايضا على‌ماذكرنا من الاحتمال و تشمل النبى الاعظم محمدا صلى الله عليه و آله وسلم و اولاده الطاهرين ، فالمصطفون عدة كثيرة من‌الانبياء والائمة والمعصومين ، والمصطفى عليهم سائر الناس من‌زمن آدم النبى الى‌آخر عمر الدنيا .

ووجه اصطفائهم على العالمين كونهم انبياء علماء متقين صالحين ابراراً مقربين هادين‌الى‌الله ، مجاهدين فى سبيله بالاموال‌والانفس ، وليس غيرهم كذلك وقدعدالله تعالى‌فى‌سورة الانبياء فى‌عدة آيات متصلة خمسة عشر نبياًاولهم‌ابراهيم وآخرهم عيسى (٥٢ - ٩١) وذكرلكل مقاما وصفة تصلح‌لكونهاوجهافى الاصطفاء وقال بعد ذكر بعضهم .

وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم‌فعل‌الخيرات‌واقام‌الصلوة وايتاء الزكوةوكانوا لنا عابدين (الانبياء -٧٣)

وقال بعدذكر١٤ نبيا منهم:انهم كانوا يسارعون فى‌الخيرات‌ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين (الانبياء -٩٠)

وعدالله تعالى فى سورة مريم من الانبياء عشرة ، اولهم زكريا وآخرهم ادريس (١-٥٨) ثم قال :

اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين . . . اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا (مريم -٥٨)

وعد فى سورة هود تسعة منهم ، او لهم نوح وآخرهم موسى (٢٥-٩٧)

قوله تعالى :**على العالمين**

العالم صنف المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والجن والملك ، والعالمون جميع الاصناف ، و يحتمل هنا ارادة اصناف الاناسى ، و على الاول يفهم من الكلام تفضيل الانبياء على الملائكة ايضا فانهم من العالمين ولابأس بذلك، فان الانبياء والائمة(ع) افضل من اصناف الخلائق جمعاء بلا شبهة على مادلت عليه الاحاديث المتكاثره ولا ينافى قوله تعالى :

ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (الاسراء -٧٠)

فانه يفهم من هذه الاية عدم تفضيلهم على الجميع ، ولابد ان يكون الخارج الملائكة او المقربين منهم، ووجه عدم المنافاة كون المراد بالمفضل فى آية الاسراء بنى آدم من حيث انهم مكرمون بالذات مخلوقون على فطرة التوحيد ، وبعبارة اخرى انه قدلوحظ فى هذه الاية شرافتهم الفطرية الذاتية، وشئونهم غير الاختيارية ولوحظ فى الاية المبحوث عنها مناصبهم المبذولة من ناحية الرب تعالى وشئونهم التشريعية وقربهم و كمالهم من هذه الجهات ، فهم من حيث كرامة ذاتهم مفضلون على الكثير،ومن حيث شئون نبوتهم وما يرادفها ، مفضلون على جميع المخلوقات حتى الملائكة .

ثم ان المراد بالعنوانين (آل ابراهيم وآل عمران) هل هو خصوص الانبياء والمعصومين ، لانهم القدر المتيقن من الكلمتين او الاعم منهم وممن آمن بهم وعمل

صالحا ، اوالاعم من ذلك ، فيشمل كـل من يصدق عليه انه آل ابراهيم او آل عمران ؟ لا اشكال فى عدم ارادة الاخير ، اذ لاشبهة فى وجود كفار ومشركين من اولاد اسماعيل كمشركى قريش وغيرهم ، وكذا من اولاد اسحاق النبى فليسوا مفضلين على العالمين .

ولا بـأس بارادة المعنى الثانى ، بمعنى ان الانبياء والائمة عليهم السلام والمؤمنون الصالحون العاملون ، بما عملوا قـد فضلهم الله على جميع العالمين غيرهم حتى الملائكة ، كما انه لابأس بارادة الاحتمال الاول وان المفضل كل نبى من نسلهما .

و على التقديرين فهل يراد تفضيل كل فرد من افراد المفضل على جميع المفضل عليهم : او تفضيل المجموع على المجموع بمعنى ان كل نبى مفضل على العالم الموجودين فى عصره ؟ وكلا الاحتمالين صحيحان ، الا انه على تقدير كون المراد خصوص الانبياء والحكم بتفضيل كل فرد منهم على جميع الغير فى جميع الاعصار ، ينافى ما ورد من ائمة اهل البيت من ان علماء امة النبى الاعظم كانبياء بنى اسرائيل اوافضل منهم ، لكن هذا القسم من محتملات الاية مرجوح .

فالمتحصل من معناها ان الانبياء والمعصومين فى كل زمان مفضلون على اهل عصرهم ، وكذلك الائمة عليهم السلام فى عصرهم مفضلون على الجميع حتى علماء العصر .

ثم ان هذا كله فى مقايسة الانبياء والمعصومين الى غيرهم من الناس ، واما مقايستهم بعضهم مع بعض فلا تعرض لها فى الاية ولاينافى كون بعضهم افضل من بعض (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وهم درجات عندالله .

قوله تعالى : **ذرية بعضها من بعض**

اى كل بعض منهم مرتبط بالاخر برابطة نسبية تكوينية كالابوة والبنوة ونحوهما اومعنوية تشريعية ككونهم منبئين عن الله مرسلين من عنداله واحد ، بدين واحد ،

وهو الاسلام (ان الدين عندالله الاسلام) مصدقا بعضهم بعضا اواهم اخرهم واخرهم اولهم قال تعالى :

ويقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعرمجنون ـ بل جاء بالحق وصدق المرسلين (۳۷ ـ الصافات)

واذا اخذالله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب و حكمة ثم جائكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصره ، قال اقررتم واخذتم على ذلك اصرى قالوا اقررناقال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين (۸۱ ـ العمران)

آمن الرسول بماانزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله(۲۸۵ ـ البقرة)

قوله تعالى : **والله سميع عليم .**

السميع فى الله تعالى هوالعالم بالمسموعات ولانعلم كيفية سمعه فهو وصف اخص من عليم، وهذا بخلاف وصف السميع فينا ، فانه صفة من صفات افعالنا و سماعنا طريق من طرق علومنا ، فان العلوم الحاصلة فينالها طرق خمس وهى الحواس الخمس الظاهرة ، مع ان قوانا العاقلة لهـا استعداد الادراك وتحصيل المعلوم و استنتاجه من المجهول ، فهى بنفسها ذات انتاج ، كما ان لها طرقا لورود العلوم والمفاهيم من الخارج ، وقد ذكر فى الكتاب الكريم وصف السميع مقروناً بالعليم فى موارد كثيرة ـ والمراد انه تعالى سميع بمقالكم عليم بمافى صدوركم، اوانه سميع بكل مايسمع عليم بكل ما يعلم .

ثم ان اطلاق الوصفين وعدم تقييدهما بالمتعلق فى المورد ، كماهودأب الله غالبا فى اسمائه الشريفة المذكورة فى كلامه لبيان التعميم فى المتعلق وبقاء اطلاق الوصف على حاله وعدم تقييده بقيد كما فى غيره تعالى ، فهو اشارة الى التوحيد الصفاتى فغيره تعالى (مع ان سماعه بالة والله سميع لابالة) سماعه مقيد بصوت خاص ومكان محدود وزمان معين ، فلايسمع جميع ما يسمع بل بعضه فى مكان

وزمان خاص ويشغله سمع عن سمع ، والله تعالى سميع بكل ما يمكن ان يسمع وفي بعض الادعية الواردة عن ائمة اهل البيت(ع) (سبحان السميع الذى ليس شيىء اسمع منه يسمع من فوق عرشه ماتحت سبع ارضين ، ويسمع ما فى ظلمات البر والبحر ويسمع الانين والشكوى ويسمع السر واخفى ، ويسمع وساوس الصدور ولايصم سمعه صوت اه

ثم ان تقارن العلم بالسمع مشعر بان الله عالم بحقيقة ما يسمع وكيفية تحققه وبالغرض المقصود من ذلك الصوت اذا كان صادراً من الحيوان المريد المختار ، فلايشغله صوت عن صوت ولا كلام عن كلام ، ولاشأن عن شأن ، وهذا بخلاف سماع المخلوقين

قوله تعالى : **اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك مافي بطني محررا فتقبل مني انك انت السميع العليم ٣٥ فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .** (٣٦-آلعمران)

التفسير

قيل كان اسم امرأة عمران حنة ولها من عمران بنت اسمها (ايشاع) تزوجها زكريا فولدت منه يحيى ، فعيسى ويحيى ابنا خالة .

ونذرها الولد لخدمة البيت ، اما بامضاء من زوجها ، اوان عمران مات قبل ولادة مريم ، ويؤيده قوله تعالى بعدذلك : وماكنت لديهم اذيلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم : وقوله تعالى وكفلها زكريا

والظاهر ان المحل الذى نذرته له هو بيت المقدس لكونه محلا لانبعاث اكثر انبياء بني اسرائيل ، وبيت اللحم فى قرب القدس معروف .

والتحرير . فى اللغة العتق واعطاء الحرية والاخراج عن الملكية ، وذلك اقسام .

فمنها تحرير المال عن قيدالملكية كجعل الملك مسجدا او مدرسة ويسمى وقفا تحريريا :

ومنها تحرير النفس عن قيد الرقية كعتق العبد والامة

ومنها . تحرير النفس عن قيد الجهل كتعليم الجاهل وايصاله الى حدالكمال العلمى .

ومنها تحريرها عن عبادة الشيطان بارشادها الى الايمان والاخلاق الفاضلة والاعمال الصالحة .

ومنها . تحرير النفس او المجتمع عن قيود الاستعمار واسارة الاستحمار والاستثمار، بايقاظهم عن نومتهم ودعوتهم الى الحياة الانسانية الاستقلالية، والى التفكير فى سبيل الحرية والكمال .

ومنها . تحريرها عن الاشتغال بامور الدنيا، والتفرغ لطاعة الله كما لعله كان مرسوما فى تلك العصور :

ومنها . تحرير الولد عن قيد ولاية الاب والام وجعله من سدنة بيت الله، او خدام احد الاولياء والاصفياء ، وهذان القسمان متقاربان ، ولعل احدهما المرادمن قولها انى نذرت لك مافى بطنى محرراً .

ثم ان هذا النحومن النذر لعله كان راجحاً فى تلك الازمنة ، وكان عبادةمن العبادات ، واما بالنظر الى شرعنا فلاينعقد لوكان على نحو نذر النتيجه، كان ينوى خروج الولد عن تحت ولاية الاب وحضانة الام ويكون فى ولاية البيت اوشخص اخر من عالم او عابد ، ولوكان بنحو نذر الفعل بان لا يستفيد من الولد بترتيب آثار الولاية ، بل يجعلها من خدام محل شريف اومؤمن عالم فقد يكون راجحا، وينعقد النذر الى زمان بلوغه ورشده .

ثم ان ظاهر الكلام كون نذرها تنجيزيا ، مبنيا على اعتقادكون مافى بطنها

ذكراً ، لاتعليقيا معلقاً على الذكورة، ويشهد له ظهور تحسرها عند انكشاف كونه انثى ، وقد يقال ان علمها بذلك كان بايحاء من الله ووعده تعالى ان يرزقها ولدا ذكراً، فكانت تتخيل انه الولد بلاوساطة ، وكان متعلق مشية الرب تعالى كونه ولد الولد اعنى عيسى (ع) .

وقوله تعالى **انك انت السميع العليم** .

اى السميع لمقالى وكل مامن شأنه ان يسمع والعليم بما فى قلبى وبكل شىء

قوله . **قالت رب انى وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت** . اخبارها بان ماوضعت انثى وقع تعجبا من ظهور خلاف ماتعتقده ، او تحسراً على ذلك ، ويجوز فى كلمة وضعت كسر التاء وضمها وجزمها ، فعلى الاول والاخير فهى من كلام الله تعالى ، وعلى الوسط تكون من كلام امرأة عمران .

ثم ان كونه تعالى اعلم من جهة ان امها لم تعلم من مولودها الا انه انثى ، والرب تعالى يعلم وجودها وجميع آثار وجودها وماسوف تتصف بها من العقائد والاخلاق ، وسوف تكبر وتعمل من العبادات والافعال الحسنة وما ينتهى اليه امرها فى دنياها وعقباها الى غير ذلك .

قوله تعالى: **وليس الذكر كالانثى**. يحتمل كون الالف واللام فى كلمة الذكر للعهد الذهنى، وفى الانثى للخارجى والحضورى، فالكلام كلام الله تعالى يخبر بعد تعجبها وتحسرها عن عدم ولادة الولد الذكر، بان الذكر المعهود فى فكرة امراة عمران والمقصود المعين فى ذهنها ليس كالانثى الموجودة التى ولدتها ، بل هذه افضل واكمل من ذلك ، اذ المركوز فى ذهنها هو الذكر السوى القابل لخدمة البيت ، واضف الى ذلك الايمان والعمل الصالح ، لكن الانثى التى تكبر وتصير من اكبر العباد ، وموردا لاصطفائه تعالى لها على نساء العالمين ووالدة لعيسى كلمة الله ، افضل من ذلك بلا اشكال ، فالكلام ح صادر لبيان خطاء حنة وللرد عليها وان ما اعطاها من الانثى افضل مما تمنته من الذكر .

ويحتمل ان تكـون الالف والـلام فى الكلمتين للجنس ، سواء فرضنا ان الكلام من الله تعالى اومن امرأة عمران ، ولوكان من الله فهوجار مجرى تصديقها وبيان ان الذكرلايساوى الانثى بل هوافضل منها واكمل، وح فالمراد اماترجيحه عليها من حيث القوى البدنية ، او من حيث القوة العاقلة والادراكات الباطنية، او من حيث صفات النفس والملكات الروحية، فان الرجل اقوى من المرأة فى غالب الصفات النفسية، كالشجاعة والصبر والكتمان والوفاء والسخاء والحلم، وان كانت هى اقوى فى بعضها الاخر كالرضا والرحمة والرقة والتواضع ونحوها .

اومن حيث الاحكام الشرعية ،كعدم النبوة لهن وعدم منصب الامامة ومنصب القضاوة وسائرالاحكام التى تختص بالرجال دون النساء ، ولااشكال فى كون اغلب ماورد فى شرعنا من المختصات . ثابتا فى تلك الاعصارايضا لولم يكن اكثرمنه .

قوله تعالى : **وانى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .**

الاعاذة والاستعاذة بالشخص الالتجاء اليه والاستعانة به فى دفع المكاره ورفع المضار ، وذلك امر عقلائى كان معمولا به بين الاناسى من الازمنة السالفة ، وهى على اقسام ، استعاذة الفرد بالفرد ، والفرد بالامة ، والامة بالفرد ، والامة بالامة .

فهنا طوائف ، المعيذ . والمعاذبه . والمستعاذ منه . وقد وقع ذكرالاستعاذة فى الكتاب الكريم فى موارد ، فذكر فى بعضها استعاذة بعض عباد الله به تعالى ، وامر بها بعض اوليائه فى بعضها الاخر والمعاذبه فى الجميع هو الله تعالى، والمعاذ منه ومن شره امور .

١ ـ الشيطان الانسى والجنى قال تعالى :

وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين واعوذ بك ان يحضرون (٩٧ـالمؤمنون)

قل اعوذ برب الناس .

٢ ـ المتكبر غيرالمؤمن، وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب .(٢٧ـغافر)

۳ ـ الظلمة . ومن شر غاسق اذا وقب . (۳ الفلق)

۴ ـ النفاثات . ومن شر النفاثات فى العقد . (۴ الفلق)

۵ ـ الحاسد . ومن شر حاسد اذا حسد . (۵ الفلق)

۶ ـ الجهل . قال (موسى) اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين . (۶۷ بقرة)

۷ ـ الخلق . قل اعوذ برب الفلق من شرما خلق . (۲ الفلق)

ثم ان حنه امرأة عمران ، اعاذها وذريتها بالله من الشيطان ، ويظهر من لحن الاية الشريفة، ان الله كما قبلها من حيث ترتيب الاثار التى ارادتها حنه، كذلك قبلها وذريتها من حيث الاستعاذة ، ومعناها فى المقام حفظهما عن مس الشيطان وتصرفه فى عقلهما بالقاء العقائد الباطلة، وفى نفسهما باعتياد الصفات الرذيلة ، وفى بدنهما باتيان الاعمال المحرمة، فلم يكن للشيطان مساس بهما من حين وقوع الدعاء الى ازمنة بقاء عيسى (ع) .

ولذلك روى البيضاوى فى تفسيره عن النبى (ص) انه قال .

مامن مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل من مسه الا مريم وابنها:

ونقل صاحب المنار عن الشيخين عن ابى هريره مايقاربه قال واللفظ هنا للمسلم :

كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته امه الا مريم وابنها .

قال البيضاوى ومعناه ان الشيطان يطمع فى اغواء كل مولود بحيث يتأثر منه الا مريم وابنها .

اقول الرواية وان لم يكن حجة عندنا لضعف ابى هريرة وغير ذلك من الجهات ، الا انك لما تأملت ماورد فى شرعنا من الايات كالاية المبحوث عنها ونظائره كقوله تعالى :

ان عبادى ليس لك عليهم سلطان . (۴۲ الحجر)

وماورد من الروايات فى تنزيه ساحة الانبياء (ع) ، عن كل لوث المعاصى

وخلاف الاخلاق ، وقايست كل ذلك مع ماورد فى الانجيل من وصف عيسى(ع) علمت ميزان تلك الكتب المحرفة ، ففى الباب الرابع من انجيل لوقا مالفظه.

قال تعالى : **فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلهـا زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب و جد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عندالله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .**

(آل عمران-۳۷)

التفسير

التقبل . القبول بالنحو الاكمل الاوفى ، ولذا وصف المصدر المتعلق بـه بالحسن فمعنى تقبلهاهو قبول الامور الثلثة التى عرضتها لربها، وهى ايجابها على نفسها تحريرها ، واستجازتها فى تسميتها مريم التى هى بمعنى العابدة الخادمة. واعاذتها بالله من الشيطان الرجيم .

ومعنى كماله وتاكده ، قبول كل واحد من تلك الامور باكمل كيفيته ، اما التحرير فقبلها للبيت مع انها كانت انثى وكانت سدنة البيت كلهم ذكرانا على مانقلوه ومسابقة العباد واختصاصهم فى تكفلهـا، وانتهاء الامر فى ذلك الى نبى من انبياء زمانها .

واما حسن القبول فى تسميتها مريم، فلان الله وفقها للعبادة فى البيت بل فى اعلى مكانه وهو المحراب ، واعطائها الرزق فى محرابها، وذكر الله تعالى اسمها فى القرآن فى ۳۴ مورداً ، مع انه تعالى لـم يذكر فيه اسم امرأة معينة غيرها بل تعرض لماتعرض بعنوان عام ، كقوله تعالى فى آخر سورة التحريم :

« وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما اه .

«وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذقالت رب ابن لى عندك بيتاًفى الجنة» التحريم ـ ۱۱

«وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه» يوسف ـ ٣٠

«ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» التحريم ـ ١٢

«انى وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شىء» النمل ـ ٢٣

«يانساء النبى لستن كاحد من النساء» الاحزاب ـ ٣٢

«قل تعالوا ندع ابنائنا وابنائكم ونسائنا ونسائكم» آل عمران ـ ٦١.

«وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة» البقرة - ٣٥

«واذ أسر النبى الى بعض ازواجه حديثا» التحريم ـ ٣

«واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك» الاحزاب ـ ٣٧

«واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه» القصص ـ ٧

«وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب» القصص ـ ١١

واما حسن القبول فى اعاذتها من الشيطان فبانه تعالى اصطفاها باصطفائين وطهرها عن الاقذار، وتكلمت الملائكة معها مع عدم نبوتها، فصارت محدثة، وبشارتها بولادة عيسى كلمة الله، وهبة عيسى لها بلا تزوج وبنحو غير معتاد، واحصانها وكونها صديقة.

وقوله تعالى: **«وانبتها نباتا حسنا»** تعقيب الفعل بالمفعول المطلق من غير بابه يلازم كون التقدير: «وانبتها فنبتت نباتا حسناً» والسر فى ذلك ان الانبات من الله تعالى ليس بلا واسطة، كما هو الحال فى سائر افعاله فى هذا العالم، فانباته الذى هو على قسمين فى المورد: (اعطاء النمو والرشد البدنى الجسمانى، واعطاء الرشد الروحانى والباطنى) يقع تارة باعداده تعالى وسائل التكامل والرشد الجسمانى من الغذاء والهواء واللباس والمسكن وغيرها من لوازم الحياة الدنيوية وعيشها، فنباتها حينئذ يتوقف على استفادتها مما رزقها الله من وسائل العيش، فلو لم تستفد منها فالقصور يكون من قبلها، ففى الاية اشارة الى ان الله هيألها وسائل العيش بأحسن وجه، وهى ايضا استفادت منها باحسن طريق، فنبتت نباتا حسنا.

ويقع اخرى باعداده تعالى وسائل كمال العقل والايمان والعقائد و الاعمال

فان وجود الانبياء عندها ، وتكفل زكريا النبى لها ، واشتغالها بالعبادة مع العباد العاملين الصالحين ، وغيرها من الامور الدخيلة فى كمال الانسان فى مراحل العقل والايمان ، انبات من الله باحسن الوجوه ، وقبولها التربية الانسانية ، والايمانية ، و تخلقها بفضائل النفس وكمالاتها نبات حسن ، وليس كل الناس حائزين هذه الفضيلة ، فهى نبتت نباتاً حسنا

وقوله تعالى : «وكفلها زكريا»

كيفية تكفل زكريا لها يعلم مما سيجيىء فى الاية ۴۴ : « وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وماكنت لديهم اذ يختصمون.

وقوله تعالى : «**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا**

المحراب محل الحرب و مكانه ، و اطلاقه على محل العبادة لوجهين ، احدهما ان محل العبادة محل الحرب مع الشيطان أو مع النفس الامارة ، وثانيهما انه كما ان فى معركة القتال والحرب ينقطع رجاء الانسان من كل شىء ، ويغفل عن ماله واولاده وعياله ودراهمه ودنانيره ، ويكون همه مصروفا فى حفظ غرضه وتنجيز هدفه ، وينحصر مقصده ومرماه فى الغلبة على الخصم وتحصيل ما يقاتل لاجله ، كذلك الانسان لابد من ان يكون غرضه فى امكنة العبادة الوصول الى مرضاة ربه وتحصيل المقام عنده ، والقرب لديه ، ويكون غافلا عن جميع امواله وما يتعلق به من دنياه وشئون حيوته

والرزق فى الاية قد فسر بفاكهة الشتاء فى وقت الصيف ، وفاكهة الصيف فى وقت الشتاء ، الا انه يمكن ان يقال : ان الفرد الاليق من الرزق ، العلوم والحكم والمعارف الدينية الالهية . فلعل زكريا اذا دخل عليها وتكلم معها كان يسمع منها من المعارف . مالم يكن يعلمه أولم يكن يسمعه من غيرها ، مما الهمه الله تعالى اياها ، فكان يسئل عنها ويقول : يا مريم انى لك هذا قالت هو من عندالله

قال الله تعالى : ان الله يرزق من يشاء بغير حساب

قد يتوهم فی هذه الاية ونظائرها كقوله تعالی

«فان الله يضل من يشاء ويهدی من يشاء» فاطر-٨

وقوله: تؤتی الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزمن تشاء وتذل من تشاء» آل عمران - ٢٦

«والله يؤتی ملكه من يشاء» (البقره٢٤٧)

فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» (البقره - ٢٨٤)

«ان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء» (آل عمران - ٧٣)

«يختص برحمته من يشاء» (آل عمران - ٧٤)

«بل الله يزكی من يشاء» (النساء -٤٩)

«بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» (المائدة -٦٤)

«ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده» (الانعام -٨٨)

« ويتوب الله علی من يشاء » (التوبة - ١٥)

« ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » (الرعد - ١٣)

« ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (الرعد - ٢٦)

« يمحو الله مايشاء ويثبت » (الرعد - ٣٩)

« وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء » (النور - ٤٣)

« يهب لمن يشاء اناثاً ويهب لمن يشاء الذكور » (الشوری - ٤٩)

انه ليس فی افعال الله تعالی لحاظ غرض وتدبير صلاح، بل كل مافعله الله تعالی فيه الصلاح التام والنظام الكامل العام، فلوغفر اباجهل وعذب النبی الاعظم كان حسناً، وكان هو الموافق للصلاح والمطابق للعدل، فالصلاح والفساد هو فعله وعدم فعله، وبه يقاس كل صلاح وفساد، لا ان فعله يقاس بشیء آخر وهذا هو الذی ينسب الی الاشاعرة، فانهم ينكرون العدل بالمعنی المعهود عندنا، ويقولون: العدل من الله

هو مايفعله‌الله والظلم هومالايفعله ، فلوادخل‌الحسين الجنة ويزيد النارفهو العدل ، ولوعكس فى الامركان هو العدل ، وليس هنا ميزان‌آخر من حكم العقل وغيره يوزن‌به فعل الرب‌تعالى، بل مقامه وشأنه تعالى‌أجل من ان يوزن بشىء‌آخر. وهذا مذهب مرجوح مردود ليس المقام موضع ذكره ، وحمل ظواهر الايات على‌هذا المعنى‌باطل منكر.

ولايخفى عليك انه بناء على هذا المعنى يرجع مفاد الايات (يغفر لمن‌يشاء ويعذب من يشاء ويهب‌لمن يشاء) وغيرها الى‌انه ليس فى غفرانه وتعذيبه مثلا‌لحاظ صلاح وتدبير نفع ونظم .

لكن الظاهر ان معنى‌الايات بيان قدرة الله على‌ماشاء ، وتسلطه على تنجيز ماارا وايجاد ماشاء ، فالمعنى ان الله قادرعلى‌غفران من يشاء ، لاان مشيته الغفران بلا وجه وغرض ، وقادر على‌ان يهب مايشاء، لاان ارادته الهبة غير منوط بصلاح فمعنى قوله تعالى: يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، انه تعالى قادر على اضلال‌من تعلقت به ارادته وهداية من تعلقت به مشيته، واما ان تلك المشية بمن تتعلق‌ولاى جهة تتعلق فيعلم ذلك من‌آيات اخر ، حيث يقول تعالى :

يهدى به الله من اتبع رضوانه . (المائدة - ۱۶)

ويهدى اليه من اناب . (الرعد - ۲۷)

ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم . (يونس - ۹)

والله لايهدى القوم الظالمين . (البقرة - ۲۵۸)

والله لايهدى القوم الفاسقين . (التوبة - ۸۰)

والله لايهدى القوم الكافرين (البقرة - ۲۶۴)

ان الله لايهدى من هو كاذب كفار . (الزمر - ۳)

ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب . (غافر - ۲۸)

ثم ليعلم ان هداية الله تعالى على اقسام ثلثة ، هداية عامة تكوينية ، وهداية

عامة تشريعية ، وهداية خاصة . كما ان الاضلال على قسمين عدم الهداية ، وفعل الغواية .

فالهداية التكوينية العامة هى خلق الانسان مثلا على نحو يقتضى فطرته الاهتداء الى الحق والتوحيد وغيره من الاحكام الفطرية ، ولافرق فيها بين المؤمن والكافر وغيرهما ، قال تعالى :

فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها (الروم ـ ٣٠)

وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم، : كل مولود يولد على الفطرة ثم ابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه .

والهداية التشريعية العامة هى ارسال الرسل، واعطائهم الكتب والمعجزات، مع اعطاء العقل القابل للفهم والادراك والسماع والطاعة ، وهذا ايضا عام لجميع الخلق .

والهداية التشريعية الخاصة هى التوفيق من الله لمن آمن، وقبل وتأييده وتسديده وتهيئة وسائل الجرى على الهداية التشريعية العامة. والعمل بها، والتكامل فى مراحل أبعادها الفكرية والنفسية والبدنية . من العقائد والاخلاق والاعمال .

والاضلال العدمى عبارة عن قطع الهدايـة الخاصة عن عبد بواسطة عناده وضلالته واختياره طريق الانحراف والمتاهة، وقدسماه تعالى بعدم الهداية، كقوله تعالى : والله لايهدى القوم الظالمين اوالكافرين أوالفاسقين اومن هومسرف مرتاب اومن هو كاذب كفار وغيرها .

والاضلال بمعنى فعل مايشقى بـه العبد ، ويضـل فهو فى من عاند الحق وخالف الرب، بعدتكرر الهداية والتنبيه والاعلام، فهيّأ له الرب تعالى بعده مايمده فى طغيانه ويستدرجه فى مراتب بعده عن الله وشقائه ، فيورده الى ميزانه وقدسماه الله تعالى مكراً ومخادعة واستدراجاً وغير ذلك من العناوين ، قال تعالى :

١ ـ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . (الانفال ـ ٣٠)

۲ـ ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم . (۱۴۲ ـ النساء)

۳ـوالذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون . (۱۸۲ـالاعراف)

۴ ـ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون . (النمل ـ ۵۰)

۵ـ قد مكر الذين من قلبهم فلله المكر جميعاً . (الرعد ـ ۴۲)

۶ـومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين.

(الزخرف : ۳۶)

۷ـفلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون . (الانعام ـ ۴۴)

۸ـالله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . (البقرة ـ ۱۵)

قوله تعالى : **هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء** . (آل‌عمران ۳۸)

التفسير

هنالك للمكان، اى وفى ذلك المكان دعا ربه ، ولعله المحراب الذى دخل على مريم فيه ، والحاصل انه لما رأى .

قبول تحرير مريم مع انه انثى

واقراع الصالحين والعباد فى تكفلها

وكفالة نبى من الانبياء لها وهو نفسه

وصيرورتها من العبادات فى اقصر مدة

ونزول الرزق عليها فى محرابها

تمنى ان يرزقه الله ولداً بعد كبر سنه وعقر زوجه .

والطيب هو مايستطيبه الانسان ويوافق ميله، فان استطابته القوى العقلية كان طيباً عقليا ، كالعقائد الصحيحة ، والاخلاق الفاضلة ، والاحسان والرفق ونحوهما

من الاعمال الحسنة، وان استطابه الطبع كان طبعيا، طيباً كالاغذية اللذيذة والاشربة كذلك والالبسة الفاخرة ونحوها، وعلى اى تقدير فهو مقابل الخبيث الذي يتنفر عنه الانسان بقوته العاقلة أو بطبعه .

والولد الطيب مايستطيب العقل فكرته واخلاقه واعماله، وتستطيب الحواس جماله وصورته ، والمراد به في المقام، الولد الذي يوافق رغبة زكريا وميله وامله، من حيث الذكورة والكمال في الجسم والعقل والأخلاق والاعمال والنبوة، وكان يحيى كذلك .

وقوله: **انك سميع الدعاء**. هل المراد به بيان ان الله يسمع الدعاء ويعلمه؟ والقبول موقوف على ارادته ومشيته وصلاح الامر في حق الداعي والمجتمع ، أو المراد ان الله مستجيب للدعوات مطلقا ، قضاء لحق الصفة المشبهة التي تدل على الدوام والثبوت ، الظاهر هو الثاني ، فان الدعاء لاحرمان فيه أبداً ولو لم يقبل بالنسبة الى نفس المقصود كما حكاه تعالى عن زكريا ، قال :

ولم أكن بدعائك رب شقيا . (مريم : ٤)

وفي الروايات الواردة عن أهل البيت (ع) ان الدعاء لاحرمان فيه ، فان لم يستجب في نفس ماأراده العبد عوضه الله بدفع الشر اورفع الضر عنه في الدنيا، أو بالاثابة في الاخرة، ومثله قوله تعالى في ابراهيم : «عسى الاكون بدعاء ربي شقيا» . (مريم: ٤٨)

ثم ان قوله تعالى في هذه الاية حكاية عن زكريا حكاه الله تعالى في سورة مريم بعبارة اخرى ابسط ، قال تعالى :

اذ نادى ربه نداء خفيا قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم اكن بدعائك رب شقيا واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . (مريم : ٦)

والعبارتان أو احديهما منقولتان بالمعنى ، وقد حذف من بعضها شيء مما

دعا ، فلاحظ قوله : « دعا زكريا ربه » . وقوله : « نادى ربه نداء خفيا » . وقوله: «هب لى من لدنك ذرية طيبة» مع قوله «هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » .

فان الظاهران زكريا دعاربه وناداه نداء خفيا، فحكى الله فى هذه الاية بعبارة اجمالية ، وفى سورة مريم مع التعرض بكون ندائه خفيا ، وايضاً انه سئل ربه ان يرزقه ولدا مرضيا طيبا ، ويجعلـه وليا له ووارثا يرث منه ومن آل يعقوب ، تركة الاموال والعلم والحكمة والمقام ، فنقل تعالى فيمـا نحن فيه شيئاً من ذلك ، وفى سورة مريم أكثر مما نقله هنا .

ولهذا الكلام نظائر كثيرة فى الكتاب الكريم ، مما حكاه الله تعالى عن حال الانبياء وغيرهم ، فنقل الواقعة الواحدة بالفاظ مختلفـة ، فلاحظ قضية موسى بن عمران حينما جاء الى الشجرة لاقتباس جذوة ، فسمع الصوت منها قال تعالى :

فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة انياموسى انى انا الله رب العالمين .(القصص ـ ۳۲)

وقال: فلمااتاها نودى ياموسى انى انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادالمقدس طوى وانا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى انا الله لااله الا انا فاعبدنى »

(طه ـ ۱۱)

وقال : « فلمـا جائها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ياموسى انه انا الله العزيز الحكيم » (النمل ـ ۱۰)

ولاحظ ايضاً التعبير الذى وقع منه تعالى فى عصا موسى وانقلابه حية قال تعالى :

« وان الق عصاك فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبراً » (القصص ـ ۳۱)

وقال تعالى : « قال القهـا ياموسى فالقاها فاذا هى حية تسعى قال خذهـا ولاتخف » . (طه ـ ۲۲)

« فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين » . (الشعراء - ٣٣)

فالظاهر ان الله تبارك وتعالى قد تكلم مع نبيه موسى بن عمران بكلمات كثيرة ، والقى اليه مطالب قد حكى بعضا منها فى سورة وبعضا اخر فى سورة اخرى ، فمن القريب ان الذى صدر منه تعالى فى توصيف نفسه لموسى كان كذا.

« انى انا ربك » «انى انا الله رب العالمين » « اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى « انه انا الله العزيز الحكيم »

ثم انه تعالى ذكر فى بعض الآيات محل الوحى و موضعه ، و انه كان فى شاطىء الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، و فى بعضها الاخر امره بخلع النعل لانه فى الوادى المقدس ، وانه اختاره تعالى لنفسه، وفى ثالث انه تعالى قد بارك لموسى ومن حوله من الملائكة المرسلين الى حضرته وغير ذلك من التقريبات المخرجة للايات عما يتوهم فيها من التعارض والتناقض

واما التعبيرات المختلفة فى انقلاب العصا حية ، فبيانها ان الانقلاب قد وقع ثلاث مرات ، « الاولى » عند تكلم موسى مع ربه واعطائه منصب النبوة و بذله الايات الكبرى التى اكبرها العصا . «الثانية» بعد مجيىء موسى واخيه الى فرعون بحضرة فرعون و جلسائه و ملائه واشراف مملكته . « وثالثة » بعد احضار فرعون السحرة وموسى واخيه، ودعوى الناس الى الخروج اليهم ،والنظر فى امر مغالبتهم

اما التعبير فى الاولى فقوله فى سورة (طه ١٧ - ٢٠) « وماتلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى.... قال القها ياموسى فالقيها فاذا هى حية تسعى» الى ان قال: «اذهب الى فرعون انه طغى» طه ٢٤

وقوله تعالى فى سورة (القصص -٣١): « وان الق عصاك فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الامنين .

و معنى كونها حية تسعى يوافق معنى كونها كالجان المتحرك حركة فى الاين والكم والكيف .

واما التعبير فى الثانية ، فقوله فى الاعراف ـ ۱۰۶ : «قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين... قالوا أرجه وأخاه وارسل فى المدائن حاشرين .

واما التعبير فى الثالثة ، فقوله فى الاعراف ايضاً ـ ۱۱۷ :«فلما القوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجائوا بسحر عظيم وأوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون .

ولم يقع التشبيه بالحية ولا بغيرها فى المورد الثالث فى آية الاعراف وغيرها بل قال تلقف ما يأفكون

قال تعالى: **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله و سيدا و حصوراً و نبيا من الصالحين ؛**

آل‌عمران ـ ۳۹

التفسير

ظاهر الكلام ان النداء واقع من جمع من الملائكة ، لكن يمكن ان يراد به الفرد، كما يقال : سافر مع المسلمين، وان يكون نزول عدة من الملك تشريفاً للمبشر والمبشر به .

ثم انه تعالى قد ذكر ليحيى النبى هيهنا أوصافاً ستة .

«الاول» انه يحيى ، وحيث انه يبعد ان لا يلاحظ فى تسمية الله تعالى مناسبة وارتباط ، فالاحرى ان يقال : ان الذى يستشهد فى سبيل ربه ، و فى طريق الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو لايموت ابدا، بل هو يحيى ابدا، فكان التسمية اشارة الى انه سوف يحيى اسمه وعنوانه فى الدنيا ويبقى الى الابد ، وانه سوف يحيى بعد قتله، فى عالم البرزخ، قال تعالى :

ولاتحسبن‌الذین قتلوا فی سبیل‌الله امواتاً بل احیاء عند ربهم یرزقون
(آل‌عمران ـ ۱۶۹)

الوصف‌الثانی انه‌مصدق‌بکلمة من‌الله، والمراد بها اما حسن الکلمة‌الصادرة من‌الله تعالی، فتشمل‌الکتب المنزلة کلها، اولها المنزل علی نوح وآخرها‌المنزل علی عیسی (ع) و هذا کان من جملة وظائف الانبیاء، فالتوراة صدقت ماقبله، والانجیل صدق التوراة والقرآن صدقهما، اوالمراد بها عیسی بن مریم کما فی قوله‌تعالی فی‌هذه‌السورة ـ ۴۳:

«اذ قالت الملائکة یامریم‌ان‌الله یبشرك بکلمة منه اسمه‌المسیح» ووجه‌تسمیته کلمةأی کلاماً لاجل انه (ع) وجد بقوله‌تعالی«کن»، أولانه‌کان کلاماکله، تکلمه وسکوته وافعاله وصفاته، فانه رب أحد یکون سکوته من اتم الکلمات واعلی المقامات، کما ان‌کلامه‌کذلك، فکان عیسی کنبینا صلی الله علیه وآله وسلم کلاما کله، فقیامه وقعوده وحرکاته وسکناته ومشیه ونظره وسماعه وجمیع اشاراته فضلا عن اقواله والفاظه وکلماته کلها، کلاما وکلمة، کما انه قد یکون الانسان بحیث یکون جمیع أقواله وکلماته سکوتا وابهاما غیرنافع وغیر مفید، وقد بین فی‌علم الاصول ان فعل المعصوم کقوله وتقریره حجة، وهذا یؤید ماذکرناه.

الوصف الثالث‌انه سید وهوالمتولی‌لامر جمع من‌الناس یسودهم‌ویسوسهم ویدبر امورهم، وکان یحیی سیدا علی ملة‌کبیرة کما هو مقتضی نبوته، والظاهر ان هذا الوصف بیان لمرتبة امامته وزعامته للامة، وهی غیر مرتبة النبوة، وایضاً فهو اما وصف استعدادی لم یخرج الی مرتبة الفعلیة ابدا لاستشهاده قبل عیسی ولم یکن له امامة فعلیة فی زمانه، او انه کان متصدیا لامر المجتمع منصوباً من قبل عیسی اماماً لجوامع بنی اسرائیل، وکان عیسی سیاحا یدور فی البلدان لهدایة العامة.

الوصف‌الرابع انه‌کان حصورا، والحصر‌المنع کمافی‌قوله تعالی:«وجعلنا

جهنم للكافرين حصيرا» (الاسراء ـ ۸) ای حابسا مانعا ، والظاهر ان المراد به‌ليس خصوص‌عدم تزويجه فی‌عمره، بل‌كونه حاسبالنفسه عما تشتهيه من الملاذالدنيوية والمشتهيات النفسانية ، فان افضل صفات النفس واكمل درجة الرقی فی الانسان تسلط قوته‌العاقلة علی‌نفسه وميولها وقواها وشهواتها وهواها، فيحبسها عمايخالف كمالها ورقاها فی مراحل العقائد والاخلاق والاعمال .

« فان قلت » : ان معنی ذلك رجحان ترك التزويج وكذا ترك الانتفاعـات بما رزق الله‌الانسان فی‌الدنيا، مع انه تعالی‌يقول: « قل‌من‌حرم زينة الله‌التی‌اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (الاعراف ـ ۳۲)

« قلت » : مع انه يمكن القول بكون ترك التزويج راجحا فی زمانه ، فان زمانه وزمان عيسی (ع) كان من‌الازمنة التی مالت النفوس‌الی الدنيا ميلاشديداً ، ورغبوا فی الشهوات والملاذ النفسانية ، فاقتضی تشريع العصر منع بعض‌الملاذ أو اكثرها غير مااقتضته ضرورة المعاش .

مع انه يمكن ان يقال : ان من وظائف الامام وزعيم الامة اذا رأی الامـة والمجتمع راغبين الی‌الدنيا، مكبين عليها حرصاً فی تحصيلها، ان يحرم علی‌نفسه بعض ماحله الله اولاوبالذات، لكی يقدرعلی ردع‌الناس فی‌المحرمات ويزجرهم عن الشهوات .

الوصف‌الخامس. انه نبی‌مبعوث آتاه الله الحكم صبياً، وجعله من‌المنبئين عن الله تعالی وان‌كان تابعا لعيسی ومؤمنا به .

الوصف السادس، انه من ذرية الصالحين من‌الانبياء والعباد، لان نسبه‌يصل الی داود وهو الی يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام .

قال تعالى : **قال رب انى يكون لى‌غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل مايشاء (٤٠) قال رب اجعل لى آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلثة ايام الارمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار .**

(٤١ آل‌عمران)

التفسير

يظهر من سئوال زكريا هذا وتوجيه خطابه الى ربه تعالى، ان‌نداء الملائكة لم يكن مقروناً برؤيته لهم والتكلم معهم ، بل نادوه من حيث لايراهم، ولعله‌كان غير شاعر بان المنادى الملك ، ولذلك وجه خطابه فى الجواب الى ربه، وحيث كان تبشيرالملائكة باذن الله تعالى وامره‌اسنده فى‌الاية السابقة الى الملائكة، وفى الاية السابعة من‌سورة مريم الى نفسه، قال تعالى :

«يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى» (مريم – ٧) فلاتخالف بين‌الايتين.

ثم ان‌السئوال وقع استعجابا وسروراً لاانكاراًواستبعادا ، فان ذلك لايناسب منصب النبوة ، ولوكان الامركذلك لما سئل الولد اصلا ، فالسئوال للاستعجاب واستفهام‌كيفية اعطائه بعد كبر سنه وعجزه عن مباشرة النساء وكون امرأته عاقرا، فسئل عن انه هل يرجع سنه الى الشباب ؟ او توجد فيه حالة الشباب ؟ وكذا فى امرأته ، او انه يرزقه تعالى زوجا غيرها ، او نحو ذلك من الاحتمالات .

ويظهر من قوله تعالى : « وقد بلغت من الكبر عتيا » (مريم – ٨) انه قد بلغ‌كبره فوق حد المعتاد، ونقل انه عمره كان مأة وعشرين سنة ، وعمر زوجه نيفاً وتسعين ، والايـة لاتدل على غير عقرها ، الا ان الاية الثامنة من سورة مريم لاتخلو من الاشعار بكبرها ايضاً لقوله تعالى : « وكانت امرأتى عاقرا » اى‌كانت فى وقت اقتضاء سنها للولادة عاقرا فكيف بها وهى كبيرة .

وقوله : « **قال كذلك الله** » مبتدء وخبر ، اى ان الله كذلك يفعل مايشاء ،

ای اذا تعلقت مشیته علی فعل شیء ولایمنعه مانع .

قوله تعالی : **قال رب اجعل لی آیة قال آیتك الاتكلم آه**

لماذا سئل زكریا علامة وآیة ؟ أكان علیه السلام فی موضع شك وتردید من النداء الواصل الیه ؟ وانه هل هو خطاب رحمانی صادر من عند الله بواسطة الملائكة اولا بالوساطة او هو خطاب شیطانی ألقاه الخبیث علی قلبه ، فسئل الایة لرفع هذا التردید ؟

أم سئل الآیة والعلامة لمعرفة زمان انعقاد النطفة وحصول العلوق كما ذكره الرازی فی تفسیره ، او لمعرفة زمان الولادة ، فیه وجهان .

یمكن القول بالاول وحینئذ ، یتوجه الاشكال بانه كیف یمكن للنبی ان یجیب المنادی بقوله : «رب أنی یكون آه» وقوله : « رب اجعل لی آیة » مع تجویزه كونه شیطانا والنداء وسوسة؟ لكنه مدفوع بامكان القول بعلمه ان النداء من‌الله، وسئوال الایة‌لطمأنینة القلب، كما فی‌قول ابراهیم بعدسئوالهٔ احیاء الموتی: « ولكن لیطمئن قلبی » .

وقوله : **« الا تكلم الناس آه »** ای نحرم لك التكلم تشریفا ، اولا تقدر علیه ، وهذا لا فرق بین ان تكون الایة آیة لصدق التبشیر اولانعقاد النطفة أو لقرب الولادة .

وقوله: «ثلثة أیام الارمزا» قدعبرتعالی هیهنا بالایام وفی سورة مریم‌بقوله: «ثلث لیال سویا» . ولليوم‌اطلاقات ثلثة، النهارمقابل اللیل ، واللیل‌والنهار كلاهما، وبمعنی الدهر ای المدة الطویلة غیر المحدودة، ولیس المراد هنا الاخیر ویحتمل أحد الاولین ، وعلی الاول فالمراد مع لیالیها وكذا الكلام فی‌كلمة اللیل .

والظاهر ان‌مفاد الایة لم‌یقع الامرة واحدة بلغة السریانیة ، فحكاه الرب تعالی فی‌مورد بلفظ وفی‌آخر بلفظ آخر، ومایقال: من‌انه‌لایخفی‌علیك الارتباط المعنوی بین‌الایة وهی‌عجز اللسان عن التكلم بغیر ذكرالله وذی الایة اعنی تولد نبی یأمر بالمعروف ویضحی نفسه فی‌طریق‌ذلك ،كماحكی ان فی‌لیلة ولادة النبی الاعظم

محمد صلى‌الله عليه‌وآله خرس ملوك الدنيا يوما اواياما، ففى‌ذلك ايماء الى‌ذهاب الباطل عندمجيئ الحق، وان‌كان بين‌المقامين فرق من‌جهةاخرى ، غير سديد .

ثم انه نقل عن انجيل لوقا ان‌جبرئيل قال لزكريا : «وهاانت تكون صامتاً ولاتقدران‌تتكلم الى‌اليوم الذى يكون‌فيه‌هذا لانك‌لم‌تصدق كلامى‌الذى‌سيتم‌فى‌وقته وظاهره‌ان‌عجزه عن التكلم حدث حين‌سؤاله الاية‌وبقى الى‌ولادة يحيى، وانه‌كان ذلك‌عقوبة سؤاله ، وقدعلل بعض المفسرين من‌المسلمين ايضا العجز بكونه عقوبة عاقبه‌الله تعالى بهالطلبه الاية بعد تبشيرالملك ، فتبع كلام الانجيل غفلة عن بطلانه

وقوله : «واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشى والابكار» العشى من الظهر الى الغروب ، أووقت العصر، والابكار من الصباح الى الضحى .

قوله تعالى: **واذ قالت الملائكة يامريم ان‌الله‌اصطفاك‌وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (۴۲) يامريم اقنتى لربك و اسجدى واركعى مع الراكعين(۴۳) ذلك من‌انباء الغيب نوحيه اليك وماكنت‌لديهم اذيلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وماكنت لديهم اذ يختصمون (۴۴) » .**

(آل عمران)

التفسير

الانسان يقع مورداً لمخاطبة اشخاص

الاول منهم هو الرب تعالى ، اما الانبياء منهم فالله يتكلم معهم باحدى‌الطرق الثلث :

كما سيجيئ ، وهى ايحاء خاص يتعلق بهم ، واما غيرهم ، فله‌تعالى ايحاء عام يتكلم بذلك مع الاناسى كلهم ، بل وغيرهم من الملك والحيوان والجماد

قال تعالى : اذيوحى‌ربك الى الملئكة انى معكم » (الانفال-۱۲)

وقال: « واوحينا الى ام‌موسى ان‌ارضعيه » (القصص -۷)

و قال : « و اوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا »

(النحل - ۶۸)

وقال : « يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها» (الزلزال -۵)

وقال : «وماكان لبشران يكلمه الله الاوحيا اومن وراء حجاب اويرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء انه عليّ حكيم » (الشورى - ۵۱)

فانه يشمل القسم الاول من التكلم فى هذه الاية جميع الانسان من الانبياء وغيرهم الاان الفارق بينهم ان الذى يوحى الى الانبياء بحسب الغالب هو الاحكام الشرعية والشرايع الكلية الالهية. والذى يوحى الى غيرهم هو الامور الجزئية والموضوعات الخارجية كما فى الايات قبلها فلاحظ، ما اوحى الله تعالى الى انبيائه . قال تعالى :

« بما اوحينا اليك هذا القرآن» (يوسف -۳)

« ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا»(النحل -۱۲۳)

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلوة اه»

(الانبياء - ۷۳)

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى اوحينا اليك »

(الشورى - ۱۳)

وهنا فارق آخر هو ان الانبياء يحصل لهم اليقين بصحة الوحى وكونه من عندالله تعالى بمجرد حصوله، وليس غيرهم كذلك بل هوفى حقهم مجرد القاآت باطنية يمكن ان يترددوا فيها ويشكوا فلا بد ان يرجعوا الى ماعلموه من الشرع والعقل فيوازنوا بهما حتى يحصل لهم الاطمينان بالصدق.

الثانى ممن يتكلم مع الانسان الملك، فهو ايضاً يتكلم مع الانبياء وغيرهم، قال تعالى :«اويرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء» الشورى-۵۱

وقال تعالى:«فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً... قال انما انارسول ربك لاهب لك غلاما زكياً» مريم- ۱۹ .

وقال تعالى: «فنادته الملئكة وهو قائم يصلى فى المحراب» آل عمران- ٣٩

وقال تعالى: «واذ قالت الملائكة يا مريم» آل عمران- ٤٢

الثالث الشيطان، فقد سمى الله تكلمه معه قولا ووحيا ووعدا وامرا ووسوسة ونحو ذلك.

قال تعالى: «كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر» الحشر -١٦

وقال تعالى: «وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم» الانعام- ١٢١

وقال تعالى: «يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان الاغرورا» النساء- ١٢٠

وقال تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» البقرة - ٢٦٨

وقال تعالى: «يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس» الناس - ٥

الرابع الجن، فيستفاد من موارد من القرآن امكان ارتباطهم مع الانس، وتكلمهم معهم.

قال تعالى: «قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك» النمل - ٣٩

«وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً» الجن-٦

«واذ صرفنا اليك نفرا من الجن» الاحقاف - ٢٩

الخامس الحيوان، قال تعالى:

«وورث سليمان داود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير» النمل-١٦

«حتى اذا اتوا على وادى النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها» النمل- ١٩

«فمكث غير بعيد فقال احطت بمالم تحط به» النمل- ٢٢

السادس اجزاء العالم كلها جمادها ونباتها وغير ذلك، فانها كما تسبح لله تعالى: وتقدسه، كذلك تتكلم مع الانسان بلسان حالها، اما تسبيحها فقد قال تعالى:

«يسبح لله مافى السموات ومافى الارض» الجمعة -١

وقال :«وان من شىء الا يسبح بحمده» الاسراء - ۴۴

وقال :«انا سخرنا الجبال معه يسبحن»ص-۱۸

واما تكلمها مع الانسان فلم نجد له شاهدا من الكتاب الكريم،الا انه ورد فى بعض الاخبار مخاطبة الارض وبعض الايام والليالى وغيرها للانسان،ووعظها وتحذيرها اياه

وقوله تعالى :«**ان الله اصطفاك وطهرك آه**»يمكن ان يكون المراد بالتطهير هنا هو تطهيرها من حيث الجسم تطهيراً ذا ابعاد ثلثة، اى من العيوب و الامراض والادران ومن حيث الروح ايضا كذلك، اى تطهيرها من العقائد الباطلة والاخلاق الرذيلة والاعمال القبيحة،وكذا التطهير من حيث النسب والاهل، كما حكاه تعالى فى سورة مريم عن قومها حيث قالوا: «يا اخت هرون ماكان ابوك امرء سوءٍ وما كانت امك بغيا» .

واما الاصطفاء،فالمراد بالاول منه اصطفائها بنفسها ببعض الكمالات والفضائل ولو كان تشرك فيها معها عدة آخرون، كقبول تحريرها لخدمة البيت ،وتكفل زكريا حضانتها وحفظها ، وصيرورتها عابدة بل اعبد من غيرها، و حضور الرزق عندها فى محرابها ، وتكلم الملائكة معها.

واما الاصطفاء الثانى ، فالظاهر ان المراد به حملها بعيسى و ولادتها بنحو غير معتاد اى بلا زوج، وهى فى هذه الفضيلة مفضلة على جميع العالمين.

فالاية مسوقة لبيان وصف طهارتها واصطفائها فى نفسها مع قطع النظر عن المقايسة بغيرها ، واصطفائها بالنظر الى مقايستها بغيرها ، والاصطفاء الاول والتطهير المذكور قد حصلا متقارنين فى ازمنة عمرها والاصطفاء الثانى متأخر فتقديم ايهما لابأس به .

وقوله:«**يامريم اقنتى لربك واسجدى آه**»

القنوت الطاعة المقرونة بالخضوع، والسجود هنا بمعناه المصطلح الشرعى والركوع الصلوة ، فأمرتها الملائكة بالطاعة لله مطلقا، ثم بالفرد الخاص منها ، ثم

بالفرد الاكمل وهو الصلوة مع العباد وفى زمرتهم او باقامة الصلوة جماعة .

وقوله: **«ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك آه »**

ذكر تعالى بعد بيان ان‌الله اصطفى آدم‌ونوحا آه، قصصاً اربعا، احديهاقصة حنة امرئة عمران وبينها فى آيات ثلث ، وثانيتها قصة زكريا واتمهافى اربع آيات وثالثتهاقصة مريم و اوضحها فى خمس آيات ، ثم اشار الى قصة عيسى فى عشر آيات، ثم انه تعالى بعدماحكى شيئاً يسيرا من حال مريم، بين لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان الانباء المذكورة من‌قبيل الغيب الذى لم يطلع عليه احد فى‌عصره، واوحاه‌الله تعالى اليه، واشار فى‌ضمن‌هذا البيان الى‌شىء من‌حالات مريم‌فى‌صغرها وان العباد اوسنة البيت قداجتمعوا فتنازعوا فى تكفلها حتى آل‌امرهم الى‌الاقتراع فاصابت القرعة زكريا .

ثم انه قد يقال : ان المراد بنفى حضور النبى صلى‌الله عليه و آله وسلم عند تلك الواقعة اثبات ان مايخبربه كله من‌عندالله فان اهل الكتاب كانوا مقرين بانه صلى‌الله عليه وآله‌وسلم لم يقرء الكتاب ولم يرو الاخبار عن احد ، اذا فيكون الجميع‌عندهم ايضا من الغيب الذى القاه‌الله اليه .

« ان قلت » : كيف يمكن دعوى اعترافهم بذلك ؟ مع ما حكى الله عنهم فى قوله :

«وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا» الفرقان-٥

وفى‌قوله:«ولقدنعلم انهم يقولون انمايعلمه‌بشرلسان‌الذى‌يلحدون اليه‌اعجمى وهذا لسان عربى مبين» النحل- ١٠٣

«قلت»: الايتان مكيتان ، نقل‌فيهما افتراءالمشركين على‌النبى صلى‌الله عليه وآله‌وسلم ، ولم‌يعلم القول‌به من اهل الكتاب الذين‌عاصروا النبى فى المدينة فى زمان‌نزول الاية‌المبحوث عنها،بل الظاهر انهم‌كانوا يعلمون عدم‌قرائة النبى‌الكتب وعدم‌اخذه العلم‌عن احد، فانهم‌كانوا يعرفونه‌كما يعرفون ابنائهم ، وكانوا يعلمون

انه‌صلی‌الله علیه‌وآله وسلم لم‌یأخذ ذلك من کتبهم ایضاً، فان‌غالب ماذکره‌الله من القصص لم‌یوافق کتبهم المحرفة اولم‌یکن موجودا فی کتبهم مع‌انه تعالی فی‌الایة الثانیة قدرد علیهم بان‌لسان الذین‌نسبوا تعلیم‌النبی الیهم‌أعجمی والقرآن عربی مبین، فکیف‌یمکن‌اخذه‌العلم منهم ؟ .

وقوله : «**وماکنت لدیهم آه**» . الاقلام‌هنا هی القداح المبروئة للقرعة ، فکانوا یلقونها فی‌النهرالقلیل‌الماء ، فمن‌رسخ قدحه فی الطین نال مطلوبه ، اوکانوا یلقونها فی‌ظرف او کیس ، فیخرجونها علی الترتیب ، والظاهران اختصامهم‌قبل ان تصل النوبة الی الاقتراع ، ویحتمل ان یکون بعده فی اتهاب بعض حق الاخر ونحو ذلك .

قال تعالی : «**اذقالت الملئكة یا مریم ان الله یبشرك بكلمة منه اسمه المسیح عیسی ابن‌مریم وجیهافی‌الدنیا والاخرة ومن‌المقربین ۴۵ ویكلم الناس فی‌المهد وكهلا ومن الصالحین**» آل‌عمران ـ ۴۶

التفسیر

القول الملقی الی‌مریم صادرمن عدة من‌الملئكة، اذالكلام بشارة، والمبشر هوالرب تعالی والمبشر مصطفاة مطهرة محدثة ، والمبشر به نبی‌من‌الانبیاء ورسول من‌اولی‌العزم منهم له‌كتاب سماوی وشریعة واحكام .

ویظهر من الایات ان‌مریم لم‌تكن تعلم‌ان الخطاب من الملئكة ، بل‌كانت تتخیل ان‌الله خاطبها بعنوان‌الغیبة دون التكلم ، ولذلك وجهت خطابها الی الله دون الملئكة فی‌جواب المنادی .

ثم‌ان صاحب تفسیرالمنار قال: ان‌المراد بالملئكة هناالروح جبرئیل لقوله تعالی فی‌سورة مریم :

«فارسلنا الیهاروحنا فتمثل‌لها بشراسویا» ۱۹ـ لكن الظاهرخلافه وان‌اختاره

بعض الاعاظم ايضا، فان‌هذه الاية بيان لحصول البشارة وانهاوقعت بواسطة عـدة من‌الملئكة كماهو ظاهر اطلاق لفظ‌الجمع ويؤيده وقوع‌السؤال منهابنحو توجيه الخطاب الى‌الله‌تعالى دون‌الملئكة ، فسألت عن انه‌كيف يمكن حصول الولدمع عدم‌زوج لها؟، ولايناسب هذاسياق الايات الواقعة فى‌سورة مريم وان‌كان اللازم حينئذ القول بتكرر وقوع السؤال منهاعن كيفية التولد مع عـدم مساسها بشرا ، وبالجملة مقتضى ظاهر الايات‌هنا وهناك ان‌مجيئ الملئكة للبشارة وقع فى‌وقت ، ومجيئ الرسول الواحد لتنجيزه‌البشارة وقع‌فى‌وقت آخر ،مع‌فصل زمان‌بينهماغير معلوم المقدار .

ثم‌انه تعالى قد عد لعيسى من الاوصاف والافعال ثمانية عشرامرا، والظاهر ان‌الجميع ممـا اخبرت بها الملئكة مريم ، فبعضها قبل استعجابها عن حال تلك الولادة ، وبعضها بعده ، وهى عبارة عن الامور التالية :

١- الكلمة ٢ - المسيح ٣ - عيسى ابن مريم ٤ - الوجيه فى الدنيـا ٥ - الوجيه فى الاخرة ٦ - من المقربين ٧ - يكلم الناس فى المهد ٨ - يكلمهم كهلا ٩ - من‌الصالحين ١٠ - يعلمه‌الله الكتاب والحكمة ١١ - الرسول الى بنى‌اسرائيل ١٢ يصور الطيرويحييه بالنفخ ١٣ - يبرئ الاكمه ١٤ - يبرء‌الابرص ١٥ - يحيى الموتى ١٦- ينبئ‌بما يأكلون ويدخرون ١٧- مصدق للتوراة ١٨ - محلّل بعض ماحرمه الله من قبل .

وذكر المفسرون فى اطلاق الكلمة عليه وجوها لايخلواكثرها من النظربل التعسف ، ويمكن القول : بان المراد بها هو ماذكرناه آنفا فى ذيل الاية ٣٩ بان عيسى كلام الهى وكتاب تكوينى ناطق، وانجيله كلام الهى صامت ، فهو كلمة الله اى كلامه ، وقد سمعت تقريب كونه كلاما .

ويمكن ايضاكون المراد انه المتولد بكلمة الله اى كلمة الايجاد وهى قوله تعالى : «كن» اذا شاء ايجاد شيئ : وقد بين تعالى كيفية ايجاد الاشياء وحصولها

بكلمة « كن » فى موارد من الكتاب الكريم ، قال تعالى :

« وقالوا اتخذ الله ولـدا سبحانه . . . بديع السموات والارض واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون » البقرة ـ ۱۱۷

وقال تعالى : « انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون » النحل ـ ۴۰

وقال تعالى : « انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون » يس ـ ۸۲

« فان قيل » : ان لازم ماذكرت كون كل شيىء من الموجودات كلمة الله تعالى، وهواصطلاح غيرمأنوس، مع انه لايكون ذلك حينئذمدحا لعيسى ابن مريم، لان كل موجود كذلك ، وظاهر الاية كونها فى مقام مدحه والتبشير بوجود ولـد متصف بهذا الوصف .

«قلنا» : لااشكال فى كون كل شيىء كلمة الله تعالى بهذا المعنى ، واماكون ذلك مدحا لعيسى فلاجل تكونه على خلاف الطريق المعتاد فى خلق الانسان، وحصول ذلك بنفخ من الملك لابالنكاح والزواج ، وهذه فضيلة خاصة به ليست فى غيره .

ثم ان ماذكرنا من معنى كلمة الايجاد وتطبيق الايات السابقة عليه مبنى على ماذكره بعض المفسرين فى تلك الايات ، لكن فيه مالايخفى ، اذ يصعب الالتزام بان خلق كل شيىء من الاشياء لايحصل الا بكلمة كن ، وما هو معنى تكلمه تعالى بهذه الكلمة ؟ فان كلامه عبارة عن خلق الصوت ، فما الحاجة الى خلق الصوت، عند خلق الاشياء ؟ ، مع انه يلزم خلق صوت آخر عند خلق هذا الصوت وهكذا فيلزم التسلسل .

فالاولى ان يقال : ان قوله تعالى : « ان نقول له كن » لبيان انـه تعالى ابى ان يجرى الامور الابالاسباب ، فادراج كلمة كن فى المقام لبيان انه اذا اراد شيئا هيأ اسبابه واوجدها فيوجد المسبب ، او لبيان ان الله اذا اراد شيئا اوجده بايسر نحو يتصور فى الخلقة حيث ان ايسر الاسباب فى ايجاد شيء للانسان لوكان قادراً

هو ايجاده بالامر بالكـون ، فالله يوجد الاشياء بايسر طريق الايجاد ، ولعله نفس الارادة .

واما المسيح فهو فعيل بمعنى الفاعل ، لانـه كان يمسح ذوى العاهات بيده فيبرئون، اوكان يمسح مرضى القلوب بارادته وحنانه فيبرئون عن آفة العقائد الباطلة والاخلاق الرذيلة، ويمكن كونه بمعنى المفعول فانه كان ممسوحا بالبركة من جانب الرب تعالى ، حيث يقول : « وجعلني مباركا اينما كنت » .

وعيسى مقلوب يسوع بمعنى المنجي اوبمعنى يعيش .

وقوله : «**وجيها فى الدنيا والاخرة**» الوجيه ذو الشرف والمكانة والجاه، وكونه كذلك فى الدارين واضح .

ثم ان الدنيا عبارة عن دار يعيش فيها الانسان وازمنة حياة له قد نمى ونتج فيها كل بذر اودع فى طينته من عالم الرحم ، فان هنالك اذ كان نطفة امشاجا قد زرعت فى روحه وغرست فى مغرس جبلته صفات واخلاق وسجايا حسنة اوقبيحة مما اودعه الرب تعالى وفقا لنظام التكوين ورعاية لمصلحة التدبير، اوزرعه الابوان وكذا كل خليط اختلط فى ذاته من ناحية افراد مجتمعة من غير شعوره بذلك .

وبالجملة اكثر العقائد والصفات التى تظهر فى الدنيـا فى الانسان حصائد ونتائج مما عجنت بـه الطينة فى عالم الرحم ، فالدنيـا دار تنمو فيه تلك البذور والمغارس ، الا ان الله تعالى قد اودع فى المكلف قوة عاقلة مسلطة ، له ان يدبر امر الطينة ومزارع البذور ومغارس الاشجار، فيبقيها وينميها ويبريها اويقطعها ويزيلها ويزرع فى مكانها شيئا آخر من عقائد وفضائل ورذائل، فوجودها الجبلى والطبيعى ليس بنحو العلية التامة فى الانتاج الدائم فى الدنيا ، قال تعالى :

«اناخلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا اناهديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » الدهر ـ ٣

فالامشاج المختلطات من امور ومواد ، والابتلاء يكون باعطاء العقل المميز

المدرك عن طريق السمع والبصر، ثم أيد ذلك بارسال الرسل والكتب، وهو الهداية الى السبيل ، هذا هى الدنيا .

واما الاخرة فهى الدار الاخرى ، والزمان بعد هذا الزمان ، يستنتج فيها ويحصد ما اودعه الانسان فى نفسه فى هذه الدنيا، فان كل ما اعتقده من العقائد، واتصف به من الصفات والملكات، وعمله من الاعمال فى دنياه لها تأثير خاص فى النفس وتوجد فيها حالات تظهر نتاجها فى الآخرة، وتتصف الروح بها فى تلك الدار، وكما لايمكن ظهور البذور المودعة فى الرحم قبل الخروج عنه ، اذ ليس فى المحل المزروع وفى محيط الرحم قابلية تلك التنمية والرشد والتكامل والظهور ، فكذا لايمكن اتصاف الروح بما اقتضته الاخلاق والاعمال الا بعد خلع هذا البدن وطرح هذا اللباس، ثم الخروج عن هذا المحيط غير القابل ليظهر صفات الروح فى بدن آخر يناسب تغيرها وتبدلها وصفاتها .

وذلك كما فى القالب المثالى فى بعض النفوس، وهى التى تكون حية متنعمة او معذبة فى البرزخ ، او فى البدن الدنيوى الذى قد صور فى القيمة وسوى بنحو يدوم ويبقى ولا ينعدم ولا يفنى ، وذلك لعدم امكان ظهور نتائج العقائد والاعمال فى هذه الدار الصغيرة الفانية المنصرمة، وكيف يعقل ظهور نتائج الاعمال الدنيوية الحسنة التى لايمكن ترتبها الافى آلاف من السنين أو الاعمال السيئة التى هى كذلك.

ثم ليعلم ان انتاج القوى المودعة فى الدنيا فى عالم الاخرة قد يكون بنحو العلة التامة غير القابلة للانفكاك ،كما فى انتاج الايمان والكفر والشرك وسائر العقائد الاصولية بل والاعمال الصالحة ، وقد يكون بنحو الاقتضاء مع قابلية الانفكاك كما فى انتاج الصفات الرذيلة والمعاصى الكبيرة والصغيرة مع بقاء الايمان، اذ هى تقبل الانفكاك بحيث لايترتب عليها آثارها السيئة فى الاخرة اما بدعاء المؤمنين او ببعض اعماله الصالحة الباقية فى الدنيا كما قال تعالى .

«ونكتب ماقدموا وآثارهم» (يس–۷) واما بواسطة الشفاعة المسلمة وقوعها فى الاخرة .

وبالجملة الدنيا هى الدار القريبة منا والزمان الواقع فيه ظهورنتائج عالم الرحم المودعة فى‌الروح والنفس بيدالرب الجليل، أودخالة نفوس آخر من‌الاب والام والشيطان وغيرهم .

والاخرة هى الدار البعيدة منا بالاضافة الى الدنيا ، والزمان الذى يحدث فيه نتائج البذور المودعة فى النفس والمغروسة فيها بيد الانسان نفسه وبنظارته وتدبيره .

وقوله تعالى : « **ويكلم الناس فى المهد وكهلاآه** » .

لاشكال فى‌كون التكليم فى المهد بنحو الاعجاز ، ولوفرضنا وقوعه بعد مضى سنة أو سنتين من عمره اى فى وقت امكان التكلم لكل صبى ، فان المراد به الكلام مع‌الناس بمقتضى‌افهامهم وتناسب عقولهم، وهذا لايتيسر للصبى‌المتكلم فى بدء امره مع ان الايات فى‌سورة مريم تدل على وقوع التكلم عقيب‌الولادة ، قال تعالى :

«فاتت به‌قومها تحمله‌قالوا يامريم لقدجئت شيئافريا(۲۷)الى ان‌قال: «فاشارت اليه قالواكيف نكلم من‌كان فى المهد صبيا (۲۹)

واما التكليم‌فى‌حال الكهولة فذكره فى‌الاية الشريفة لابد من‌ان يكون لبيان امرهام ونكتة لطيفة ، فقد قيل : ان الغرض التشبيه وكون تكلمه فى صباه كتكلمه فى كهولته .

والظاهر ان المراد بالكهولة هو كمال الانسان فى قواه البدنية وتفكيراته الروحية ، وذلك يكون بطبع الحال بعدأربعين من سنى‌العمر، والاية مصرحة بان عيسى يكلم الناس فى وقتين ، وظاهرها وقوع الفصل الزمانى بين الوقتين بتخلل عدم التكلم معهم فيما بين ذلك ، فهى تشير الى مادل عليه احاديث اهل البيت من ان‌المسيح ينزل حين‌ظهورمولانا المهدى عجل‌الله‌تعالى‌فرجه، ويصلى خلفه‌جماعة، ويكون من اعوانه على دينه وانصاره على الحق :

والظاهران مجيئه عندئذ يكون مع كمال‌قوته‌البدنية والروحية وهى‌الكهولة

كماان مولانا المهدى ايضايكون كذلك، ولا ينافى ذلك كثرة سنهم من جهة العمر العادى كبلوغ سن مولانا الحجة عجل الله تعالى فرجه الى ۱۲۵۰ تقريبا ، وسن عيسى الى۱۹۷۶ ، ويربوا عليهما سن الخضر النبى ، و لعله يبلغ ثلث آلاف سنة أو اكثر .

وقوله « **ومن الصالحين**» اى فى عقائدهم واوصافهم الروحية واعمالهم ، فينطبق الانسان التام الكامل فى جميع تلك الجهات على الانبياء ، فالاية تشيرالى كونه من نسل الانبياء والمرسلين ، وهو كذلك ، اذينتهى نسبه الى اسرائيل واسحق وابراهيم عليهم السلام .

قوله تعالى : **قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشرقال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون (۴۷) ويعلمه الكتاب والحكمة والتورية والانجيل (۴۸) ورسولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم باية من ربكم انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطيرفانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وابرىء الاكمه والابرص واحى الموتى باذن الله وانبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين** (آل عمران ۴۹)

التفسير

ظاهرسئوالهاانها علمت بهبةالولدلها من غيرطريق الزواج، كما انالجواب ايضا يؤيد ذلك . فان قوله كذلك خبرمبتدء محذوف اى الامر كذلك او كذلك الله وقوله يخلق ما يشاء بيان للجملة قبله ، ومعناه انالله اذا شاء خلق شىء خلقه واوجده بلاعجز فى ذلك ولا قصور ، و قوله : «اذا قضى امرا» بيان لكيفية خلقه بعد تعلق مشيته به وانه يقع باسهل طرقه ، كما اذا اوجد الناس شيئا بمجرد الامر بالوجود كما ذكر آنفا .والقضاء هنا بمعنى الارادة والمشية، والامر بمعنى الشىء ، والضمير

المجرور فی قوله : «له» يرجع الى الشيء ويراد به الماهية ، فان الامر بالوجود الخارجی لان يوجد طلب لحصول الحاصل والوجود الذهنی لايكون فی المبدء تعالی بنحو يسانخ حالنا كما هو واضح

ثم ان ظاهر الاية علی ما استفاده عدة من المفسرين ، كون اعطاء الولد لها بنحو الاعجاز وخرق الطبيعة ، ولكن نقول ان فيه مذهبين

«الاول» كونه كذلك ای بنحو الاعجاز بان يقال : قد تكون الجنين فی رحم مريم دفعة اوتدريجا من غير طريق العادة ، ولا علی سبيل الاعتياد ، بل بايجاد المادة البدنية اولا ونفخ الروح فيها ثانيا ، اوبايجادهما دفعة واحدة ، فعيسی امر وشيیء قضاه الله ، وقال له «كن» فوجد وكان، ويظهر ذلك ايضاً عن قوله تعالی فی سورة مريم :

«قال كذلك قال ربك هو علی هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان امرا مقضيا (٢١) فحملته فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فاجائها المخاض الى جذع النخلة (٢٣) .

ومن قوله تعالی : «والتی احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا و جعلناها وابنها آية للعالمين الانبياء -٩١

وقوله : «ومريم ابنت عمران التی احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا» التحريم -١٢

و الكل ظاهر فی كون اعطائها الولد من غير طريق العادة ، بل وجد فی رحمها بالنفخ فيه اوفيها .

«الثانی» كون الاعطاء جاريا علی قوانين الطبيعة لاخارقا لها، ويمكن تقريب هذا القول وان لم يأت صاحبه بامر واضح ، بان التجارب العلمية الحاصلة فی العصور الاخيرة قد اثبتت بحيث لم يبق لاربابها مرية وترديد ، ان الاناث من الحيوانات قد تحمل وتلد بلامساس الذكور من جنسها ، وذلك لان الجراثيم الصغار

الموجودة فى نطفة الذكور المسماة عندهم بـ «اسپر ماتوزوئيد» التى هى مبدء تكون الانسان مثلا ، لابد ان تجتمع وتختلط مع ما هو موجود فى نطفة الاناث الموسوم بـ«اول»، وقداثبتت التجربة انه قديكون كلاالنوعين منها فى نطفةالاناث، الاان انصباب نطفتها فى رحمها لايكون الابسبب ، فقد يتحقق بعروض التخيل الذهنى ، وقديكون برؤية الذكور ، فتتحرك شهوتها ، وتصب النطفة فى رحمها، وينعقدالولد .

وحينئذ يمكن ان يقال : ان تذكرمريم من كلام‌الله‌او كلام الملك امرالولادة قدانجرالى تصور امرالمواقعة ، فصار سببا لذلك ، اوان‌رؤية الملك بصورة البشر اورثت ذلك ، فانعقدت النطفة فى رحمها ولدا ، وليس فى آيات مريم‌دلالة على كون ذلك فى‌ساعة واحدةاوساعات مثلا ،كماعن‌ابن‌عباس ، قال: ليس بين‌الانتباذ والحمل الاساعة ، و استدل على ذلك بوجود الفاء فى قوله تعالى : « فحملته . فانتبذت، فاجائها المخاض آه» ، بل قد ورد فى‌اخبار اهل البيت عن مولانا الباقر عليه السلام: انه كانت‌مدة‌حمل‌عيسى كحمل الحسين‌بن‌على بن‌ابيطالب‌عليهم‌السلام ستة اشهر

وقوله تعالى :**«ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل»**

الكتاب اما يراد به جنسه اى‌الكتب المنزلة من‌عندالله على الانبياء كلهم ، فذكرالتوراة والانجيل‌بعده‌تخصيص بعدتعميم، اوالمراد به‌الكتابة والخط، ويؤيده مقارنته‌بالحكمة ، فعلمه‌الله‌الكتاب والعلم كماقال تعالى فى‌سورة العلق :

«اقرءوربك الاكرم الذى علم بالقلم علم‌الانسان مالم يعلم » ۳

واما الحكمة فهى اما الاحكام الشرعية الالهية‌من‌الاصول الاعتقادية‌والفروع العملية والاخلاقيات ، وبعبارة اخرى‌هى‌الدين الذى‌جاء به عيسى فان‌جميع الدين واحكامه ينقسم الى هذه‌الانواع الثلثة .

اوهى عبارة عن الاحكام التى يستقل العقل بها ويحكم برجحانها، اوقبحها

وهذا المعنى يقرب من الاول، الا ان بينهما عموما من وجه، اذ قد لايدرك العقل بعض احكام الشرع ، وقد يحكم بشيىء لايمضيه الشرع وان كان نادرا

وذكر الله تعالى فى سورة الاسراء عدة من الامور والاحكام ،ثم قال ان ذلك كله من قبيل الحكمة ، ولو تأملت فيها لوجدتها احكاماً يستقل العقل بها و يمضيها ويستحسنها او يستقبحها

١ ـ لاتجعل مع الله الها آخر ، اى اعتقد به قلبا ولا تعقد بغيره .

٢ ـ لاتعبدوا الا اياه ، اى اخضعوا له فى العمل لالغيره

٣ ـ وبالوالدين احسانا ، اى احسن بهما احسانا .

٤ ـ فلا تقل لهما اف

٥ ـ ولاتنهرهما .

٦ ـ وقل لهما قولا كريما

٧ ـ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة

٨ ـ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا .

٩ ـ وآت ذا القربى حقه .

١٠ ـ والمسكين ،

١١ ـ وابن السبيل .

١٢ ـ ولا تبذر تبذيرا

١٣ ـ فقل لهم قولا ميسورا .

١٤ ـ ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك .

١٥ ـ ولاتبسطها كل البسط

١٦ ـ ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق

١٧ ـ ولاتقربوا الزنى

١٨ ـ ولاتقتلوا النفس التى حرم الله ، الا بالحق ، اى اقتلوها بالحق

۱۹ ـ فلایسرف فی‌القتل

۲۰ ـ ولاتقربوا مال الیتیم الابالتی هی احسن ، ای‌اقربوه بالطریق الحسن

۲۱ ـ واوفوا بالعهد .

۲۲ ـ واوفوا الکیل اذا کلتم

۲۳ ـ وزنوا بالقسطاس المستقیم .

۲۴ ـ ولاتقف مالیس لک‌به‌علم .

۲۵ ـ ولاتمش فی‌الارض‌مرحا

ثم قال تعالی : «کل‌ذلک کان سیئه عندربک مکروها (۳۸) ذلک‌مما اوحی الیک‌ربک من‌الحکمة (۳۹) »الاسراء

فقدعدالله تلک‌الاحکام فی‌ست‌عشرة آیة اولها الایة (۲۲) من‌الاسراء واخرها الایة ۳۷ ، ومجموعها تسعة وعشرون حکما اصلیاً وفرعیا ، خمسة عشر منها امر ، واربعة عشر منها نهی ،

ثم انک ان تأملت موارد الاستعمال‌الحکمة فی‌الکتاب الکریم وهی‌عشرون مورداً تجدها تشعر بالاهتمام التام بحالها ، فلاحظ الایات التالیة:

« واذ اخذنا میثاق النبیین لما آتیتکم من‌کتاب وحکمة ثم جائکم رسول مصدق لمامعکم لتؤمنن‌به ولتنصرنه» آل عمران ۸۱:

فقدآتینا آل ابراهیم الکتاب والحکمة (۵۴ النساء

وقتل‌داود جالوت و آتاه‌الله الملک والحکمة (۲۵۱ البقرة)

وشددنا ملکه‌وآتیناه الحکمة(۲۰ص)

ولقدآتینا لقمان الحکمة (۱۲لقمان)

واذکرن مایتلی فی‌بیوتکن من آیات‌الله والحکمة (۳۴الاحزاب)

یتلوعلیهم آیاته ویزکیهم ویعلمهم الکتاب والحکمة (۲الجمعة)

یؤتی الحکمة من‌یشاء ومن یؤت الحکمة‌فقداوتی خیراً کثیراً (۲۶۹البقرة)

فنعلم من اهتمام الرب تعالى فى كتابه على هذا العنوان انه امر عظيم و نعمة جسيمة، ونجد من ابناء زماننا اليوم رغبة تامة فى تعلم مايستقل به العقول ، ولهم اتكاء عجيب على ما يصدقه العقل ويمضيه ، وهذا هو السر اوشي من الاسرار فى الفات الانظار الى الحكمة والامتنان على الامة فى بذلها واعطائها .

وقوله **والتوراة والانجيل**

التوراة فى اللغة بمعنى الشريعة او الوحى وفى اصطلاح القرآن عبارة عن الكتاب السماوى المنزل على موسى بن عمران فى الواح خاصة لكن الظاهر المؤيد بشهادة التاريخ بل ونصوص الكتاب الكريم ان التوراة الاصلية المنزلة على موسى ليست باقية على ماهى عليه قطعاً ،كيف وهى قد فقدت بعد غلبة بعض الملوك على بنى اسرائيل ، وهدمه بيت المقدس والمسجد الاقصى و احراقه كتب اليهود و نسخ التوراة ، ومن جملتهم بخت النصر ملك بابل حيث تسلط عليهم وقتلهم تقتيلا واسر الباقين ونقلهم الى بابل واحرق التوراة وغيرها ، ثم ان عزيرا وزكريا وهم من جملة الانبياء عزموا بعد برهة من الزمان على جمعها وتأليفها ، فالفوها ونظموها نظما ثم فقد ذلك ايضاً فى الحوادث المتأخرة النازلة على بنى اسرائيل .

وبالجملة ليست التوراة الفعلية نفس ذلك الكتاب المنزل من عندالله ولا غيرها بالكلية، بل فيها شيء من ذلك واشياء من غيرها بعدما لعبت بها ايدى التحريف، فهى مركبة من حق وباطل وضغث من الله وضغث من الشيطان والتوراة الموجودة بالفعل تشتمل على اسفار خمسة .

والانجيل فى اللغة البشارة ، وفى اصطلاح الكتاب الكريم مجموع الكتاب السماوى المنزل على عيسى بن مريم الذى وقع فيه البشارة او البشارات بمجيىء النبى الاعظم محمد (ص) ،قال تعالى :

واذقال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد.(٦- الصف) وعمدة مباحث هذا

الکتاب عبارة عن قصص ووقائع وقعت بعد غیبة عیسی وعن تراجم حال عیسی وعاداته واقواله وافعاله وماظهر منه من خوارق الامور و المعجزات ، ولاتعرض فیه لشیء من الاحکام الشرعیة الا بنحو الندرة وهذا ایضا کالتوراة لم تسلم من لعب ید التحریف به ، بل صار امره افظع من التوراة فانه بعد مارفع الله الیه نبیه عیسی وقبض التوراة منهم معه الف کل واحد من تلامذته مماکان فی ذکره من الانجیل وماسنح بخاطره من الفاظه ومقاصده ، ثم خلط به من نفسه ماشاء من القصص والحوادث وغیرها مما یری فی الاناجیل الفعلیة ، فاخرجه للناس قائلا هو من عندالله وماهو من عندالله ومدعیا انه هو المنزل علی عیسی ابن مریم فکثرت تلک التآلیف حتی جاوزت المأة .

ثم انه اجتمع اصحاب الکنائس من علماء النصاری فتشاوروا وتفکروا وتأملوا فی امر الاناجیل ، فاختاروا منها اربعة وامضوها وعرفوها بانها کتب سماویة واسقطوا غیرها عن الاعتبار وافتوا ببطلانه ومن جملة ماحکموا بعدم اعتباره انجیل برنابا و کان الملاک فی القبول والرد میولهم واهوائهم واقتضاء رئاساتهم وسیاساتهم .

وقوله تعالی : **ورسولا الی بنی اسرائیل ...**

ظاهر الایة الشریفة اختصاص رسالة عیسی ببنی اسرائیل وقدیدعی عمومها لجمیع الناس الموجودین فی ذاک العصر بل المعدومین منهم الی زمان بعثة النبی الاعظم محمد (ص)، وتوضیح المطلب یحتاج الی تقدمة وهی ان الدین فی بعض اطلاقاته اوکثیر منها. عبارة عن القدر المشترک بین الشرایع السماویة المنزلة علی الانبیاء (ع). وحقیقته التسلیم لله تعالی قلباً وعملا فی ما امر بالاعتقاد به والعمل له وهذا المعنی هو روح الشرایع ولبها وحقیقتها الثابتة الباقیة بمر الدهور مع تبادل التشریعات وتغیر الشرایع ، فالدین واحد والشرایع مختلفة والدین ثابت لایتطرق الیه النسخ والفناء والزوال ، والشرایع تکون منسوخة و ناسخة وقد یطلق الدین علی نفس-الشریعة الخاصة کما انه قدیطلق علی الجزاء وعلی الطاعة ایضا .

قال تعالی : ان الدین عندالله الاسلام (۱۹ آل‌عمران) ای الدین حقیقته وجوهره

التسليم‌لله باطناوظاهراً .

وقال تعالى حكاية عن اسرائيل يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الاوانتم مسلمون (١٣٢-البقرة) ويظهرمنها ان الدين هوالتسليم .

وقال تعالى: ومن‌يبتغ غيرالاسلام دينافلن يقبل‌منه (٨٥آل‌عمران) اى لايقبل من‌احد غيرالتسليم للهوغيره هوالكفر والشرك والنفاق .

ثم‌ان الدين يتشكل فى كل عصر وزمان بصورة خاصة من احكام اصولية و فروعية وغيرها ، فيسمى عندئذ بالشريعة كما عرفت، فقدتصور فى زمان نوح النبى بصورة خاصة وهى‌شريعة نوح وفى كل واحد من ازمنة ابراهيم وموسى وعيسى ، بصورة شرائعهم وفى كل ذلك‌كان يردعليه التغير والزيادة و النقصان وتبادل حكم بآخر وتغيير قانون بقانون يماثله او يضاده ، على حسب اقتضاء الصلاح و توافق حال الامة .

وان‌شئت قلت ان‌للدين مادةاصلية وهيئة عرضية تعرضها بانضمام احكام غير اصيلة فتزيد وتنقص وتتغير وتتكامل مع‌بقاء المادة على‌حالها فى جميع اطوارها و احوالها ، والمادة هى الأصول الاعتقادية الاولية من‌التوحيد والنبوة والمعاد وعدة من الفروع العملية الركنية التى‌تستقل بهاالعقول وتحكم بحسنها او قبحها كبر- الوالدين والانفاق على المحاويج والصدق فى‌الكلام والوفاء بالوعد وكذا الظلم بالوالدين والضعفاء والكذب والغدر وقتل‌النفس بغيرعلة ونحو ذلك وقد مربعض منها آنفاً تحت‌عنوان الحكمة .

ثم ان‌النسخ الذى اعترفنا بعروضه للشرايع على‌قسمين : نسخ خاص‌اضافى ونسخ عام حقيقى ، وكل شريعة ناسخة غير الاخيرة يكون نسخها لسابقها خاصا اضافيا والشريعة الأخيرة عام حقيقى ، وذلك لان الظاهر انه لم يكن بعث الانبياء والمرسلين (سواء فى ذلك اصحاب الشرايع منهم وغيرهم) بعثا عاماشاملالجميع الازمان بمعنى‌اشتراط بلوغ‌دينهم الى جميع‌العالمين ، وابطال‌ماسبقه من الشرايع

فی جميع الامكنة بل كانوا مبعوثين الى جماعة خاصة وامة معينين غير مشروط بهم ولا بالتسرية الى غيرهم ، فكانت الشريعة المرسل بها مطلقة غير مشروطة بالسراية ولا بعدمها فالى ای مكان ومحل سرت ونفذت لم يكن بها بأس واية طائفة اطلعت عليها وقبلتها وتدينت بها كانوا مثابين مأجورين .

فقد يتفق قبول قوم لها وعملهم بها وتكاملهم فی مراتب الانسانية، فيستحقون شريعة اخرى اكمل واتم على حسب رقاهم وكمالهم كما كان ذلك عادة الله تعالى فی خلقه فی تلك العصور ، فتنزل شريعة اخرى ناسخة للاولى ، الا انه كان استعداد التكامل واستحقاق الشرع الجديد مخصوصا بمكان خاص وجماعة معينين لا يتعداهم الى غيرهم .

بل كان مقتضى الصلاح فی غيرهم العمل بالاول دون الثانی ، ولذلك لم يكن ينسخ الله الاول بالكلية ولم يأمر حسب الشرع الناسخ بابلاغه الى جميع الامة التی بلغهم الشرع الاول ، وحاصل هذا البيان انه كان يتفق وجود شرعين فی عصر واحد من عند الله احدهما ناسخ والاخر منسوخ الان النسخ اضافی ونسبی يختص بامة خاصة ومكان محدود .

وهنا امر آخر،وهو ان الظاهر ان غالب الشرائع السابقة لو لم يكن جميعها لم يكن ذا ابعاد وجهات شاملا على جميع شئون الحياة، بل كان مشتملا على احكام معدودة محدودة تتكفل تكميل جهة من الجهات بمقتضى غلبة رسوم منكرة وعادات ورذائل ،كما فی شريعة موسى .

فان بنی اسرائيل لما اسروا ووقعوا تحت سيطرة فرعون وملائه فصاروا اذلاء مغلوبين ، بعث الله اليهم موسى لانجائهم عن العبوديـة وكان القسم المعظم من احكام شرعه ناظرا الى الجهاد، واستخلاص انفسهم من ايدی الظلمة واستقلالهم فی الملك والسلطنة ، بل التسلط والحكومة على غيرهم .

فلما اهلك الله عدوهم واورثهم الارض مشارقها ومغاربها انتج ذلك طغيانهم

فافسدوا فى الارض وعتوا عتوا كبيرا ، ومالوا الى الولايـات والمناصب واتباع الشهوات والفجور والمنكرات .

فغلبت عليهم محبة الدنيا وزينتها وزخارفها فاقتضت عناية الرب الرؤف ، ان يبعث اليهم من يسدهم عن حب الشهوات ويهديهم الى ذكر الله وامر الاخرة ويردهم عن طريق المتاهة والعتو الى التسليم لله والخضوع لسلطانه وترك الشهوات. فبعث الله اليهم عيسى ووهبه شريعة وكتابا كان اكثر مندرجاته الترغيب الى الزهد وترك الدنيا والشهوات وترك الملاذ ورفض النساء والترهب فى الدين والاشتغال بالعبادة فى الكنائس والصوامع وحيث ان غلبة تلك المفاسد والشهوات لم تكن فى جميع الامكنة التى سرت اليها احكام التوراة ، كان ناسخية شرع موسى مختصة بالمحال المحتاجة الى ذلك فصـار الشرعان ثابتين فى عصر واحـد بلامنافاة بين الناسخ والمنسوخ .

اذا عرفت هذا فنقول انه يظهر من الكتاب الكريم انه قد خاطب الله اهل مكة بخطاب يظهر منه امضاء بقاء شريعة ابراهيم فيما بينهم اجمالا .

١ ـ قال تعالى: قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفا . (١٦١ ـ الانعام)

٢ ـ وقال تعالى: ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً (١٢٣ ـ النحل)

٣ ـ وقال تعالى : وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا (٧٨ ـ الحج)

٤ ـ وقال تعالى : واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا .

(١٢٥ ـ النساء)

وخاطب اليهود والنصارى ايضا بما يظهر منه تمسكهم الى زمان الخطاب بكتبهم و انهم اهل الكتاب وان حرفوه وتركوا العمل به ، ثم اوجب عليهم بعده الايمان بالنبى الاعظم وكتابه فلاحظ قوله تعالى :

۱ ـ يسئلك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سئلوا موسى اكبر من‌ذلك فقالوا ارنا الله جهرة (۱۵۲ ـ النساء)

۲ ـ وقوله‌تعالى: وكيف يحكمونك‌وعندهم التوراة فيها حكم‌الله ثم‌يتولون من بعد ذلك . (۴۳ ـ المائدة)

۳ ـ وان‌من‌اهل الكتاب لمن يؤمن‌بالله وماانزل اليكم‌وماانزل اليهم‌خاشعين لله (۱۹۹ ـآل‌عمران)

۴ ـ يااهل‌الكتاب لاتغلوا فى‌دينكم ولاتقولوا على‌الله الاالحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول‌الله وكلمته . (۱۷۱ ـ النساء)

۵ ـ يااهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم . (۶۸ ـالمائدة)

وقوله : واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن‌فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعناكتابا انزل من بعد موسى يهدى الى‌الحق والى‌طريق مستقيم(۳ـالاحقاف) يعلم من الاية ان‌الجن ايضا كالانس مكلفون بقبول الدين واخذ الكتاب ، وانهم كانوا الى زمان نزول القرآن آخذين بشرع‌موسى ولم‌يطلعوا على‌غيردينه‌وكتابه اذلم‌يسموا عيسى‌وكتابه

اذاعرفت ماذكرنا علمت، ان خطاب القرآن لاهل الكتاب‌وتصديق كونهم كذلك ليس شاهدا على عموم دين موسى وشريعته وكذا دين عيسى وشرعه،كما زعمه‌الاستاذ الطباطبائى فى‌كتابه الميزان مع ان ظواهرالكتاب الكريم ايضايشهد باختصاص نبوة موسى ببنى اسرائيل وفرعون وملائه وبنبوة عيسى ببنى اسرائيل ايضاً الا انك عرفت انه ملحوظ مطلقا غير مشروط قال تعالى :

ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه . (۹۷ ـ هود)

وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى‌اسرائيل (۲ـ الاسراء)

ثم ارسلنا موسى واخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه .

(۶۳ـ المؤمنون)

قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون (٢٨ - الشعراء)

واذ قال عيسى ابن مريم يابنى‌اسرائيل انى رسول‌الله‌اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد (٦ - الصف)

فالشرع العام الشامل للناس طراً وجميع اهل العالم هو شريعة نبينا محمد (ص) ودينه وكتابه، فقداعلن‌الحكيم تعالى‌بنسخ جميع‌الشرايع‌بشريعته، ووجوب اتباعه وترك ماسواه وذلك لايات كثيرة :

منها: قوله‌تعالى : وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً . (٧٩- النساء)

ومنها : وما ارسلناك الارحمة للعالمين (١٠٧ - الانبياء)

ومنها : وما ارسلناك الاكافة للناس بشيرا ونذيرا (٢٨ - سباء)

ومنها : قل ياايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا (١٥٨ - الاعراف)

ومنها : ياايها الناس قد جائكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم (١٧٠ - النساء)

ومنها : هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله (٢٨ - الفتح)

ومنها واوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ (١٩ - الانعام)

ومنها: وكذلك‌اوحينا‌اليك قرآناعربيا‌لتنذرام‌القرى ومن‌حولها(٧-الشورى)

والمرادمن‌ام القرى كل‌بلدكبير يكون‌حوله قرى‌صغار ومجامع قليلة‌السكنى

وقوله انى قد جئتكم بآية من‌ربكم انى‌اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله . .

اقول‌قوله انى‌قد جئتكم اى مخبرا اومنبأ

والخلق على‌قسمين‌خاص وعام، والاول هوابداع الشىء واختراعه وايجاده من كتم‌العدم ولذايسمى فطرا ايضا، وبعبارة اخرى هوخلق‌الشىء بمادته، وصورته

وذلك فى المخلوقات الاولية التى اوجدها الله تعالى بامره وارادته ، كالروح والنور والماء والملائكة ونحوها وهذا خلق خاص يختص بالله تعالى وليس يقدر عليه أحد غيره .

وتعيين المخلوقات الاولية وتحديدها وتمييزها عن غيرها أمر مشكل، ولم نجد فى الكتاب الكريم مايكون ايضا فى هذا القسم خاصة .

وورد فى بعض الروايات ان اول ماخلق الله العقل ، وفى بعضها الاخر عن النبى صلى الله عليه وآله اول ما خلق الله نورى أو روحى ، وورد أيضا ان اول ما خلق الله الماء .

وأما السموات والارض فالظاهر انهما ليستا اول ماخلقه بمعنى انهما ليستا مما اوجده الله بمادته وهيئته، فان الارض مخلوقة من الزبد الحاصل على وجه الماء كما عن مولانا على (ع) فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة .

وأما السماء فقال تعالى : ثم استوى الى السماء وهى دخان ... فقضاهن سبع سموات فى يومين (وقال بديع السموات والارض ١٠١ ـ الانعام)

ولامنافاة بينهمافان ابداع المادة ثم ابداع شىء آخر منها بتكثير وتغيير وتحويل كانه ابداع ، فالاستعمال وقع بالعناية .

وأما الثانى فهو الخلق بمعنى التقدير والترتيب وتركيب الصور من المواد والاجزاء ، والخلق المستند الى غير الله تعالى من هذا القبيل وهذا خلق عام بمعنى صدور هذا القسم عن غير الله تعالى أيضاً فالناس خالقون بهذا المعنى .

قال الله تعالى : (فتبارك الله احسن الخالقين) (١٤ ـ المؤمنون)

فمن مصاديق هذا الخلق قوله تعالى :

خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين (٤ ـ النحل)

وهو الذى خلق الليل والنهار (٣٣ ـ الانبياء)

والله خلق كل دابة من ماء (٤٥ ـ النور)

وخلق الجان من مارج من نار (١٥ ـ الرحمن)

انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين (١٢ ـ الاعراف)

وقد يطلق الخلق فى الكتاب الكريم ويراد به الاعم من القسمين قال تعالى:

وخلق كل شيء فقدره تقديرا. «٢ ـ الفرقان» فالخلق هنا يراد به الاعم مما ابدعه الله وانشأه من العدم وماقدره الله وصوره ، وكل واحد منهما اما بالاستقلال وبلا وساطة وسبب أو بالواسطة والتسبيب وبهذا المعنى ينسب كل خلق اليه تعالى وينبغى على هذا استثناء اعمال العباد من ذلك وما اخترعوه من الامور المحرمة كالصنم والصليب والمزامير وسائر آلات اللهو وآلات القمار ونحوها .

ثم انه قد علم من ذلك ان خلق الطير من قبيل القسم الثانى وهو خلق الهيئة من المادة اعنى التقدير والتصوير كما يدل عليه قوله من الطين .

قوله تعالى: **فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله** هل النفخ فى الشكل المصنوع؟ نظير من يقرء سورة الحمد فينفخ فى جيب المريض فيحصل له الشفاء ، فالاعجاز ح اعجاز استدعائى بطلب العبد الصالح من الله شيئاً ، فيجيبه الرب وينجز مطلوبه أو هو اعجاز تصرفى بان اعطاه الله تعالى نوع قدرة وقوة يقدر على التصرف فى الجماد باعطاء الحياة له .

ولاينافى ذلك اختصاص الاحياء بالله تعالى فليكن عيسى نظير الملائكة الذين ينفخون فى الجنين الحياة فى الرحم فيحيى وعجزنا عن ادراك كيفية ذلك . من ناحية جهلنا بحقيقة الروح ولما يصل الى الان شعاع عقول البشر الباحث عن حقائق عالم التكوين الى ادراك ذلك وقد قال تعالى :

يسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا (٨٥ ـ الاسراء)

فانه قد وقع البحث والاختلاف فى الروح من جهات .

الاولى فى تشخيص حقيقته وجوهره ، فقال عدة بكونه جوهرا مجردا غير

مادی کما یری ذلك فی کلمات الحکماء والفلاسفة ، وقال آخرون بکونه جسما شفافا نورانیا سماویا نظیر الملك والجن ونحوهما .

ویظهر ذلك من کلمات بعض المتکلمین والمحدثین وهو ظاهر عدة کثیرة من الایات والروایات .

الثانیة فی زمان خلقته وانه هل کان مخلوقا قبل خلق الاجساد موجودا فی عوالم اخر ، لانعرف منها الاشیئا قلیلا کعالم الذر والاشباح ثم ترکب بعد خلق الاجساد معها فازدوجت النفوس فی الدنیا مع الابدان ، کما ان النفوس زوجت فی الاخرة ، فلو صح وجود عالم الذر بالمعنی المذکور فی الجملة تحقق لقوله تعالی (واذا النفوس زوجت) مصادیق ، ازدواجها فی عالم الذر بالابدان الذریة وازدواجها فی الدنیا بالابدان الدنیویة ، وازدواجها فی البرزخ بالقوالب المثالیة ، وفی عالم الاخرة بالابدان الاخرویة .

أو انه خلق مع الابدان لانه عرض من اعراضها ونحو خصوصیة لها توجد بوجودها وتنشأ وترقی وتتکامل برقاها وکمالها ، ثم تجاوزها فی النشأة والکمال ثم تنفصل عنها وتبقی الی برهة من الزمان فی البرزخ بنفسها أو بالقوالب المثالیة وفیما بعدها فی عالم الاخرة فی ابدانها الدنیویة المستجدة .

الثالثة فی کیفیة تعلقه بالابدان فی هذه النشأة أو سائر النشآت وانه بنحو الحلول والاتحاد ، أو بنحو التصرف والتدبیر من خارج الابدان ولذا قد یشبه ذلك بوجود القوة الکهربائیة فی الخطوط الحدیدیة ویشبه تارة اخری بکونه کالشمس یؤثر فی حیاة النبات والحیوان أو کسلحفاة تنظر الی بیضها فتربیها وتنمیها وتولد فرخها بالنظر وغیر ذلك مما یقال .

وبالجملة لا بأس بالقول بان عیسی (ع) کان یوجد الحیاة فی الهیئة المصنوعة من الطین کنفخ الملك الروح فی الجنین وان لم نتحقق حقیقة الروح ، وقد یقال فی المقام بان عیسی النبی حیث انه کان مخلوقا من الروح و بید الملك الذی هو الروح کانت

جهة الروحانية فيه اقوى فكان يحيى كل جسم لاحياة له بقربه منه ويتحرك بمماسته كما يقال فى قوله تعالى .

:قال بصرت بمالم يبصروابه فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتهاوكذلك سولت لى نفسى (٩٦ ـ طه)

وعلى اى تقديركان ذلك باذن الله تعالى حيث قال فيكون طيرا باذن الله .

وقوله: وابرء الاكمه والابرص واحى الموتى باذن الله ... (١)

اللغة الابراء جعل الشيء بريئا بعيدا من الاسقام ونحوها ، والاكمه الاعمى اوالمتولدكذلك اومن ابيضت عيناه ، والابرص من به داء البرص وهوداءجلدى معروف .

ثم ان الكلام فى ابراء الاكمه والابرص نظيره فى احياء الطير فهو اماكان بدعائه وشفاء الله تعالى او بوجود اثر خاص فى نفسه ونفخه يؤثر فى رفع جراثيم المرض وتوليد الحياة .

وأمااحياء الموتى المعلوم من كلمةالجمع وقوع ذلك كثيراً فيمكن ان‌يكون ايضا بدعائه واستجابة الرب تعالى او بولاية تكوينية الهية اعطاها الله تعالى لنبيه العظيم عيسى‌ابن‌مريم، فانه‌كما ذكرنا فى‌بحث الولاية تحت الاية (٢٠) من‌السورة انه‌كان لنبينا الاعظم محمد بن عبدالله (ص) وكذا لاوصيائه المنصوصين من قبل الله تعالى ولاية تكوينية على عالم الوجود بحيث كانوا قادرين على التصرف فى بعض اجزائه بتبديل شيىء وتغييره وتعجيل امر وتأخيره واحياء ميت واماتة حى ونحو ذلك .

وقد مثلنافيماسبق ان هذا العالم يشبه بالمكينة الكبيرة يديرها ويدبر امرها خالقها العظيم بيد الملائكة الموكلين بذلك ، اعنى الصافات صفا فالزاجرات زجرافالتاليات ذكراوالذاريات ذروا فالحاملات وقرافالجاريات يسرافالمقسمات

امرا (الذاريات) والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشراً فالفارقات فرقا فالملقيات ذكراً . (المرسلات)

والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا . (النازعات)

والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا . (العاديات)

وكان للنبي الاعظم والائمة نوع سلطنة عليها وعلى الملائكة الموكلين بتدبير امرها تسمى بالولاية التكوينية، فيمكن كون الاية ناظرة الى ذاك المنصب ووجود تلك الولاية أو نحو خاص منها في عيسى ابن مريم .

قوله تعالى : **وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم .**

هل كان اخباره عما يأكله ويدخره فرد أو افراد مخصوصون كزيد وعمرو مثلا؟ أو كان عن حال امة وجماعة كاهل قرية أو بلد أو بلدان ، وهل كان الخبر عن واقعة واحدة أو حال يوم أو ليلة أو عن حال شهر او سنة او اكثر ؟ وهل المراد بالاكل خصوص معناه المتعارف ؟

أو المراد به مطلق التصرف كما في قوله تعالى ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وان كان بعيدا فعلى العموم من ناحية الاكل والاكل والمأكول والزمان يكون المعنى انه (ع) كان يخبر مثلا بان اهل هذه البلدان يصرفون في هذه السنة مما افادوه فيها هذا المقدار، ويدخرون هذا المقدار بحيث يبقى زائداً عن مؤنة سنتهم، او كان يخبر بان احتياجهم من المؤنة في هذه السنة الى هذا المقدار وقد ادخروا هذا المقدار .

وعلى اى حال فقد جعل الله تعالى انباء عيسى بما يأكلون ويدخرون من جملة معجزاته في قبال احياء الهيئة المصنوعة بالنفخ واحياء الاموات وغيرهما، وحيث ان ذلك من الموضوعات الخارجية لا الاحكام فيعلم منه ان علم الانبياء بالموضوعات ليس من لوازم نبواتهم، بل هو امر اخر قد يعطون بعنوان الاية المثبتة لدعوتهم كما

يمكن استظهار ذلك فى حق نبينا الاعظم من آيات .

منها قوله تعالى: قل لااقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولااقول لكم انى ملك (٥٠ - الانعام) ونظيره قول نوح (ع) (٣١ - هود)

ومنها قوله:ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء .

(١٨٨ - الاعراف)

ومنها قوله:ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم . (٦٠ - الانفال)

وقد امرالله نبيه العظيم موسى بالضرب فى الارض لتعلم علوم لم تكن عنده فسافر مع فتاه .

فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً .

(٦٥ - الكهف)

وكان بذلك العلم تعلم اموراً مخصوصة من الموضوعات الخارجية .

احدها ان هناك ملكا ياخذ كل سفينة غصبا فلزم تعييبها .

وثانيها كون ابوى الغلام مؤمنين فلعله يرهقهما كفرا بعد كبره فوجب قتله .

وثالثها كون الجدار لغلامين يتيمين فلزم حفظه مراعاة لحالهما .

قوله تعالى : **ان فى ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين .**

كلمة ذلك اشارة الى الامور الخمسة الخارقة للعادة ، وفيها آية واضحة تدل على وجود الصانع وقدرته وعلمه وعلى صدق عيسى ابن مريم فى دعوى نبوته ، وقد يتوهم ان تقييد العلامية والكشف والاثبات بايمانهم يشبه بالدور لتوقف كونها حاكية عن التوحيد والنبوة على سبق الايمان بهما ، وهو يتوقف على الحكاية والكشف والثبوت ، لكنه فاسد .

فان ذلك نشأ عن تخييل كون المراد بالايمان مرتبته الفعلية .

والظاهر خلافه ، بل المراد مرتبة الاقتضاء والاستعداد نظير مايقال فى قوله تعالى : (هدى للمتقين) فانه قد استشكل فيه بعين الاشكال المذكور فى المقام

والجواب فى المقامين واحد، وهوانه قديكون استعداد الاتقاء والايمان فى الانسان موجودا باقتضاء الفطرة لم يبطل ولـم يزل بغلبة الهوى ومعاندة الحق والعصبية العمياء والضلالـة والانحراف ، بعد تمامية الحجج والبينات كما فى غالب افراد الانسان من كفارهم وفساقهم، وان‌خفى تحت استار الجهل والغفلة واتباع الشهوات فهو بعد سماع دعوة الانبياء وعرض الحقائق الدينية والمعارف العقلية عليه ينتبه ويستيقظ ، فيؤمن ويتقى فايمانهم وتقويهم بالاستعداد والفطرة يبلغ مرتبة الفعليـة بالهداية وارائة الايات والحجج .

وقديتفق انه بعد سماع الحق تحت سلطان‌الشهوات وحب الرياسات‌ودعوة شياطين الانس والجن يغلب الهوى‌على القوة العاقلة فتصير محجوبة مستورة تحت استار العناد والعصبية فكانهم ليسوا بمتقين‌ولامؤمنين ، فلاتؤثر فيهم هداية الرب تعالى ولادعوة رسله ولاابلاغ المواعظ والزواجر .

ثم ان هنا امورا .

الاول : ان الله تعالى قد ذكرلعيسى ابن مريم فى‌المقام من خارق العادات امورا خمسة ، وجعل الاول منها احياء الصورة المصنوعة بالنفخ وقدمه تعالى فى الذكرعلى احياء الموتى وذلك لوضوح ان‌احياء الجسم‌الجماد من غيرسبق وجود حياة فيه واعطاء الروح له عمل اقوى فى مقام الاعجاز من رد الروح الى البدن ومستقره السابق كما هو مفاد احياء الموتى .

الامر الثانى . ان عيسى قيد القسمين من تلك المعاجز بقوله باذن اللهدون الثلاثة منها ، وذلك لاجل ان توهم الالوهية فى الفاعل فى ذينك القسمين اقوى عند عوام‌الناس والبسطاء وذوى‌العقول الساذجة منهم، فان‌شفاء العين وشفاء‌الابرص والانباء عن المغيبات، امرقد يقع من بعض الاطباء وبعض‌اهل الرياضات‌وغيرهم وان كان الحق ان جميع تلك الامور قد صدرت من عيسى (ع) بنحو الاعجاز وخرق الطبيعة والعادة لابالاسباب العادية .

الامر الثالث . انه نقل صاحب المنار عن استاذه عدم دلالة الاية الشريفة على وقوع تلك الامور خارجاً قال (وغاية مايفهم منها ان الله تعالى جعل فيه هذا السر ولكن لم يقل انه خلق بالفعل ولـم يرد عن المعصوم ان شيئاً من ذلك وقع اه) اقول الانصاف ان ماقاله بالنظر الى ظاهر اللفظ حق، وما اورده الاستاذ الطباطبائى فى كتابه الميزان فى دلالة كلمة اخلق حيث وقعت بالفعل المستقبل على تحقق ذلك فى الخـارج غير وارد ، اذ كثيرا مايحكى مدعى فعل وعمل صورة مايريد ان يوقعه بالمضارع ثم قد يتفق انه يوقعها فى الخارج وقد يتفق عدم الايقاع فلامانع من ان نقول ان عيسى (ع) ادعى قدرته على ايقاع تلك الامور وايجادها للاحتجـاج والتحدى ، واما فعلية الايجاد فغير معلوم من الاية فلعلهم قنعوا بالدعوى فآمنوا او انه ايس من قبولهم فانصرف .

نعم الظاهر ورود مااورده عليه من دلالة آية المائدة (١٠١) على حدوثها بل تكرر ذلك الحدوث قال الله تعالى حكاية عما يخاطب به عيسى ابن مريم يوم القيامة.

اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكـر نعمتى عليك وعلى والدتـك اذ ايدتك بروح القدس . . . . . واذ تخلق مـن الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرالاكمه والابرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى (١٠١ المائدة) .

فنقل فى هذه الاية اربعة من تلك المعاجز وانها كانت تصدر من عيسى بنحو التكرار اذ المعنى اذ كنت تخلق وكنت تفعل كذا وكذا.

قوله تعالى : **ومصدقا لمابين يدى من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون (٥٠)**

ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٥١)

التفسير

قوله مصدقا منصوب على الحالية بتقدير جئتكم عطفا على قوله تعالى جئتكم بآية من ربكم ، والتصديق اما قولى واما عملى لكون عيسى بنفسه وكتابه مصداقا لما

وعدته التوراة وبشرت به كماهو شأن كل نبي وصاحب شرع و كتاب، فان من جملة وظائفهم تصديق الذين من بعدهم والبشارة بوجودهم كما ان من وظائف المتاخرين تصديق المتقدمين تسديدا للامر وتبيانا لوحدة المرسل والدين المرسل به وقد عرفت دلالة الاية . (٨١ من سورتنا هذه) على كلا الامرين قال تعالى :

و اذ اخذنا ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب و حكمة ثم جائكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءاقررتم واخذتم على ذلكم اصرى قالوا اقررنا الخ .

ثم ان في المقام مذهبين احدهما ان عيسى ماغير شيئا من احكام التوراة بل كان بنفسه على شريعة موسى يقرر السبت ويستقبل بيت المقدس ويحرم الخنزير ويقول بالختان وليس في الانجيل شيء من الاحكام والوظائف العملية، بل هو شامل على شيء من القصص والحوادث والمواعظ والامثال والزواجر ، لكن النصارى غيروا ذلك بعد رفعه فاتخذوا الاحد بدل السبت وصلوا نحو المشرق وحملوا الختان على ختان القلب عن علائق الدنيا ، واحلـوا لحم الخنزير مع ان مرقس حكى في انجيله ان المسيح اتلف الخنزير واغرق منه في البحر قطيعا كبيرا ، والعلة في تحليلهم نقلهـم ان بطرس رأى في المنام صحيفة نازلة من السماء وفيها صور الحيوانـات و صورة الخنزير وقيل له يا بطرس كل منها ما احببت .

ثانيهما انه قد نسخ منه شيئا كثيرا منه نسخ السبت ووضع الاحد مكانه وغير ذلك ولايخفى عليك عدم وجود دليل سديد على احد القولين والمذهبين وقولـه ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم لايدل على الثاني اذ من المحتمل كون ما احله عيسى مما حرمته السنة الموسوية لا كتاب التوراة.

ثم ان التوراة كانت في عصر عيسى ايضا مما لعبت بها ايدى التحريف فتصديق عيسى لها اما يكون كتصديق نبينا (ص) لها اويكون المراد التوراة الواقعية التي علمها الله لعيسى .

وقوله تعالى : ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم الاية تصرح بان عيسى (ع) قداحل لبنى اسرائيل بعض المحرمات التى سبقت حرمتها على مجىء عيسى (ع).

فالذاهب الى ان عيسى لم يأت بشى يخالف التوراة ولم ينسخ من دين موسى شيئا حمل الاية على ماغيره علماء التوراة وحرموه على الناس من عند انفسهم تشبيها اواجتهادا .

والقائل بخلاف ذلك كما عرفت حمل الاية على موارد النسخ

ثم انضمام الايات الثلاث التالية توضح لك ما حرمته التوراة على بنى - اسرائيل و علة تحريمه فتدبر فيها حتى تعرف مورد تحليل عيسى عليه السلام ، الاية الاولى :

قوله تعالى : كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الاماحرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة «٩٣ ـ آل عمران)

الثانية قوله تعالى : فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم. (١٦٠ ـ النساء)

الثالثة قوله تعالى : و على الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر و من البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما اوالحوايا او ما اختلط بعظم . (١٤٦ـ الانعام)

فالاية الاولى تدل على حلية جميع الطعام لهم قبل نزول التوراة الا ماحرمه اسرائيل على نفسه ويقال انه كان لحم الابل ولبنه فحرمهما على نفسه تزهدا ورغبة عن الدنيا لانهما كانا احب الاطعمة اليه ، والظاهر ان الاستثناء منقطع ، فالمعنى ان جميع الاطعمة كان حلالا لبنى اسرائيل قبل نزول التوراة الى موسى .

و الثانية تدل على حدوث حرمة عدة اشياء من الطيبات عليهم بعد نزول التوراة بسبب ظلمهم و ذلك لانه يفهم مما قبل الاية ان ظلمهم كان عبارة عن سؤال الرؤية واتخاذ العجل ومخالفتهم امر دخول الباب سجدا وغير ذلك لكن لم يعلم من الاية ان المحرم ماهو ؟

والثالثة تدل على عدة مماحرمه‌الله عليهم ، وحيث ان‌جميع ذلك ليس من الطيبات بل‌ذكر فيه الخبائث والطيبات كلتيهما فلابد ان نحمل الطيب المحرم فى الاية السابقة على الطيب‌المفهوم من هذه الاية و هو شحوم‌البقر والغنم فان‌الظاهر من‌هذه الاية ان المراد بذى الظفرماكان له مخلب وبرثن من سباع البروجوارح الطيروبعض‌المحللات من‌الوحش كالظبى‌والغزلان.

ونحوها مما يطلق عليه ذى الظفر ، وينطبق الاول‌اعنى‌ذى‌الظفر على‌ماحرمه شرعنا من سباع الوحوش والطير وكلها من الخبائث وكلمة ذى الظفروان‌كانت تشمل ذوات الظفر من الانعام‌ايضاكالبقر والغنم والمعزالاان‌قوله‌ومن‌البقر والغنم‌اه شاهدعلى عدم ارادتهما .

فتحصل انه‌كان‌المحرم عليهم من الطيبات بظلمهم هو شحم البقر والغنم وبعض ذى الظفر من الوحش المحلل ثم احلها عيسى(ع)لهم وبقيت‌الخبائث‌على حرمتها .

وقوله **وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون** اه

الاية‌هنا بمعناها فيما مضى‌والكلام تاكيد ، ولوقلنابان مجيئه تصديق عملى لبشارات التوراة وتحليله بعض المحرمات ايضاشاهد اخرلما اخبربه موسى‌وكتابه كان الامران آيتين اخريين‌يشملهما قوله وجئتكم بآية

و قوله فاتقواالله يراد به التحفظ والخوف كما هو معناه اللغوى والمراد بالخوف من‌الله الخوف من عدله ، فانه تعالى لايخاف الاعدله ولايرجى الافضله ويكون من‌عدله ان‌يقطع فضله عن الفاسقين بعصيانهم اويعاقبهم بطغيانهم،فالخوف من عدله ينحل الى الخوف من انقطاع نعمه المادية و المعنوية فى الدنيا ونعمه فى‌الاخرة والخوف من شمول عذابه فى الدنيا ، وعذابه فى الاخرة .

قوله **واطيعون** :

يراد به الاطاعة فى اوامره ونواهيه الارشادية التى حقيقتها حكاية اوامرالله

والاخبار بهاوالارشاد اليها قضاء لحق نبوته، والاطاعة فى اوامره ونواهيهالمولوية حفظا لمنصب ولايته التشريعية علىالامة

وكيف كان فهذه الجملة كانهاوقعت فى طريق تعيين المصداق للتقوى وان ذلك لا يتحصل الابهذه .

وقوله **ان الله ربى وربكم** . اخبار بان الله سلطان لهعنوان الربوبيةللجميع تربية بدنية جسمية باعطائه اسباب الحياة المادية ، وتربية معنوية روحية باعطائه العقل الذى هو الرسول الباطنى والهادى الى كل صلاح و الزاجر عن كل فساد وارساله الرسل وانزاله الكتب ، فماذا يبقى من الاعذار للانسان بعد اعطائه تعالى وسائل الكمال واسباب التعالى فى شتى جهاتها ومختلف ابعادها ، وهذه الجملة فى مقام التعليل للزوم التقوى والطاعة واشارة الى ان ذلك قضية شكر المنعم واى نعمة افضل واعلى مما افادته كلمة الرب من النعم البالغة

وليعلم ان اصول النعم الالهية الواصلة الينا عن ناحية الرب تعالى الداخلة تحت عنوان ربوبيته ستة .

الاول : نعمة الوجود الذى بذله لنا:

الثانى: نعمة وسائل حفظ الوجود وهى جميع لوازم عيش الانسان فى هذا العالم

الثالث : نعمة العقل وعلومه العارضة له والحاصلة فيه .

الرابعة: انعمة الدين اعنى مجموع البرنامج السماوية ومناهجها المنزلة على الانبياء هداية للناس الى سعادتهم وتبيانا لطرق كمالهم .

الخامسة: نعمة التوفيق والتأييد والتسديد فى سبيل اخذ الدين والتادب بآدابه وشئونه ونشره فى المجامع البشرية.

السادسة: نعمة الثواب والاجر المترتب على العامل للدين جزاء دنيويا او اخرويا ، وهذه اصول نعمه تعالى علينا مما يمكن لنا تعقله ويدخل فيها من الفروع مالانحصيه كيف وقد قال تعالى :

وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها

وقوله : فاعبدوه بيان لنتيجة ما افاده معنى ربوبيته وما يقتضيه عقلا و نقلا ، واشارة الى لزوم المجاهدة فى مرحلة القوة العملية كما انها الواجبة فى مرحلة القوة النظرية .

قوله هذا صراط مستقيم .

كلمة هذا اشارة الى الكمال الحاصل بسبب الاعتقاد بالله تعالى والحاصل بعبادته وذلك صراط الانبياء والملائكة والصالحين من عباده:

ثم انك ايها المتدبر فى كلمات الله تعالى لو امعنت النظر فى هذه الايات الثلاث و تأملت فيما حكاه الله عن ابن مريم فى مقام مخاطبته مع قومه، لرأيت جهرة انه لم يلق اليهم الا اموراً ثلاثة مجيئه بالمعاجز الخمس وتصديقه التوراة وتحليله بعض المحرمات الا انه (ع) قد ذكر ربه تعالى ونبه قلوب الناس والفتهم اليه فى ضمن الايات الثلاث تسع مرات حيث قال : جئتكم بآية من ربكم اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا باذن الله واحى الموتى باذن الله ان فى ذلك لاية وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ولم يخرج الكلام مع هذه التأكيدات عن الفصاحة و ستعرف انها تزداد بذلك بلاغة اجل ان القرآن ظاهره انيق و باطنه عميق اى له فصاحة كاملة وبلاغة تامة وح نقول هل النكتة فى ذلك تبيان ان من وظيفة الانبياء بل كل من عليه رسالة الهية وغرض هام وهدف اصيل معنوى ، ان يظهر ذلك منه فى جميع اقواله وافعاله ويكون ذلك روح دعوته وحركاته وسكناته ، أوان التأكيدات المذكورة صدرت خفظا للسامعين عن الانحراف فى التوحيد واتماما للحجة على من بعدهم ، حيث قالوا بالوهية ابن مريم اوكونه ابن الله او كونه ثالث ثلاثة و كلا الامرين محتملان.

قوله تعالی : **فلما احس عیسی منهم الکفر قال من انصاری الی الله؟ قال الحواریون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون .(٥٢)**

التفسیر

قد ذکرنا فی تفسیر الایة ٤٥ من السورة ان الملائکه اخبروا مریم بعیسی وبشروها بولادته وذکروا فی شرح حال المولود الموعود وترجمته اوصافا وافعالا بلغت ثمانی عشرة، وکل ذلک کان اخبارا عما سیجیء ویستقبل ، وههنا قد غیر الرب تعالی سیاق الکلام وشرع فی ذکر حال عیسی وذکر من احواله ما حدث بعد فرض وقوع جمیع ما اخبر به الله مریم .

وهذا من لطیف السیاق ومحاسن الحدیث وبلیغ الکلام اشعارا بان ما وعده الله مقطوع التحقق وکان اخباره تعالی بالوقوع عین الوقوع الخارجی .

فالمقصود من هذه الایة انه قد وقع جمیع ما اخبرنا به مریم فولد عیسی وجعلناه نبیا وآتیناه الایات وارسلناه الی بنی اسرائیل فدعاهم الی الله واراهم آیاته ثم انه احس منهم الکفر .

والمراد بالاحساس هنا اما الاحساس بالحواس الباطنیة بان ادرک عیسی کفرهم ادراکا قلبیا باخبار الله أو برؤیة اعمالهم ، او بالحواس الظاهرة بان سمع منهم ما دل علی کفرهم ، او رأی منهم کذلک والمراد بالکفر هنا عدم الایمان او الجحد والارتداد بعد الایمان والاذعان .

ویقال ح فی علة کفرهم انهم لما علموا کون دینه وکتابه ناسخاً للتوراة وشریعة موسی ، مزیلا لهم عن شئونهم مخالفا لریاستهم واهویتهم ورکوبهم رقاب الناس انکروا امره ودینه، وصاروا بصدد ایذائه وقتله کما کان نظیر ذلک منهم ومن النصاری بالنسبة الی نبینا محمد (ص) وقد قال تعالی الذین آتیناهم الکتاب یعرفونه کما یعرفون ابنائهم. (الانعام - ٢٠)

وقال ايضا فی حق اليهود والنصاری .

: فلما جائهم كتاب مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علی الذين كفروا فلما جائهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علی الكافرين (۸۹ ـ البقره)

وقوله **من انصاری الی الله** دعا انصاره ليخلص عنده ويتميز من ينصره فی تنجيز دعوته ونشر رسالته عمن لاينصره .

وهذه الدعوة قد وقعت منه (ع) بعد احساسه عدم ايمان عدة او ارتدادهم بعدالايمان مع كون الجميع مختلطين فاراد ان يعرف المحق عن المبطل والمجاهد عن القاعد والناصر عن الخاذل ، ليجتمع الاعوان الخالصين وانصارالحق علی اليقين فيتعرفوا ويتشكلوا حتی يری فی امره ماهو الاجدر بالقيام به .

وهذه سنة عقلائية جارية لدی العقلاء الكيسين ومن له زعامة امة وامامة جماعة متفرقة وقوم متشتتين ذوی الاهواء المتفرقة و العقائد المختلفة، فيختار منهم الاقوياء المتصلبين ليقوم بهم الاود ويسوی بهم الامت والعوج .

قوله **الی الله**

ای فی ذهابی الی الله وسيری نحوه وفی تسيير المجتمع الانسانی اليه تعالی .

ان قلت مامعنی الذهاب الی الله والسير نحوه مع انه تعالی ليس بجسم وليس له مكان؟

قلت للانسان وغيره من المكلفين سفران الی الله و سيران وكدحان مبدئهما معلوم ومنتهاهما لنا مجهول .

الاول السفر التكوينی الظاهری القهری وخطاه فی هذا المسير انفاسه ومضی ايامه ولياليه ، ويشرع فيه الانسان من حين تكونه فی الدنيا و وجوده سواء اشعر هو بنفسه بهذا السير ام لم يشعره حتی يتم عمره ويصل الی جناب عظمة الرب و ساحة لقائه واللقاء يشرع فيه من حين الموت وتدوم وتتزايد آثاره و شؤنه فی البرزخ و القيامة ويتم ويكمل بدخول الجنة او النار والی هذا اشير فی قوله تعالی) يا ايها الانسان انك كادح الی ربك كدحاً فملاقيه .)

الثانی السفر المعنوی الاختیاری وهو قربه الی الله تعالی قربا تدریجیا بالحسنات من الاعمال فکل عقیدة حقة واذعان قلبی صحیح حصلها فی اصوله الاعتقادیة وکل اکرومة جمیلة من خصال النفس وملکاتها اکتسبها وکل فعلة حسنة من اعمال الارکان عملها فهی خطوة منه معنویة تقربه الی الله وسیر ارادی یسعی به الیه ویکدح

ویشرع السائر فی هذا السیر من حین حصول التمییز له وجود قوة التفکر والتعقل فیه ولانهایة له ولاحد یقف هو عنده وحیث انه امر اختیاری له فربما یتوقف عن سیره وربما یرجع القهقری ویتباعد عن ربه ولایمکن تحدید بعده فی مرحلة شقائه کما لایحد قربه فی مراتب کماله وان کان الراحل الیه قریب المسافة وافضل الراحلین الیه فی هذا المسعی ومقدمهم الانبیاء وخلفائهم علیهم السلام، ثم الامثل من المؤمنین فالامثل .

وقد دعی النبی عیسی قومه الی ان یرافقوه فیه ویرتحلوا معه فی هذا السفر، کیف ولم یبعث الانبیاء الا لهذه الدعوة وهدایة الناس الیه وسوق الجماعات البشریة لهذه السیاق .

قوله **قال الحواریون نحن انصار الله** الحواری منسوب الی الحوار وهو البیاض فانهم کانوا قصارین یبیضون الثیاب او کانت قلوبهم بیضاء نقیة یبیضون الالباب والنفوس والاعضاء من درن الکفر والرذائل والمعاصی .

ومعنی نصرة الله السعی فی تحقیق الاغراض والمقاصد التی شاء الله تعالی تحققها بارادة ومشیة تشریعیة ، بیان ذلک ان الله قد یرید امرا من الامور بارادة تکوینیة، وهی اما ارادة الشیء من غیر تخلل ارادة موجود ذی شعور اخر فی تکونه وتحصله کارادته تعالی خلق الموجودات الاولیة من الارواح والملائکة وبعض مواد عالم الطبیعة ، و اما ارادته مع تخلل ارادة غیره مع کون ذلک المرید ممن تکون ارادته تابعة لارادته تعالی غیر متخلف عنه کارادته تعالی تدبیر امر العالم بوساطة الملائکة الموکلین بذلک .

قال تعالی (فالمدبرات امرا) وقد ثبت بالادلة الکثیرة ان الله تعالی ابی ان

يجرى الامور الا باسبابها، ثم انه لامحالة يقع ماارادهالله بهاتين الارادتين ويستحيل حصول الانفكاك بينهما وبين المراد والالزم عجزه تعالى او مخالفة ملائكته لاوامره، وتعالى الله عن جميع ذلك علواكبيرا، فالاعوان فىهذا المقام عبارة عن الملائكة الموكلين بتدبير العالم .

ويطلق عليهم انصار الله فى الامور التكوينية ومن هنا يمكن ان يقال ان الملائكة مجبورون على الطاعة وانهم لايقدرون على التخلف، فهم وان فعلوامافعلوا بالارادة الا انهم فى ارادتهم غيرمختارين وليسوا مثلنا مختارين فى الارادة وتركها، ولاجل ذلك لم نشاهد ولم ينقل لنا مخالفتهم امرالله ونهيه واستحقاقهم العقاب لاجلها كما انه لم يذكر فى الكتاب الحكيم لطاعتهم واعمالهم اجر ومثوبة .

وقد يريد تعالى تحقق امر وحصوله مع تخلل ارادة من مكلف قادر مريد مختار غير مجبور ولامقهور ، وتسمى هذه الارادة من الله بالارادة التشريعية وهى كالعقائد الحسنة القلبية والاعمال الصالحة الجوارحية الصادرة من الاناسى والاجنة والشياطين ، فانهم جميعا مختارون فى ذلك فيريد الله تعالى ويجب صدور تلك الافعال منهم بارادتهم واختيارهم لابالاكراه والاجبار ويريد من بعضهم انينصروا البعض الاخرين فى الاتيان بها ويحب الناصرين لاجل ان النصرة ايضا امر حسن اختيارى صادر منهم .

فنتيجة الكلام ان هنا غرضين ومقصدين الهيين تكوينى وتشريعى .

اما الاول حققه واجراه الله تعالى بسببين (مع ان الله لايحتاج الى تسبيب الاسباب والاستعانة بالادوات والالات ، الا انه تعالى ابى فى هذا العالم الا ان يجرى الامور باسبابها) اولهما اعطاء الاقتضاء والسببية والعلية للاشياء ، فبهاجرت الامورو انتظمت شئون هذا العالم ودارت رحاه واستقام بقائه .

وثانيهما الملائكة الموكلين بادارة رحى الموجودات ، والصافات صفا والمقسمات امرا والمدبرات امرا ولميدع الله احدا الى نصرته فى هذا الغرض .

واما الثانى فقد اجراه بيدانبيائه واوليائه وبعض ملائكته فهم المتلقون شرائع

الله مـن قبله ومبلغوها الى خلقه وهم وسائط الفيض التشريعى ، كما ان الملائكة وسائطه الفيض التكوينى وقد طلب فى تحقيق هذا الغرض النصرمن خلقه وندبهم الى ذلك وليس ذلك لعجزه بل لاجل ان هذا الغرض لايتحقق الااذا اتاه المكلفون بارادتهم واختيارهم ، فبعض بتلقيه من الله وابلاغه وآخرون بنصرة المتلقى وهى عين نصرته وسائر الناس بالقبول والعمل معهم .

ثم انه قد ظهر بما ذكرنا انمايرى فى القرآن الكريم ـ من ان الله تعالى يذكر تارة نصره للناس وانه ينصرهم جميعاوانهم محتاجون الى نصره، ويدعوهم ويحثهم اخرى الى ان ينصروا ربهم ـ لاتنافى بينهما ولاتهافت بل الموارد مختلفة، فنصرة الله عام لجميع الخلق فى جميع مقاصدهم الدنيوية والاخروية ، ونصر الخلق لـه تعالى يختص بالغرض التشريعى، وذلك النصر بنفسه نوع من عباداتهم امرهم الله بذلك ليثيبهم عليه وهم فى نصرهم ذلك محتاجون الى نصره تعالى (ولينصرن الله من ينصره) .

فمن موارد ذكره تعالى نصره لخلقه (وهى كثيرة) قوله تعالى :

١ ـ وكان حقا علينا نصر المؤمنين . « ٤٧ الروم »

٢ ـ والله يؤيد بنصره من يشاء. « ١٣ آل عمران »

٣ ـ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . « ١٥٠ آل عمران »

٤ ـ من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والاخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ « ١٥ الحج » .

٥ ـ وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم. « ١٢٦ آل عمران »

ومن موارد طلبه تعالى من عباده النصر (وهى قليلة لاتزيد عن اربعة موارد) قوله تعالى :

ياايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم « ٧ محمد »

ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز « ٤٠ الحج »

وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . « ٢٥ الحديد »

ياايها الدين آمنوا كونوا انصار الله . « ۱۴ الصف »

ثم ان نصر الخلق لله يقع على وجوه :

۱ ـ النصر العملى بالاتيان بما امر الله به من العبادات والترك لما نهى‌عنه من المعاصى .

۲ ـ النصر الفكرى، بامعان النظر واعطاء القوة العاقلة حقها فى التفكير والتعمق فى سبيل هداية الناس الى مايجب الاهتداء اليه .

۳ ـ النصر اللسانى بارشاد الجاهلين الى الاحكام والقوانين الالهية والامر بالمعروف والنهى عن المنكر قولا .

۴ ـ النصر القلمى بتبليغ الدين بالكتابة .

۵ ـ النصر المالى ببذله فى سبيل الدعوة الالهية ونشر البرامج الدينية .

۶ ـ النصر البدنى بالجهاد فى سبيل الله والقتال فى طريق مرضاته .

فيقع السؤال ح عن انه هل وقعت الدعوة من عيسى (ع) الى جميع تلك الاقسام من النصر حتى الجهاد بالسيف فى سبيل الحق، ونشر المعارف الانجيلية، وهل كان من شرعه الجهاد بالسيف مع الاعداء ؟ وعلى فرض ذلك هل وقع منه ذلك او لم يقع ؟ ظاهر كونه مصدقا للتوراة كما حكاه عنه القرآن فى موارد تشريع الجهاد بالسيف فى شريعته ، فانه لااشكال فى انه كان من اهم ماشرعه الله فيها لبنى اسرائيل وانه قد صدر من خلفاء موسى (ع) .

فان فتح الشام وفلسطين كان بيد يوشع بن نون وصى موسى والسبر فى قصص موسى فى القرآن ، يعطى انه وان لم يكن مامورا بالحرب مع فرعون وقومه، بل كان مامورا باستخلاص بنى اسرائيل من اسارتهم واستضعافهم وتعبيدهم فان بنى اسرائيل لم يكونوا يستطيعون حربهم من حيث العدة والعدة كما يستفاد من قوله تعالى :

اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر و اويخشى «۴۴ طه»

وقوله‌تعالى ، فقولاانا رسول رب العالمين ان‌ارسل معنابنى اسرائيل (١٩ الشعراء)

وقوله تعالى: قال‌لئن‌اتخذت‌الهاً غيرى‌لاجعلنك‌من‌المسجونين (٣٠ـ الشعراء)

وقوله‌تعالى: واوحينا الى‌موسى ان‌اسر بعبادى‌انكم متبعون فارسل فرعون فى‌المدائن حاشرين ان‌هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنالغائظون‌وانالجميع حاذرون (٥٧ الشعراء)

قال‌سنقتل‌ابنائهم‌ونستحيى نسائهم‌وانافوقهم قاهرون‌قال‌موسى لقومه‌استعينوا بالله واصبروا (١٢٩ الاعراف) الان الله‌قدكتب عليهم محاربة اهل‌الارض المقدسة التى كانت محل‌ظهور الانبياء ومحط نزول‌الوحى وطلوع الشرائع السماوية وكان قدغلبها الجبابرة وفشت‌فيها الفحشاء والمنكر ، وراجت‌فيها الاهواء و الشهوات ، فامرالله موسى بالجهاد معهم واحياء كلمة الحق‌فيهم قال‌تعالى :

ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا ياموسى ان‌فيها قوماجبارين وانالن ندخلها ابداً ماداموا فيها فاذهب‌انت وربك فقاتلاانا‌ههنا قاعدون «٢٥ المائدة»

والظاهر انه‌لم‌يكن حكم‌الجهاد فى التوراة مخصوصا بقوم خـاص وارض معينة بل‌كان حكماكليا الهياقابلا للدوام والبقاء.

كماقال‌تعالى: الم‌تر الى‌الملاء‌من‌بنى اسرائيل من‌بعدموسى‌اذقالوا لنبى لهم ابعث‌لنا ملكانقاتل فى سبيل‌الله....فقتل‌داودجالوت وآتاه‌الله الملك والحكمة . (٢٤٧ البقرة)

وبالجملة كان الجهاد مع‌اعداء الدين من‌الاحكام الثابتة فى التوراة ، ولازم ذلك‌ثبوته فى‌شرع عيسى ايضا لانه‌كان مصدقا لجميع مافيها ويدل عليه ايضا قوله تعالى: ان‌الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن‌لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله‌فيقتلون ويقتلون وعداعليه حقافى التوراة والانجيل‌والقرآن . (١١١ التوبة)

والمؤمنون يشمل كل من آمن بالله ورسله في كل عصرو زمان ، وقوله «وعدا عليه» اى ان وعد الجنة لهم وعد ثابت على الله مذكور فى التوراة والانجيل والقرآن، فالاية تدل على تشريع حكم الجهاد لهم كما شرع لغيرهم .

فما فى تفسير روح المعانى للآلوسى من قوله (انه لم يصح ان عيسى امر به) غير صحيح، هذا بالنسبة الى تشريع الجهاد فى شريعته واما وقوعه وصدوره منه فى حياته فقد يستظهر ايضا من قوله تعالى : فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين (الصف آخره)

لكن الاية ليست نصا فى الغلبة بالحرب والقتال لاحتمال كون المراد الغلبة بالحجة والبرهان كما قيل فى قوله تعالى :

ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

والحاصل مما ذكرنا انه يمكن حمل دعوة عيسى الى نصرته ونصرة الله ، على المعنى الاعم الشامل للنصرة فى الحرب وبذل النفس فى سبيل الله تعالى.

قوله : **آمنا بالله واشهد بانا مسلمون .**

قد استعمل فى الاية الشريفة لفظ الاسلام والايمان، وينبغى فى توضيح معناها تقدم مقدمة موجزة ، وهى ان للانسان بحسب الغالب فى سيره الى كمالاته الانسانية والدينية مراحل اربع متدرجة .

الاولى : الاقرار باللسان بالتوحيد والنبوة وما اتى به الرسول فى الجملة ، وهذه هى الدرجة الاولى فقد تحقق هذه والقلب خال عن الاذعان او هو فى شك وريب .

الثانية : الاذعان قلبا والاعتقاد باطنا بما اقر بلسانه وهذه المرتبة قد تنفصل عن الاولى بزمان وقد تقارنها ، كما انه قد يتفق تقديمها عليها .

الثالثة : تأثير الاذعان الباطنى فى حركة صاحبه نحو العمل والامتثال للتكاليف الظاهرية من الواجبات والمحرمات .

الرابعة : تسليم القلب بما اذعن وحصول طمأنينة فيه وسكينة ، بحيث لا يقبل

الترديد والتشكيك ولا يتزلزل بعروض الحوادث وتهاجم الوساوس ، وتسمى هذه المرتبة باليقين.

اذا عرفت هذا فنقول ان معنى اللفظين فى اللغة واضح ، فان الايمان بمعنى الاذعان والتصديق والاسلام بمعنى الانقياد والخضوع .

وأما عند المتشرعة . فقد يقال ان الاسلام والايمان لفظان مترادفان يطلقان على جميع تلك المعانى ،فمعنى اللفظين امر ذو تشكيك كالنور والضياء ، وعلى فرض صحة هذا القول كما انه يؤيده قول مولانا السجاد (ع) فى الدعاء الذى رواه عنه ابوحمزة الثمالى :

اللهم ان قوما آمنوا بك بالسنتهم ليحقنوا بذلك دمائهم. فادركوا ماامل‍وا وانا آمنا بك بالسنتنا وقلوبنا لتعفو عنا فادركنا ما املنا ، فلكل واحد من اللفظين اطلاقات اخر .

فيستعمل الايمان تارة فى خصوص المرتبة الثانية وهى امر قلبه فقط ، ويستعمل اخرى فى مجموع المراتب الثلاث الاول، وبهذا الاطلاق قد استعمل فى عدة من الروايات، ففيها ان الايمان اقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالاركان، ويستعمل ثالثة فى خصوص المرتبة الاخيرة .

ففى بعض الروايات ان المؤمن ينظر بنور الله وان المؤمن لايكذب وانه لايزنى وانه لايسرق .

وغير ذلك، فان الظاهر ان المراد بالمؤمن فيها هو الذى كمل ايمانه وحصل فى قلبه نور اليقين بحيث منعه عن ارتكاب الفواحش .

واما الاسلام فهو ايضا قد يستعمل فى خصوص المرتبة الاولى وهو شايع بين المتشرعة ، وقد يستعمل فى خصوص المرتبة الأخيرة ، والظاهر انه المراد فى بعض الادعية الواردة (اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات).

وفى بعض الروايات ، الايمان فوق الاسلام بدرجة، والتقوى فوق الايمان

بدرجة ، واليقين فوق التقوى بدرجة ، فقد اطلق الاسلام على الدرجة الاولى من تلك المراتب ، والايمان على الثانية ، والتقوى على الثالثة ، واليقين على الرابعة

ثم انه يظهر لك بما ذكرنا عدم التنافى بين الروايات بالنسبة الى معنى الايمان والاسلام ، فالموارد مختلفة والاستعمال يختلف باختلافها ، هذا كله بالنظر الى معنى اللفظين مطلقا ، واما المراد بهما فى المقام فيمكن كون المراد بهما المرتبة الاخيرة ، فالمقصود بالاية انهم اعترفوا بكونهم موقنين وطلبوا من عيسى ان يشهد به عند الله ، ويمكن ان يراد بالايمان المرتبة الثانية اوالثالثة ، وبالاسلام الاخيرة، لان اسم الفاعل هنا يدل على ثبوت معناه فى الباطن وصيرورته ملكة

ثم انهم بعد ما عرضوا ايمانهم واسلامهم على نبيهم و طلبوا منه الشهادة على ذلك ، توجهوا الى الله وعرضوا ايمانهم عليه تعالى ايضا بقولهم

ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين

والايمان فى هذه الاية محتمل لكل واحدة من مراتبها المذكورة آنفا ، و هل يراد باتباع الرسول هنا اتباعه قولا اوقلبا واعتقادا اومشيا وعملا ، اوفى جميع ذلك وجوه ؟ وعلى بعض المحتملات يكون عطفه على قوله آمنا عطفا تفسيريا

وهذا اذا اريد باتباع الرسول اتباعه فى اوامره ونواهيه الارشادية ، و هى ما يحكيه الرسول عن الله تعالى ، فالاولى ان يراد اتباعه فى اوامره المولوية فيتغاير الايمان بالله مع اتباع الرسول ، كما ذكرنا فى قوله تعالى : اطيعوا الله و اطيعوا الرسول .

وفى ذكر ذلك ايماء بان قبول الدين والكتاب السماوى لايتم الا باتباع مجريه والاهتداء بهدى الامام العدل ، فالعدل القانونى الحكمى لاينفع اولايكمل ولايتم الا بالامام العادل و الهادى المصون عن الخطاء والزلل و لذلك تعمدت و اهتمت الشيعة الامامية بالتصريح على العدل والامامة فى اصول دينهم وعدوها خمسة اوسبعة كما مر فى بعض الابحاث الماضية

وهنا امر ينبغي للمتأمل في حقائق التنزيل ان يلتفت اليه، وهو ان الحواريين اشهدوا نبيهم عيسى اولا على اسلامهم ثم طلبوا من ربهم ان يكتبهم مع الشاهدين فما معنى هذه الشهادة؟ ومتى تقع ،واين تقع ومن هو المشهود عليه؟ وماهو المشهود به وماهو المحوج الى وقوعها ؟

فنقول تستعمل الشهادة في اللغة تارة بمعنى الحضور عند شيئ ، و يلازمه عادة العلم بحال ذاك الشيئ و هذا اذا عدى الى المفعول بنفسه كقوله تعالى :

فمن شهد منكم الشهر فليصمه (١٨٥ البقرة)

وقوله تعالى : ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله (٢٨ الحج)

والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما (٧٢-الفرقان)

واخرى بمعنى الاخبار عن الشيئ والحكاية عنه ، وهذا على قسمين،شهادة تكوينية وشهادة انشائية ، اما الاولى فهي كون الشيء دالا على امر بمقتضى طبعه وخلقته .

قال تعالى و اذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ، ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين (١٧٢- الاعراف)

والمعنى ان الله اخرج نسل بني آدم بعضهم من بعض والابناء من اصلاب الاباء قرنا بعد قرن ، فاشهدهم على التوحيد بان اقام لهم دلائل التوحيد و براهينه في الافاق و في انفسهم ، ليقروا بالله و يذعنوا بتوحيده ، فيكون خلق العالم على هذه الكيفية المشاهدة وابداع الاثار والشواهد الحاكية عن ذاته تعالى و صفاته ، اشهادا من الله ودعوة للعقول ليقبلوا ويعترفوا كما انها شهادة تكوينية منه تعالى على وحدانيته ، ويكون ما ركب في عقولهم من استعداد ادراك الحق والاذعان به شهادة تكوينية منهم واقرار على التوحيد ، فكان الله تعالى قال لهم الست بربكم وكانهم قالوا بلى شهدنا

وقال تعالى شهدالله انه‌لااله الاهو والملائكة واولوالعلم‌قائما بالقسط.

(۱۸- آل‌عمران)

يمكن ان يكون المراد بشهادةالله تعالى فى هذه‌الايةماذكرنامن‌شهادة اجزاء العالم‌على وجوده و صفاته، فهى شهادة تكوينية ،و يمكن ارادة الشهادة الكتبية ، كخلق‌الله الكتابة الدالة على التوحيد فى‌اللوح‌المحفوظ، اوالللفظية كخلقه‌الصوت الذى تسمعه الملائكة ، او الالهامية كايحاء التوحيد الى قلوب الانبياء و نفوس الملائكة بل والى كل قلب ليس بمتكبرجبار ، فشهادةالله‌تعالى‌على‌اقسام، تكوينية وكتبية ، ولفظية ، والهامية وهذه الثلاث ايضا ترجع‌الى التكوينية لرجوعها الى الخلق والتكوين .

ثم ان العلم بشهادةالله الكتبية واللفظية يختص بالانبياء والملائكة و بعض خلفائهم : فهم قد يطلعون على اللوح المحفوظ ويسمعون كلام‌الله واما التكوينية والالهامية ، فيعرفهما كل من شرح‌الله صدره‌للاسلام وهوعلى نورمن‌ربه. وكل‌من القى السمع وهوشهيد .

واماشهادة الملائكة التى اشير اليها فى الاية الشريفة ، فهى ايضاتارةتكون تكوينية لانهاكماعرفت عبارة عن دلالة وجود العالم و نظمه و حسن تدبيره على الصانع الحكيم وصفاته

وكما ان‌هذاالامرشهادةتكوينية‌من‌الله‌فهوشهادةتكوينية‌من‌الملائكة فان‌تدبير العالم بيدهم وبوساطتهم ، وهم المقسمات امرا، والجاريات يسرا ، والمدبرات امرا ، فالخلقة العجيبة الصادرة بيدهم والنظم‌التام الجارى بوساطتهم هى‌شهادتهم التكوينية ، وانه شهادة ماانمها وابينها واخرى تكون اللفظية كما قال تعالى

شهدالله انه لااله الا هو والملائكة اه

وقال تعالى حاكياعن‌الملائكة ونحن نسبح بحمدك ونقدس‌لك(۳۰-البقرة) فان حمدهم شهادة على صفاته الكمالية ، « و تسبيحهم شهادة على صفاته الجلالية».

وقال : والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض

(٥ - الشورى)

وقال : وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم

(٧٥ - الزمر)

ولا يخفى عليك ان علمنا بشهادة الملائكة التكوينية واللفظية الانشائية ينحصر بطريق السمع اى الاستفادة من القرآن والسنة هذا كله فى الشهادة الدنيوية ، واما الاخرة فالاية الدالة على وقوع الشهادة فيها على طوائف .

منها ما يدل على اصل وقوع الشهادة فيها كقوله تعالى

ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. (١٨- هود)

و قال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . . . . انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد .

(٥١ - غافر)

وقال تعالى : واشرقت الارض بنور ربها و وضع الكتاب و جيىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق(٦٩ -الزمر)

و منها . ما يدل على شهادة الانبياء والائمة (ع) والمؤمنين فى الاخرة كقوله تعالى :

وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (١٤٣ - البقرة)

الوسط وصف للامة ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع ، والمراد به الحد المتوسط بين طرفى الافراط والتفريط ، و هو فى الحقيقة وصف لحال الامة ، اى عقائدهم وصفاتهم واعمالهم فجعل الله عقائدهم معتدلة مستقيمة لا افراط فيها ولا تفريط ، وكذلك اخلاقهم واعمالهم

ثم استعمل وصفا لانفسهم وحيث ان المراد بالشهادة كما سيجىء الشهادة يوم القيامة على الناس جميعا ، فالمخاطب بالاية ليس جميع الامة الاسلامية قطعا اذمنهم الفساق والفجار ومن لاوزن له عندالله ولاقيمة ، فكيف يترتب عليهم ماجعل غاية للوسطية اعنى قبول شهادتهم فى الاخرة فى حق الامة ، وقدروى العياشى فى ذيل الاية الشريفة عن ابيعبدالله(ع) قال:

فان ظننت ان الله عنى بهذه الاية جميع اهل القبلة من الموحدين افترى ان من لايجوز شهادته فى الدنيا على صاع من تمر يطلب شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الامم الماضية (بح ۲۳ باب عرض الاعمال ج ۵۸)

فالخطاب لخصوص الائمة عليهم السلام اعنى الخلفاء المنصوبين بنص النبى الاعظم وبالامر المبرم من قبل الحكيم تعالى، والمراد بالشهادة شهادتهم (ع) على الناس يوم القيامة با يمانهم و كفرهم و سائر عقائدهم ، و با عمالهم من حسناتهم وسيئآتهم وجميع احوالهم الدخيلة فى مثوباتهم و عقوباتهم .

و المراد بشهادة النبى عليهم شهادته بما علموا وبما عملوا وجاهدوا فى الله تعالى حق جهاده فى ايفاء وظائف الامامة وتبليغ ماعليهم من احكام الدين وقواعد الشريعة .

والدليل على هذا المعنى روايات واردة فى تفسير الاية عن اهل البيت(ع)، ففى صحيحة بريد العجلى قال قلت لابى جعفر (ع) قول الله تعالى :

وكذلك جعلناكم امة وسطا ـ شهيدا قال نحن الامة الوسطى ، ونحن شهداء الله على خلقه و حججه فى ارضه .

وفى رواية سليم بن قيس الهلالى عن مولانا امير المؤمنين(ع)، قال ايانا عنى بقوله : «لتكونوا شهداء على الناس» فرسول الله شاهد علينا ونحن شهداء الله على خلقه وحجته فى ارضه ، ونحن الذين قال الله تعالى : « وكذلك جعلناكم امةوسطا».

و فى رواية حمران بن اعين عن الباقر (ع) : انما انزل الله (وكذلك

جعلناكم امة وسطا)يعنى عدولا لتكونوا شهداء على الناس ،ويكون الرسول عليكم شهيدا ، قال : ولا يكون شهداء على الناس الا الائمة (ع) والرسل ، فاما الامة فانه غير جائز ان يستشهدها و فيهم من لايجوز شهادته فى الدنيا على حزمة بقل . (نور الثقلين ج ١) .

فهذه الروايات كاشفة عن مرمى الاية و معناها من حيث تعيين الشهود ، واما المشهود به وانهم بماذا يشهدون ؟ فقد روى ابو بصير عن الصادق (ع) فى قوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » قال بما عندنا من الحلال و الحرام و بما ضيعوا منه . و المراد بما عندهم احكام الدين من اصوله وفروعه ، فهم يشهدون بعلم الناس بها وجهلهم وطاعتهم ومخالفتهم، ثم انه لاينافى ماذكرنا من كون الخطاب للائمة (ع)، امكان ثبوت هذا المقام لغيرهم ايضا فالاية تشبه الايات التى خوطب بها النبى الاعظم ، وتشمل غيره فى مفادها ، فكل انسان سعى فى مراتب كماله الدينى و رقى فى درجاته بحيث اعتدلت عقائده و توسطت ملكاته و استقامت اعماله ، يكون ممن يشهد يوم القيامة على الناس بما يشهد به الائمة (ع) ويكون الرسول (ص) شهيدا عليه بمقامه وكماله .

و قوله تعالى : وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم ، هوسماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم و تكونوا شهداء على الناس (٧٨ الحج) .

الجهاد هو تحمل المشقة ، و المراد به هنا الاعم من جهاد النفس و جهاد العدو ، فالمراد به العمل بقوانين الشرع واحكام الدين،ومعنى كونه حق الجهاد، مراعاة جميع اصولها وفروعها عملا ومقارنة ذلك بالاخلاص قلبا ، وقوله : «هو اجتباكم » اى اختاركم ربكم باعطاء هذا الدين وانزال الكتاب المبين ، ولم يجعل لكم فى احكامه وقواعده حكما حرجيا، بان لم يشرع ماكان اصله مستلزما للحرج، كايجاب الصلوة بالجماعة على جميع الناس و خمسين صلاة فى اواخر الليل ،

وتحريم اكل غيرالخبز مثلا ، ورفع ماصار ضرريا فی‌مقام العمل، كايجاب الغسل والصيام‌للمريض‌ونحوذلك وقوله: «ملة ابيكم» ای هذا الدين هوالطريقة التی‌كان عليها ابوكم ابراهيم (ع) ،

وقوله : «هوسماكم» ای‌الله تعالی اوابراهيم النبی سماكم المسلمين من‌قبل زمانكم هذا وهو جميع الازمنة التی شرع الدين للناس و فی زمانكم هذا ، فان الدين عندالله الاسلام و كل من قبل الدين وعمل به فهو مسلم ، وقوله : « ليكون الرسول » الظاهرانه فی‌مورد العلة الغائية لقوله : «وجاهدوا فی‌الله» ومابينهما تعليل للجهاد المذكور وبيان لما يكون حثا فی‌ذلك وترغيبا ، فان اصطفاء امة واجتبائهم و بذل نعمة الدين عليهم وتسميتهم مسلمين ، يقتضی لزوم جهادهم حق الجهاد ، كما ان نتيجة ذاك الجهاد الخاص هی بلوغ المجاهد مقاما متوسطا بين الرسول و الناس و كون الرسول شاهدا عليه ، باخذه الدين و ابلاغه وكونه شاهدا علی الناس بالقبول و الرد .

وهذه الاية ايضا كسابقتها تنطبق علی‌الائمة (ع)وهم المعينون بها. كماوردت بذلك اخبار .

ففی صحيح بريد العجلی عن مولانا الصادق (ع) قال قلت لابی جعفر قوله تعالی : «وجاهدوا فی‌الله حق جهاده هواجتباكم » قال ايانا عنی ونحن المجتبون، ولم‌يجعل‌الله فی‌الدين من حرج فالحرج اشد من‌الضيق «ملة ابيكم ابراهيم» ايانا عنی خاصة «هو سماكم المسلمين» الله سمانا المسلمين من قبل ، فی الكتب التی مضت وفی هذا القرآن « ليكون الرسول‌شهيدا » فرسول‌الله الشهيد علينا بما بلغنا عن الله تعالی ، و نحن الشهداء علی الناس يوم القيامة ، فمن صدق يوم القيامة صدقناه ومن‌كذب كذبناه (نور الثقلين ج ۱ ص ۲۲۵) ونحوها غيرها مع ان‌فی نفس الاية ايضاً شواهد علی ارادتهم (ع) ،كقوله تعالی : « ملة ابيكم ابراهيم » فان حمل الاب علی الاب الروحانی مثلا خلاف الظاهر ، و قوله : « هو سماكم المسلمين » اريدبه قول ابراهيم : « ربنا واجعلنا مسلمين لك‌ومن ذريتنا امة مسلمة

لك» بناء على ارجاع الضمير المرفوع الى ابراهيم (ع) و قد عرفت ان انطباق الاية على الائمه (ع) لايأبى عن قابليتها لاندراج غيرهم فيها ، فكل من جاهد في الله حق جهاده يترتب عليه الحكم بالمشهود به عليه ، وشهادته على غيره .

وقوله فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هولاء شهيدا . (٤١ النساء)

اى جئنا بك شهيدا على امتك اوعلى الشهداء .

وقوله ويوم نبعث من كل امة شهيدا عليهم من انفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء (٨٩ النحل)

ويقرب مما ذكرنا الاية . ١٥٩ . من النساء ـ والاية ٨٤ من النحل ـ والاية ١٥ من المزمل وغير ذلك .

ان قلت . ان شهادة النبى والائمة (ع) على امتهم اوعلى جميع الامم يوم القيامةتتوقف على اطلاعهم وعلمهم بما يشهدون به من عقائدهم وملكاتهم واعمالهم، وعلى كيفية صدورالاعمال منهم من خلوص اوشوب رياء وغيره ليتسنى لهم التحمل فيتمنكوا من الاداء ، وهل يمكن ذلك لغير الله تعالى وان كان عبدا صالحا اونبيا او وصى نبى ؟

قلت ان جميع مايصدر من العباد والمكلفين ـ مع قطع النظر عن ثبوته فى علم الله الازلى ،كسائر الكائنات والحوادث قد ثبتت قبل صدوره وحدوثه فى كتاب كبير لايضل ربى ولاينسى ، ويسمى بالكتاب تارة وباللوح المحفوظ اخرى وبام الكتاب ثالثة وبالامام المبين رابعة قال الله تعالى :

ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء ولااصغر من ذلك ولااكبر الا فى كتاب مبين (٦١ يونس)

ومايعزب اى لايغيب عن علمه ومرآه ومنظره، والذرة معروفة او هى النملة الصغيرة ، وقوله ولااصغر ابتداء كلام فالاية تبيان لثبوت الاشياء فى علم الله وفى الكتاب الكبير .

وقال : عالم الغیب لایعزب عنه مثقال ذرة فی السموات ولافی الارض، ولا اصغر من ذلك ولااكبر الافی كتاب مبین (۳ـ سبأ)

وقال : وما كان لرسول ان یاتی بآیة الاباذن الله لكل اجل كتاب یمحو الله مایشاء ویثبت وعنده ام الكتاب (۳۹ـ الرعد)

وقال : الم تعلم ان الله یعلم مافی السماء والارض ان ذلك فی كتاب انذلك علی الله یسیر (۷۰ـ الحج)

وقال : انه لقرآن كریم فی كتاب مكنون لایمسه الاالمطهرون (۷۸ـ الواقعة)

ویثبت ایضا انعمل كل شخص من اشخاص المكلفین، فی كتاب مخصوص به ، فیدرج فیه كلما یتعلق به من حركاته وخواطرقلبه ولحظات عینه ولفظات لسانه، علی نحو التدریج وشیئا فشیئا علی طبق مایحدث منه بتصرم ساعاته وایامه فی سنین عمره ، منذ القته ید التكوین علی صفحة الوجود فی الدنیا الی آخر لحظة صدرت منه عندموته، كل ذلك بید الملائكة الموكلین علیه والكرام الكاتبین صحیفة اعماله.

قال تعالی : و ان علیكم لحافظین كراما كاتبین یعلمون ما تفعلون .

(۱۲ـ الانفطار)

ایحسبون انا لانسمع سرهم ونجواهم بلی و رسلنا لدیهم یكتبون .

(۸۰ـ الزخرف)

انا نحن نحیی الموتی ونكتب ما قدموا و آثارهم (۱۲ـ یس)

و كل انسان الزمناه طائره فی عنقه ونخرج له یوم القیامة كتاباً یلقاه منشوراً

(۱۳ـ الاسراء)

اقرء كتابك كفی بنفسك الیوم علیك حسیباً (۱۴ـ الاسراء)

فاما من اوتی كتابه بیمینه فیقول هاؤم اقرئوا كتابیه. (۱۹ـ الحاقة)

واما من اوتی كتابه بشماله فیقول یالیتنی لم اوت كتابیه. (۲۵ـ الحاقة)

فمن یعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعیه وانا له كاتبون.

(۹۴ـ الانبیاء)

اذا عرفت ذلك فنقول : ان علم الانبياء والائمة (ع) باعمال الناس ، اما ان يكون باطلاعهم و اشرافهم على الكتاب الكبير اعنى اللوح المحفوظ ، و ذلك امر ممكن تعرضنا له تحت (عنوان الامام) واما ان يكون باطلاعهم على الكتاب الخاص بكل احد بعد عرض الحفظة عليهم، وهذا مما لاشبهة فيه، فان الظاهر انها تعرض عليهم فيعلمون بماصدرمنهم من الحسنات والسيئات ، فتعرض على كل نبى او امام اعمال من عاصره من الامة فى كل ثلاثة ايام ، او فى اسبوع ، و بذلك يتحقق تحمل الشهادة منهم فيؤدونها يوم القيامة،يوم يأتى الله من كل امة بشهيد،ويأتى بالنبى الاعظم محمد (ص) شهيدا على هؤلاء. قال تعالى:

يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لاتعتذروا قد نبأنا الله من اخباركم وسيرى الله عملكم و رسوله ثم تردون الى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .
(٩٤- التوبة)

وقال تعالى : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة. (١٠٥-التوبة)

ولنوردهنا بعض ما يدل على ذلك من احاديث الباب تيمنا .

ففى الصحيح عن مولانا الصادق (ع) قال : ان اعمال العباد تعرض على رسول الله كل صباح ، ابرارها وفجارها فاحذروا فليستحى احدكم ان يعرض على نبيه العمل القبيح(البحار ج٢٣ باب عرض الاعمال ح١٤)

وعنه (ع) فى قوله : (و قل اعملوا فسيرى الله عملكم) قال ايانا عنى (ح -- ١٠)

وفى الصحيح عنه(ع) المؤمنون ههنا الائمة(١٣)

و عنه (ع) قال : مالكم تسوئون رسول الله (ص) فقال له رجل كيف نسوئه فقال اما تعلمون ان اعمالكم تعرض عليه فاذا رأى معصية سائه ذلك ، فلا تسوئوا رسول الله وسروه .

وعن داودبن كثير الرقى، قال كنت عند ابى‌عبدالله اذ قال‌لى مبتدء من قبل نفسه يا داود لقد عرضت على اعمالكم يوم الخميس، فرأيت فيما عرض على من عملك صلتك لابن عمك فلان ، فسرنى ذلك انى علمت ان صلتك له اسرع لفناء عمره و قطع اجله ، قال داود وكان لى ابن عم معاند خبيث بلغنى عنه و عن عياله سوء حال فصككت له نفقة قبل خروجى الى مكة ، فلما صرت بالمدينة اخبرنى ابوعبدالله(ع) ذلك (ح ۱۲).

الصك الكتاب الذى يكتب فيه العطاياوالارزاق.

وعن حمادبن سويدعن ابى‌جعفر الباقر(ع) قال : قال رسول‌الله وهو فى نفر من اصحابه ان مقامى بين اظهركم خيرلكم ، وان مفارقتى اياكم خيرلكم ، فقام اليه جابربن‌عبدالله الانصارى وقال يارسول‌الله اما مقامك بين اظهرنا فهو خيرلنا ، فكيف يكون مفارقتك ايانا خيرا لنا .

قال (ص) اما مقامى بين اظهركم فهو خيرلكم لان‌الله يقول (وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وماكان‌الله معذبهم وهم يستغفرون ، يعنى يعذبهم بالسيف فاما مفارقتى اياكم فهو خيرلكم لان اعمالكم تعرض على كل اثنين و خميس ، فما كان من حسن حمدت الله عليه وماكان من سيىء استغفرت لكم (ح۹)

وعن عبدالله‌بن ابان وكان‌يسمى عبدالرضا، قال قلت للرضا (ع) ادع‌الله لى ولاهل بيتى، قال او لست افعل والله ان اعمالكم لتعرض على فى كل يوم وليلة ، فاستعظمت ذلك فقال اما تقرء كتاب‌الله : « قل اعملوا فسيرى الله‌عملكم و رسوله والمؤمنون» (ح۴۷ و۵۲و۵۳)

وعن الباقر(ع) فى‌قوله : «وكذلك جعلناكم امةوسطاً» قال منا شهيد على كل زمان، على‌بن ابيطالب(ع) فى زمانه والحسن فى زمانه و الحسين فى زمانه‌وكل يدعو منا الى امرالله)

« بحار ح۲۲ - باب عرض‌الاعمال عليهم و انهم الشهداء ح ۷)

و عن ابيعبدالله (ع) قال مامن مؤمن يموت او كافر يوضع فى قبره حتى يعرض عمله على رسول‌الله و على اميرالمؤمنين (ع) وهلم جراً الى اخرمن فرض الله طاعته فذلك: «وقل اعملوا فسيرى‌الله عملكم ورسوله والمؤمنون» (ح ١۵).

ان‌قلت كيف تدعى علم الانبياء والائمة(ع) باعمار الامة فى الدنياوشهادتهم عليهم فى الاخرى مع ان الله تعالى قد اخبر بعدم علمهم بها فى الاخرة كمااخبر بعدم علم الامم ايضا باعمالهم قال تعالى: يوم يجمع‌الله الرسل فيقول ما ذا اجبتم قالوا لاعلم لنا انك انت علام الغيوب (١٠٩ المائدة).

وقال: ويوم يناديهم‌فيقول ماذا اجبتم المرسلين... يتسائلون (۶۶القصص)

قلنا: قد عرفت دلالة الايات والاخبار على علمهم ويدل عليه ايضا قوله تعالى: «وقال‌الرسول يارب ان‌قومى‌اتخذوا هذاالقرآن مهجورا» (٣١ الفرقان) فلامناص عن‌القول بعدم‌الاطلاق فى آية المائدة بحيث يشمل جميع الحالات والمواقف فى القيامة فلعل ذلك يكون فى موقف خاص فانه لم يظهر لناكيفية اطلاعهم‌على احوال العبادواعمالهم ولاندرى انهم يعلمون بها فيبقى فى نفوسهم الشريفة الى حال اداء الشهادة يوم القيامة اوان حصول العلم لهم‌يكون عند النظر الى‌صحائف الاعمال اوعرض الملائكة كاطلاعنا على مطالب بعض الكتب فيغيب عنهم بعد موتهم ومضى مدة البرزخ ثم يتجدد لهم العلم بتذكير غيبى الهى او بالنظر الى الكتاب الكبير اوصحائف الاعمال الخاصة وبالجملة اقرارهم بعدم العلم فى زمان وموقف‌لايدل‌على عدم‌علمهم مطلقاويمكن ان يكون قوله: «ولنسئلن الذين ارسل اليهم‌ولنسئلن‌المرسلين فلنقصن عليهم بعلم و ماكنا غائبين» (٧۶ الاعراف) اشاره الى ان المرسل والمرسل اليهم لايعلمون مايسئلون عنه فيقص‌الله‌عليهم بعلم

وقد يقال: بان المراد بالاية اظهار الرسل‌قلة علمهم فى جنب علم‌الله‌تعالى المحيط بكل شىء تادبا ومبالغة فكانهم قالوا علمنا بذلك كعدم العلم فلاعلم لنا وقوله تعالى: «انك‌انت‌علام الغيوب»يؤيدالمعنى الاول فانهم جعلوا موردالسؤال من مصاديق‌الغيوب التى لايعلمهاالاالله.

هذا اجمال الكلام فى مسئلة الشهادة واقسامها وزمانها وسائر خصوصياتها و يظهر بذلك ان الحواريين لما طلبوا من رسولهم ان يكون لهم شاهدا ودعوا ربهم ان يكتبهم شهداء علم منه ان حقيقة سؤالهم هى ان يبلغهم ربهم مقام الامة الوسط والمجاهدين فى‌الله حق الجهاد وذلك اما باكمالهم فى درجات الايمان او باجتبائهم لمنصب النبوة كما يمكن استظهاره من قوله تعالى و اذا اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمناواشهد باننا مسلمون» (۱۱۱ المائدة)

وظاهر الايحاء هو كونه الى من له مقام النبوة فهم قد طلبوا مقاما شامخا فى الايمان او منصب النبوة ليكون رسولهم شهيدا عليهم و يكونوا شهداء على الناس كالائمة بعد النبى الاعظم محمد (ص) فانه كانت نسبة الانبياء السابقين غير اولى العزم وغير اصحاب الكتب منهم الى اصحاب الكتب والشرائع كنسبة ائمتنا الى نبينا .

و قد علم بهذا ايضا ان مقام الشهادة بهذا المعنى اعظم من الشهادة بمعنى القتل فى سبيل‌الله لكونه نتيجة الجهاد الاكبر و لذا قد تكرر فى الذكر الحكيم التنبيه على عظمة هذا الامروان الشاهد والشهيد اولا هوالله ثم المقربون من عباده

قال تعالى «ان‌الله كان على كل شيىء شهيداً» (۳۳ـ النساء) .

«انا ارسلناك شاهدا ومبشراونذيرا» (۴۵ـ الاحزاب) .

«يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين» (۸۳ـ المائدة) .

«وليعلم‌الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء» (۱۴۰ـ آل‌عمران).

«فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (۶۹ ـ النساء)

«ووضع الكتاب وجيىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق» (۶۹ الزمر)

«والذين آمنوا بالله و رسله اولئك هم الصديقون و الشهداء عندربهم لهم اجرهم ونورهم» (۱۹ الحديد) .

والظاهر انه ليس فى الكتاب الكريم مورد علم فيه استعمال كلمة الشهيد فى المقتول فى سبيل الله .

قال تعالى **ومكروا ومكرالله والله خيرالماكرين** (٥٤ آل عمران)

التفسير

المكر مفهوم معروف ، ويمكن تعريفه بانه العمل الذى له ظاهر محبوب و باطن مكروه ، و ليس القبح لازما لذاته ، فانه ان كان الغرض منه تضييع حق و الظلم لاحد كان قبيحا ، و ان كان الغرض تمشية حق او رفع ضرر كان حسنا قال تعالى : « استكباراً فى الارض ومكرالسيىء ولايحيق المكر السيىء الاباهله » (٣٥ - ٤٣) .

فيعلم ان هنا مكراً حسنا ومكراً سيئا ، ولذا لايكون مايصدرمنه من الله تعالى باطلا قبيحا ، اذلا يصدر منه ذلك الا مجازاة لمكر الماكرين او لمصلحة تشابه ذلك ، ونظيره فى المعنى الخدعة فانها تستعمل ايضا فى اظهار ما يوهم السلامة وابطال مايقتضى الاضرار، وقدنسب الله المكروالخدع الى نفسه فى كتابه الكريم فى موارد ، قال تعالى : فى قصة صالح النبى وقومه :

ومكروامكراً ومكرنا مكراًوهم لايشعرون (٥٠ - النمل) اما مكرالقوم فقد تقاسموا بالله لنبيتنه و اهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك اهله و انا لصادقون واما مكرالله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

وقال تعالى. ويمكرون ويمكرالله والله خيرالماكرين (٣٠-الانفال) .

اما مكر قريش فقوله تعالى : واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك اويقتلوك او يخرجوك ، واما مكره تعالى فقد حفظه واخرجه من مكة واعانه بجند منه ، ثم رده اليهم ظافرا غالبا حتى خطب (ص) فى محتشد حافل فى البيت الحرام ، وقال

الحمدلله وحده وحده انجز وعده ونصرعبده واعزجنده وهزم الاحزاب وحده .

وقال تعالى: وقد مكرالذين من قبلهم فلله‌المكرجميعا . (۴۲ـالرعد) .

اما مكر الناس فهو جميع ما يحتالون فى الدنيا لبقائهم و دفع المضار و الموت عن انفسهم ، و اما مكره تعالى فقد قال : « او لم يروا انا نأتى الارض ننقصها من اطرافها و الله يحكم لامعقب لحكمه » و نقص الارض عبارة عن اماتة اهلها بالامراض والاوجاع والحوادث المترقبة وغير المترقبة ، ومعنى كون المكر كله لله ، كون جميع الحيل و اسبابها بيده تعالى ، وكون نفس الماكر و تفكيره ووسائل اعمال ما قدره ودبره مخلوقا لله مملوكاله بملكية اشراقية .

و قال تعالى : قل الله اسرع مكراً (۲۱ ـ يونس) وقال تعالى : ان‌المنافقين يخادعون‌الله وهوخادعهم (۱۴۲ النساء).

فهم يظهرون الايمان و يبطنون الكفر ، فيدخلون به فى زمرة المسلمين ، ويؤمنون على اموالهم وانفسهم وينتفعون بما انتفعوا به من الغنائم وغيرها فكانهم خدعوا ربهم بهذه الفعال ، والله تعالى يمهلهم ليستدرجوا فى الشقاء فياخذهم بغتة وهم لايشعرون .

وح فقوله تعالى : «وقدمكروا» اى‌مكرالذين‌احس عيسى منهم الكفر، وقد وقع الاختلاف فى كيفية مكرهم ومكرالله، فيظهرمن‌الاناجيل ان‌ملك بنى‌اسرائيل ارسل رجلا منهم خبيثا، ليدخل البيت الذى كان عيسى والحواريون ويقتل عيسى غيلة، فدخله فالقى‌الله عليه شبه عيسى فخرج الى‌اصحابه يخبرهم انه ليس‌فى‌البيت، فقتلوه وصلبوه وظنوا انه عيسى وقد رفع‌الله عيسى اليه .

ويستفاد من روايات اهل البيت ان مكرالله القائه تعالى شبه عيسى على‌احد الخلصاء من تلامذته بعد دعوة عيسى وقبوله ذلك برضاه ، فصلب وقتل ثم‌رفع الله عيسى‌اليه حياً وسيجىء تفصيل القولين فى الاية التالية .

قال تعالى **اذقال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الى مرجعكم فاحكم بينكم فيماكنتم فيه تختلفون** (٥٥ آل‌عمران)

التفسير

قوله : **اذ قال الله** متعلق بقوله مكر الله ، فهوبيان لكيفية مكر الله تعالى فى حقهم كما عرفت ، والتوفية : وفاء الدين اوالوعد تاما و بالنحو الاكمل كما قال تعالى :

وان كلالما ليوفينهم ربك اعمالهم (١١١ هود)

اى يعطى الله يوم القيامة كل طائفة من الابراروالفجارجزاء اعمالهم تاماكاملا اويوفيهم نفس اعمالهم وقال :

وكيف اذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت

(٢٥ آل عمران)

واما التوفى فهومطاوعة التوفية ، فهواخذ الشىء تاما فاذا اسند الى الروح كان المراد اخذها كلا ، واذا اسند الى الانسان فالمراد اخذ الانسان كذلك. قال تعالى :

الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى (٤٢-الزمر)

فاسند الاخذ والتوفى الى الروح ومعناه (ح) اخذها بحيث لم يبق لها تمكن الرجوع وعلقة الارتباط والاتصال، فلوارجعه الى محله فهوامتنان منه تعالى ورحمة :

وقال تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت (١١ ـ السجدة)

و قال تعالى : حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (۶۱ـ الانعام)

فاسند فى الايتين التوفى الى الانسان المركب من الروح والجسد فالمعنى ان الملائكة يقبضونه من بين المجتمع فيسلمون الجسد بمعونة اهله الى القبر ويعرضون الروح على الله كما قال تعالى:

واخذوا من مكان قريب

ثم ان المفسرين قد اختلفوا فى ان رفع عيسى الى الله تعالى هل كان باماتته ورفع روحه ، اوكان برفعه حيا بالروح والجسد؟ و الاناجيل مصرحة بان اليهود قتلوه وصلبوه فدفنوه ، ثم احياه الله وارسله الى الحواريين فى جبل الجليل. فوعظهم واوصاهم وغاب عن اعينهم وهو حى الى انقضاء الدهر، ففى انجيل متى ما خلاصته انه جاء يهودا الاسخر يوطى احد الاثنى عشر من تلامذته ومعه جماعة معهم السيوف والعصى : من عند رؤساء الكهنة ومشايخ الشعب

وقد قال لهم يهودا ان الرجل الذى اقبله هو المسيح ، فامسكوه فلما رأى يهودا المسيح قال السلام عليك يامعلم

ثم قبله فامسكوه فذهبوا به الى رئيس الكهنة، حيث تجتمع الشيوخ فالتمس المشايخ على يسوع شهادة يقتلونه بها ، فجاء جماعة من شهود الزور فشهد منهم اثنان ان يسوع قال انا اقدر ان انقض هيكل الله تعالى وفى ثلاثة ايام فقال له الرئيس ماتجيب عن نفسك بشىء، فسكت فاقسم عليه رئيس الكهنة بالله الحى انت المسيح فقال انا اقول لكم لا ترون ابن الانسان حتى تروه جالسا عن يمين القوة وآتيا فى سحاب السماء ، فلما سمع رئيس الكهنة ذلك شق ثيابه ، وقال ماحاجتنا الى شهادة يهودا قد سمعتم ، ماذا ترون فى امره فقالوا هذا مستوجب الموت .

فح بصقوا فى وجه البعيد ولطموه وضربوه واسلموه لفيلاطس القائد ، فتصايح الشعب باسره يصلب يصلب فساقه القائد ، فاجتمع عليه الشعب، ثم ذهب

به وهو يحمل صليبه فصلبوه فاقتسموا ثيابه بينهم بالقرعة وجعلوا عند رأسه لوحا مكتوبا هذا ملك اليهود استهزاء به ولما كان ساعات من يوم الجمعة صرخ يسوع وهو على الصليب بصوت عظيم ايلي ايلي، ايما صاصا اى الهى الهى ، لم تركتني وخذلتني .

ثم امال رأسه واسلم روحه وانشق حجاب الهيكل وانشقت الصخور وتفتحت القبور، ولما كان المساء جاء رجل من اهل الرامة يسمى يوسف بلفائف نقية وتركه في قبر كان تحته فى صخرة ثم جعل فى باب القبر حجراً عظيماً .

ثم جائت مريم المجدلية ورفيقتها عشية يوم السبت ، واذا ملك قد نزل من السماء برجة عظيمة ، فالقى الحجر عن القبر وجلس عنده وقال للنسوة لاتخافا جئتما تطلبان يسوع المصلوب ليس هو ههنا اذهبا وقولا لتلاميذه انه سبقكم الى الجليل وهو جبل ، ودخل الحراس واخبروا رؤساء الكهنة الخبر ، فقالوا لاتنطقوا بهذا ورشوهم بفضة على كتمان القضية ، فقبلوا واشاعوا ان التلاميذ جائوا وسرقوه ومضت الاحد عشر تلميذا الى الجليل ، وقد شك بعضهم وجاء لهم يسوع وكلمهم وقال اعطيت جميع القدرة على السماء والأرض اذهبوا فعمدوا كل الامم باسم الاب والابن وروح القدس وعوموهم مما اوصيكم به، وهوذا انا معكم الى انقضاء الدهر .

هذا وقد صرح الكتاب الكريم ببطلان تلك الدعوى ، وانه لم يقع القتل والصلب وان الامر قد اشتبه عليهم بل رفعه الله اليه، قال تعالى فى ضمن تعداد ماكان سببا لتحريم الطيبات على اليهود :

وقولهم اناقتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم . (١٥٧ - النساء)

لكن الكلام فى انه تعالى هل رفعه حيا، اواماته فرفع روحه؟ الظاهر من الآيات بعد التأمل هو الاول .

اما اولا فلاضافة التوفى الى عيسى بعينه لاالى روحه ، ومعنى اخذالشخص تاما اخذه بروحه وجسده فالمتحصل ح ان‌الله رفعه اليه حيا .

واما ثانيا : فلقوله تعالى : وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه (۱۵۸ – النساء)

فقدجعل الله‌رفعه اليه‌مقابلا للقتل، وهو يقتضى كون المراد به رفعه حياً اذلو كان‌المراد رفع روحه بدون‌الجسد لماصح التقابل اذالرفع بذلك النحو ثابت فى القتل‌ايضا وفى‌الكافى بطريق صحيح عن‌ابى جعفرالباقر (ع)قال :

ان‌عيسى وعد اصحابه ليلة‌رفعه الله فاجتمعوا اليه عند المساء وهم اثنى عشر رجلا، فادخلهم بيتا ثم‌خرج‌عليهم من‌عين فى‌زاوية البيت وهوينفض‌رأسه من‌الماء فقال: ان‌الله اوحى الى انه رافعى اليه الساعة ومطهرى من اليهود فايكم يلقى عليه شبحى‌فيقتل ويصلب ويكون معى‌فى درجتى .

فقال‌شاب منهم‌انا ياروح‌الله ، فقال: فانت‌هوذا : فقال‌لهم عيسى، امان‌منكم لمن‌يكفربى قبل‌ان يصبح اثنتى‌عشرة كفرة ، فقال‌له رجل‌منهم : اناهويا رسول‌الله؟ فقال‌عيسى اتحس بذلك فى‌نفسك ؟ فلتكن‌هو .

ثم‌قال لهم‌عيسى: اماانكم ستفترقون من بعدى على‌ثلاث‌فرق، فرقتين‌مفترتين على‌الله فى‌النار ، وفرقه‌تتبع شمعون صادقة على‌الله فى‌الجنة ، ثم‌رفع‌الله عيسى من زاوية البيت وهم ينظرون اليه ثم قال ابوجعفر: ان اليهود جائت فى طلب‌عيسى‌من ليلتهم‌فاخذوا الرجل الذى‌قال له‌عيسى : ان‌منكم لمن‌يكفر بى قبل ان يصبح اثنتى عشرة‌كفرة ، واخذوا الشاب الذى القى‌عليه شبح‌عيسى فقتل وصلب ، وكفر الذى قال‌له‌عيسى تكفرقبل ان‌تصبح اثنتى‌عشرة كفرة(نور الثقلين ج ۱ص ۵۶۹ فى تفسير الاية۱۵۸ من النساء) .

واماثالثا فلقوله تعالى: وان‌من اهل الكتاب الاليؤمنن به‌قبل موته‌ويوم‌القيامة يكون‌عليهم شهيدا (۱۵۹– النساء) اذالظاهر ان‌الضمير المجرورفى(به) راجع الى عيسى‌لكون الكلام فى‌بيان حاله، والقول برجوعه الى‌محمد (ص)غير ملائم‌للسياق

واما الضمير فى قوله (موته) فالراجح ايضا ارجاعه الى عيسى (ع) فان ارجاعه الى (احد) المفهوم من الكلام يستلزم تخصيص اهل الكتاب بمن لم يؤمن به كاليهود ، او تعميمه لهم ولمن آمن به بعنوان الالوهية واخراج من آمن برسالته من اول الامر وان كانوا قليلين .

و ح فمعنى الاية الشريفة ، ان اهل الكتاب جميعاً من لدن نزول هذه الاية وتوجه الخطاب الى النبى الاعظم(ص) الى ان ينقرضوا بعدظهور المهدى وزمان غلبة الحق على الباطل فى جميع البقاع والاصقاع، يؤمنون بعيسى قبل موته ولازم ذلك بقائه حيا الى ذلك الزمان وعدم موته، حينما رفعه الله اليه :

وح فايمان اهل الكتاب الذين ماتوا قبل ظهور المهدى و نزول عيسى الى حضرته، ايمان اضطرارى عند معاينة الموت لاينفعهم شيئا، وايمان الذين ادركوه بعد نزوله ايمان اختيارى تفيدهم نفعا.

فالاية بهذا المعنى تدل على عدم موت عيسى : و اما لوقلنا برجوع الضمير المجرور فى موته الى احد المفهوم من الكلام ، فالمعنى ان جميع اهل الكتاب يؤمنون بعيسى قبل موتهم اويؤمنون بمحمد(ص) قبل موتهم ، كما قال بكل قائل ، فلادلالة فى الاية على حياة عيسى فان المراد بالاية ح انكشاف الحقائق لدى المحتضرين من اهل الكتاب ،فيحصل لهم علم اليقين بالتوحيد والرسالة مطلقا وسائر المعارف الدينية، ولايلازم ذلك حياة تلك الرسل كما انه لاينفعهم ذاك الايمان.

قوله : **ورافعك الى**

ان كان المراد باسناد الرفع اليه تعالى اسناده الى نفسه الشريفة ، فالمراد هو الرفع المعنوى الروحانى بجعله من الاقربين وادخاله فى زمرة الملاء الاعلى والملائكة المسبحين بالليل والنهار لايفترون ، فان الرفع الصورى المكانى الى الله تعالى غير معقول وان كان المراد رفعه الى دار كرامته ومحط اوليائه ومكان سفرائه وملائكته فالرفع جسمانى صورى وروحانى معنوى كليهما اذهو(ع) قدرفع بجسده من سطح الارض الى السماء مثلا .

و عن ابن عباس انه رفعه الى السماء الدنيا فهو فيها يسبح الله ويقدسه مع الملائكة ويهبط منها عند ظهور الدجال على صخرة بيت‌المقدس ، والسماء محل جسمانی بحسب مقام القرب من‌الله اذهی مسكن الملائكة المقربين وماوی‌السفراء المكرمين ، واليها يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ، ومنهاتنزل‌البركات على عباد‌الله فعيسى‌المسيح كان انسيا ارضيا ، فصار ملكياسماويا ولعل‌ذلك معنى قوله تعالى فی‌موارد من‌الكتاب ، وايدناه بروح القدس

فان الرفع وقع بوساطة الروح

وقوله : **ومطهرك من الذين كفروا**

اطلاق التطهير‌على‌اخراج عيسى من‌بين‌قومه يقتضی‌عروض‌نوح من‌القذارة عليه فان‌تأثر‌الانسان بالرجس‌والقذارة وتلطخه به على انواع، تلطخ بدنه بالنجاسة والقذارة الظاهرية اوبالامراض وجراثيمها المضرة المهلكة، وتلطخ روحه بالعقائد الفاسدة ، ونفسه بالملكات الرذيله ، واعضائه بالمعاصی والاعمال القبيحة ،

وتلطخ نسبه بالعهروالفواحش الفاضحة ، وتلطخ الانسان الصالح‌بالمجتمع الفاسد ، وكونه فيما بين اهل‌الكفر والفجور والمنكرات ، ولااشكال فی‌ان‌تطهير كل قذارة يكون بتناسبها ، فالنجاسات بالماء والامراض‌بالدواء والعقائدوالملكات والاعمال بالتوبة والندم والنسب بالخروج مما بينهم وترك صحبتهم وقطع‌الروابط عنهم فتطهير الانسان عن صحبة الاجتماعات الفاسدة الخبيثة يكون باخراجه مما بينهم وابعاده عنهم ونقله‌الی‌محيط آخر‌صالح طاهر لاكفر‌فی‌اهلهم ولانفاق ،ولافسق فيهم ولافساد ، وكان قوم عيسى من تلك الفرقة ، لكفرهم و عنادهم و عدم تأثير المعارف الالهية فی‌نفوسهم ، ولو كان‌ملقيها عيسى‌بن‌مريم روح‌الله و كلمته.فأطلاق تطهير‌عيسى على اخراجه ممابينهم تعبير ماا‌حسنه واتمه .

فالمراد ومطهرك من قذارة ذاك المحيط ورجز‌مصاحبتهم ودرن مخالطتهم .

وقوله : **وجاعل‌الذين اتبعوك فوق‌الذين كفروا الی يوم القيامة**

قديقال ان المراد بالتابعين لعيسى هم النصارى من اهل الكتاب وبالكافرين هم اليهود ، والمسلمون خارجون عن شمول الاية ح والمراد بتفوق النصارى على اليهود تسلطهم خارجا وسيطرتهم وكثرتهم من حيث الجماعة والاموال والعتاد ، وذلك محقق معلوم بالفعل .

وعلى هذا فيستشكل على الاية اولا . بعدم حصول هذا التفوق مطلقافان الكفار لاينحصرون باليهود بل هم جميع الملل المنكرين لنبوة عيسى ، وليست النصارى ملة فائقة على الجميع . وثانيا . بعدم تحقق هذه السيطرة للنصارى فى اوائل تكون ملتهم ، بل كانوا عندئذ قليلين مغلوبين لليهود مشردين بأيديهم مقتولين مثنى وفرادى ومجتمعين ، كمايشهد به ماورد فى حالهم فى التواريخ ، ولعله الى بعض من ذلك اشيرفى سورة البروج قال تعالى :

قتل اصحاب الاخدود النارذات الوقوداذهم عليها قعودوهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ومانقموا منهم الاان يؤمنوا بالله العزيز الحميد . وثالثا . بعدم تحقق هذه السيطرة لهم فى آخر الزمان بعد ظهور المولى العظيم مهدى الامة والامام المنتظرعج فانه ينقرض ح سلسلة الاحزاب طرا - ويبطل المذاهب المختلفة الباطلة المنحرفة ، فلايبقى الا الاسلام ولاحكومة الا للامام العدل المنصوب من الله ، فيملاء الارض قسطا بعدان ملئت جورا فأين النصارى واليهود حتى يفوق بعضها على بعض .

ولوقلنا ببقاء اهل الكتاب فى عصر القائم ايضا كما لايبعد ذلك لدلالة بعض الايات عليه قال تعالى :

واذتأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوءالعذاب (١٦٧ الاعراف) .

فان الخطاب لليهود ، وظاهرالاية ان الله يسلط عليهم من يعذبهم الى يوم القيمة ويكون ذلك بعد ظهور القائم بيده و بيد الائمة عليهم السلام من بعده ، فاليهود باقون الى يوم القيمة فلامعنى ايضا عى لسيطرة النصارى عليهم ، فأن بقائهم

فى ذلك العصر لايكون الا بالتزامهم بشرائط الجزية ودخولهم تحت راية الاسلام و خضوعهم لقوانين الحكومة العادلة ، فلا تفوق ح لطائفة منهم على اخرى بل كلهم اذلاء صاغرون محكومون مقهورون ، اذا فلايصح حمل الاية على ذاك المعنى .

ولو قيل ان المراد يكون التابعين فوق الكفار من حيث الحجة والدليل ، فهم غالبون عليهم فى البرهان ، فان الادلة الدالة على نبوة عيسى ونسخه شريعة موسى ومجيئه بكتاب جديد وشرع حادث ، ادلة تامة وافية تفوق على ماتمسك به اهل التوراة فى خاتمية دين موسى وبقاء احكام التوراة الى الأبد ، فمعنى الاية ح ان الله جعل التابعين لعيسى ظافرا غالبا من حيث البرهان والحجة على من كفر به ، لكمال مايدل على نبوة عيسى وكتابه وتمامه

فهو ايضا دعوى باطلة وامر غير مقبول ، فأن مابيد النصارى بالفعل من الحجج والبراهين على حقيقة عيسى ، ليس الا هذه الاناجيل الموجودة بأيديهم ، و دعوى ربوبية عيسى ومايضاهى ذلك من الاباطيل ، وانت خبير بعدم قابلية كتبهم ودعاويهم لأثبات اية دعوى ادعوها و مرمى راموه ، فهده الاناجيل مع كثرة تخالف بعضها مع بعض ، تتضمن اباطيل واكاذيب ونسبة التجسم والتجسد الى الله والفحشاء والمنكر الى انبيائه ونبيه العظيم عيسى .

فأية حجة وبينة بأيديهم يكونون بها غالبين ظافرين على من انكر نبوة عيسى من اليهود وغيرهم من اهل الملل والمذاهب غير المسلمين ، بل يمكن ان يقال ان التوراة وان لم تنطق عن التوحيد كما هو حقه الا انها لاتأبى عنه ايضا ، وماحكى الله عنهم من قولهم عزير ابن الله لايراد به انهم ادعوا البنوة لعزير كما ادعتها النصارى لعيسى ، بل عزير هذا من جملة المتشرعين بشرع موسى .

وقد سعى وجاهد فى سبيل مذهبه بعد ماتخلصت اليهود من استعباد ملوك بابل بيد كورش ملك ايران ، فجمع اشياء من التوراة المفقودة المحرفة من ههنا وههنا ، فالف لهم كتابا اسماه التوراة السماوية المنزلة على موسى ، فشكرت اليهود سعيه وبالغت فى تعظيمه ، فسمته ابن الله وعلى هذا فكيف تكون ادلة التثليث التى

تمسك بها النصارى فائقة غالبة على ادلة التوحيد.

فالصواب فى معنى الاية ان نقول : ان المراد بالتابعين لعيسى ليس هؤلاء المسمون بالنصارى بالفعل ، فانهم ليسوا بتابعين لـه حقيقة ، اذ المراد التبعية فى العقائد القلبية والفضائل النفسية والاعمال الجوارحية ،وهذا المعنى من التبعية ليس فيهم قطعا، فاين ذلك والقول بالتثليث وارتكاب الفواحش والمعاصى بحيث ملاءوا الدنيا فسادا ومنكرا ، فلااثر من التبعية فيهم وليسوا معنيين بكلام الله تعالى .

بل المراد التابعون له تبعية حقيقية فى الجهات الثلاث المذكورة، ولاينطبق التابع بهذا المعنى الاعلى القوم الذين اذعنوا بجميع مااتى به عيسى من الله اصولا وفروعا من لدن بعثته (ع) الى زمان ظهور الاسلام وبعثة محمد (ص) ، والكافرون له ح كل من لم يتبعه فى اصول دينه وفروعه، ومنهم النصارى التى قالت بالتثليث.

واما بعد ظهور الاسلام فمن آمن منهم بمحمد (ص) ودينه وكتابه فهو من التابعين لعيسى حقا ، اذ من جملة احكام شرعه الايمان بالنبى بعده حيث حكى الله عنه بقوله :

ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد (ص) . ومن كفر به فقد كفر بعيسى ، فالمؤمنون به هم المسلمون والكافرون به هم غير المسلمين ، سواء اكانوا من اليهود ام من النصارى ام من غيرهم ، وعلى هـذا فالمراد بالتفوق الاعم من التفوق بالبرهان و بالسيطرة الظاهريـة ، فمنذ تكونت هذه الملـة وآمنت بعيسى، تفوقت بالبرهان والتبيان اذ كان بايديهم الانجيل السماوى والحجج التى افادوها من لسان النبى العظيم عيسى ، وهـم قد بقوا على هـذه الغلبة حتى تمسكوا بحبل الاسلام وحجج القرآن ، ففاقوا فى الحجة وظفروا بالبينة ، وهـم يبقون على تلك الحالة الى ان يأتى الله بالمهدى الكريم والقائد العظيم، فيتبعونه ويفوقون بالسيطرة الظاهرية والحكومة الالهية على العالم ،كماكانوا فائقين عليهم بالبرهان، فالتابعون لعيسى قدجعلهم الله فوق غيرهم منذ ظهر عيسى واعلن دعوته الى يوم القيامة، مدة بالبرهان واخرى بالسيطرة .

فظهر ان المراد بالآية ان الله تعالى جعل التابعين لعيسى بالاذعان بنبوته ودينه وما بشر به امته، فوق الذين انكروا كونه عبدالله ونبيا ومبشرا برسول يأتي من بعده بمطلق التفوق والعلو والغلبة، ففي زمان بالبرهان خاصة، وفي آخر به وبالسيطرة الظاهرة والحكومة العادلة، وتبقى تلك الغلبة الى يوم القيامة.

وقوله تعالى: **ثم الى مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون.**

ظاهر الرجوع الى شيء سبق المجيء منه، وحيث ان جميع الممكنات ومنها الانسان وجدت بارادة الله وتكونت بامر الله فكأنها جائت من الله ونزلت من قبل الواجب الى مهبط الامكان، وحيث ان الانسان بعد ما قضى وطره في الدنيا وانقضى عمره، يرتحل الى دار اخرى لاسلطان فيها الاسلطانه ولاحكم الاله، ويظهر له فيها ما كان غائبا عنه في الدنيا من رؤية الملائكة وسماع كلام الله ومشاهدة سائر آثار عظمته، فكانه لاقى ربه ورجع اليه ولذلك اطلق على الموت اللقاء، وعلى الارتحال الى تلك الدار الرجوع الى الله، والافنسبة الاشياء اليه تعالى انسانا اوغيره نسبة واحدة، سواءا كانت في الدنيا ام في الاخرة،

ثم ان الخطاب هنا لعيسى وجميع من بعث اليهم من التابعين والكافرين، تغليباله عليهم، فانهم لم يكونوا حاضرين عند عيسى في زمان الخطاب، والاختلاف المذكور في الاية اعم من الاختلاف في اصول العقائد وفروعها ومن الامور المرتبطة بالدنيا.

وقوله تعالى: فاما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والاخرة ومالهم من ناصرين الخ.

ليس الكلام تفريعا لقوله: فاحكم بينكم وتفصيلا لنتيجة قضاء الله وحكومته لوجود كلمة (في الدنيا) بل هو تفصيل لقوله:

وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا.

فان الله تعالى جعل الناس في هذه الاية طائفتين: المتبعين والكافرين، وليس المراد بهم كما عرفت، خصوص النصارى واليهود بل المراد التابعون لعيسى بما

انهم من جملة حزب الله المؤمنين به والمسلمين لامره ، منذ انزل الله الشرائع الى البشر ، الى زمان بعثته ثم الى يوم القيامة .

وكذا المراد بالكافرين جميع المنكرين لله ورسله فى جميع الاعصار والامصار وذلك لان الله تعالى جعل جميع المؤمنين بالله ودينه ورسله من زمن آدم الى انقضاء عمر الدنيا ، جماعة واحدة وحسبهم امة متحدة مرتبطة والشرائع المرسولة اليهم دينا واحدا اسماها الاسلام ، وجعل الانبياء والمرسلين اليهم ملة واحدة مبعوثة من ناحية واحد .

ثم فرض من انكر اصول الدين كلا أو بعضا وجحد الرسل كذلك كافرا ، منذ بعث نبيا وانزل كتابا الى آخر الدنيا جماعة واحدة وامة مرتبطة ، وحكم على كل طائفة بما تستحقه ويليق بحالهما .

فلاحظ الايات التالية حيث فرض الله المؤمنين من جميع الامم امة واحدة ، وسماهم باسم المسلمين تارة وبجند الله اخرى وبحزب الله ثالثة ، فقال تعالى بعد ذكر الامم الماضية وانهم ظلموا انفسهم فاهلكهم الله .

وقال : قلنا اهبطوا جميعا فاما ياتينكم منى هداى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٣٩ ـ البقرة)

فالخطاب لادم وحواء وابليس والموصول فى قوله : « فمن تبع » وقوله : « الذين كفروا » عام شامل للطائفتين من زمان صدور ذاك الخطاب الى انقضاء عمر الدنيا .

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ـ الى ان قال ـ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار ه
(٧٢ ـ التوبة)

وقال تعالى : وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن واصلح

فلاخوف‌عليهم ولاهم‌يحزنون والذين كذبوا بآياتنا يمسهم‌العذاب بماكانوايفسقون.
(٤٩ ـ الانعام)

والموصولان فى الاية عامان كما ذكرنا .

وقال : ان الله اشترى من‌المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون و يقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن .
(١١١ ـ التوبة)

والاية لاتختص بامة محمد (ص) .

ولاحظ ايضاالايات الدالة على‌وحدة الدين والغرض‌الالهى الاسمى من‌بعث الرسل قال تعالى :

ان الدين عند الله الاسلام (١٩ ـ آل‌عمران)

وقال : ومن يبتغ غيرالاسلام . الخ (٨٥ ـ آل‌عمران)

وقال: شرع لكم من‌الدين ماوصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين‌ولاتتفرقوا . (١٣ ـ الشورى)

اى شرع الله للمسلمين دينا شرعه لنوح النبى الذى هو اول من انزل اليه الدين ، وشرعت له الشريعة ، ولمن بعث فيما بعده الى زمان محمد (ص) ، من اصحاب الشرايع وهم ابراهيم وموسى وعيسى (ع) ، وهو دين واحد تصور فى كل عصر بصورة‌خاصة تناسبه، وتلبس‌فى كل‌وقت و آونة بلباس‌اقتضاه‌الصلاح.

ولاحظ ايضا مادل على‌تنزيل‌المرسلين جميعامنزلة الجماعة الواحدة والامة الفاردة ، ويدل على وحدة الغرض والدين ايضا .

قال : قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسمعيل‌واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . (١٣٦ ـ البقرة)

وكذا الاية ٨٤ من آل‌عمران .

وقال : والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته و كتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله . (۲۸۵ - البقرة)

وقال : ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم اجورهم (۱۵۲ - النساء)

فجعل من فرق بين الرسل فى الايمان بهم كافرا ومن لم يفرق بينهم مؤمنا .

والحاصل من جميع ما ذكرنا ان هنا طائفتين : المؤمنون المتبعون للرسل المتدينون بدين واحد ، والكافرون المخالفون لهم ولدينهم ، وقد حكم الله فى الايات المبحوث عنها عن الطائفة الاولى، بانهم غالبون ظافرون ويلازم ذلك كون الثانية مغلوبين مظفورين ، وحكم ايضا على الثانية بانه يعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والاخرة ، وعلى الاولى بانه يوفيهم اجورهم .

وح فيتوجه هنا سؤال انه ما المراد بغلبة الطائفة الاولى على الثانية الى يوم القيامة الظاهرة فى كونها امرا ثابتا لهم من اول الامر وسنة الهية مستمرة غير متبدلة ، فهل المراد بها هو الغلبة من حيث الحجة والبرهان ، و السلطان عند المجادلة ، و المحاجة، اوالمراد هو الغلبة الظاهرية فى مقام القتال والحرب، اوالمراد حكومتهم خارجا على الكفار ، وكونهم تحت سلطان المؤمنين دائما ، اوالمراد ان الله تعالى يهلك مخالفيهم جميعا بعذاب وينتقم منهم بالاهلاك والتدمير، كقوم هود وقوم لوط، اوالمراد هو الامر المركب منهما كلا او بعضا

فاللازم لفت النظر الى حال الانبياء و تابعيهم من اول تكون حزبهم ، و مقايستها مع مخالفيهم والكافرين بهم حتى يظهر المراد بكيفية غلبتهم على الكافرين فنقول : ان الذى يظهر من سير الايات القرآنية ان القدر المتيقن من ثبوت الغلبة و التسلط للانبياء و المؤمنين التابعين لهم باحسان ، ثبوتا دائميا فى جميع ازمنة

تصادمهم و تقابلهم مع مخالفيهم ، هو الغلبة من حيث الحجة والبرهان ، و هو المعنى بقول‌الله فلله الحجة البالغة ، واما الغلبة فى مقام القتال والمحاربة اوالتسلط عليهم بالحكومة وتولى الامور السياسية والاجتماعية ، فلم تتفق الافى موارد نادرة والتسلط بمعنى اهلاكهم دفعة واحدة ، فهووان كان كثير الوقوع فى الامم الماضية الا انه ايضا ليس بامردائمى.

فلاحظ حال آدم الصفى ومن بعده الى نوح ، لم تظفرلهم بشىء من القتال بل وغيره من مراتب المقابلة للعدو، ولوكان لهم امرمن قبيل ابلاغ الاحكام فهو الاحتجاج واثبات المقصد بالاستدلال

واما نوح النبى (ع) فلم يحارب عدوا حتى يكون له الغلبة ولم يكن له ولاية وحكومة الاعلى اتباعه المؤمنين، وما آمن معه الاقليل، نعم اهلك الله مخالفيه بالطوفان واغرقهم اجمعين .

و اما هود النبى اعنى اخاعاد اذ انذر قومه بالاحقاف (وهى محل بين اليمن وعمان) فوعظ وذكروعد واوعد ، فسفهوه و كذبوه فجائهم ريح تدمر كل شىء بأمر ربها ،فاصبحوا لايرى الامساكنهم ، فلم يقاتل ولم يتول امورهم بل خاصمهم فأفحمهم ثم عذبهم ربهم .

واما صالح النبى اعنى اخا ثمود ، فدعا قومه واحتج عليهم بأبلغ الحجج واظهرها ، فاخرج لهم الناقة من الجبل الاانهم لم يؤمنوا بما جاءبه، ثم عقروا الناقة فاخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين ، فلم يحارب ولم يغلب.

واما شعيب المبعوث الى مدين (حوالى الشام) فقد بلغ وانذرواعذروكان خطيب الانبياء ، فوعدهم الثواب وخوفهم من العقاب، فكذبوه وهددوه بالاخراج عن قريتهم فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، فلم يكن له الا الظفر بالبرهان وهلاك اعدائه بمشية‌الله

واما لوط النبى فكان فى بلدة (سدوم) من نواحى فلسطين ، فأنذر واعذر

حتى اخرجه الله من بينهم واهلك الباقين ، فامطر عليهم حجارة من سجيل وماهى من الظالمين ببعيد

واما ابراهيم الخليل ، فقد نشأ ببابل وهى المملكة الواقعة بين النهرين تحت سلطنة نمرود ، وكانوا عبدة الأوثان ، فبلغ رسالات ربه وانذر واوعد وجاهد فى الله حق جهاده حتى اتم الحجة عليهم اذ القوه فى النار ، فنجاه الله منها سالما غانما لكنه لم يؤثر فيهم دعوته و ازمعوا على ايذائه وقتله ، فهاجر الى ناحية فلسطين وبلغ رسالة ربه هناك لعبدة الكواكب، حتى ارتحل منها الى مكة لبناء البيت فلم ينقل الله له حربا وقتالا وغلبة فى المحاربة ، ولا تولى الحكومة على الناس ولا اهلاك معانديه ومخالفيه

واما اسحق واسمعيل ويعقوب ، فلا نجد لهم اثرا من الحرب و القتال فى الكتاب الكريم ، ولا الحكومة على امة من الامم ، نعم كان لداود وسليمان ويوسف ويونس خلافة فى الناس وتولى امر الحكومة وزعامة على امة ، لا الغلبة فى الحرب والقتال ، واما ايوب وزكريا ويحيى وعدة آخرين منهم (ع) فلا تعرض فى الكتاب لحالهم الا شيئا يسيرا

واما عيسى (ع) فقد عرفت انه لم يقاتل مع الكفار ولم تكن له ولاية عليهم نعم الظاهر نزول العذاب على عدة من مخالفيه كالمسخ وغيره.

وبالجملة الخوض فى الايات، يعطى قلة وقوع الغلبة بالقتال والحرب والغلبة بالحكومة وتولى الامر، ولا تعرض للقتال فى الكتاب الكريم الا فى قضية طالوت وجالوت و قتل داود جالوت وظاهره وقوع غلبة المسلمين على الكفار ، و فى قصة موسى لما اخبر امته بان الله قد كتب عليهم القتال ، اجابوا بان فيها قوما جبارين وانا لا ندخلها ابدأ مادا موا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون

نعم يستفاد من بعض الايات على نحو الاجمال وقوع القتال والمحاربة كثيرا بين الانبياء وخيرتهم و بين الكفار، الا انه لا دلالة فيها على الغالب والمغلوب قال تعالى :

وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا و ما استكانوا والله يحب الصابرين وماكان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفرلنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة (۱۴۸ـ آل‌عمران)

ولادلالة فى قوله: «فما ضعفوا وما استكانوا» اوقوله: «فآتاهم الله ثواب الدنيا» على غلبتهم فى القتال، اذالمراد الضعف فى الايمان والارادة، والاستكانة هى الجزع و التضرع، ولم يقع ذلك منهم وان غلبوا، وثواب الدنيا اعم من الغلبة فى القتال.

هذا كله فى حال الانبياء الماضين، واما نبينا الاعظم محمد بن عبدالله فهو قد غزى غزوات وقاتل مع الكفار مرات كثيرة، ومعه المؤمنون المجاهدون الباذلون انفسهم واموالهم فى سبيل الله، وكثيرا ماكانوا غـالبين ظافرين وان كان يتفق انهم يغلبون، فهو الرجل الالهى الفريد والنبى العظيم العزيز رزقه الله الغلبة فى الحجة والبرهان، والغلبة فى الجهاد والغزو، والغلبة بالحكومة وتولى الامر، دون الغلبة باهلاك عدوه، بخسف وصاعقة ونحو ذلك، وغزى على (ع) بعده على تأويل الكتاب كما غزى معه على تنزيله، فكان يغلب كما فى قتاله مع الناكثين والمارقين وكان يغلب كما فى قتاله مع القاسطين والحسن (ع) قد تهيأ للغزو، والحسين (ع) قد غزى وفيهما كانت الغلبة الظاهرية مع اعداء الله دون اوليائه، فتحصل ان غلبة حزب الله من الاولين والاخرين، تقع على معان وهى على بعضها دائمية، وعلى بعضها الاخر نادرة اوقليلة فيكون مفاد قوله تعالى:

وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ومايشابهها من الايات كقوله تعالى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا، (۱۴۱ـ النساء)

وقوله: ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون. (۱۷۱- الصافات)

وقوله: فأن حزب الله هم الغالبون (۵۶- المائدة)

وقوله: كتب‌الله لاغلبن انا ورسلى (٢١-المجادلة)

امابيان غلبتهم من حيث البرهان والظفر بالحجة والبيان، كما يقتضيها العموم الفردى والزمانى فى قوله: «فأن حزب‌الله !» وقوله: «وان جندنا الخ» وكذا قوله: «كتب‌الله» لوكان المراد الكتابة فى اللوح المحفوظ والاستقبال المفهوم من كلمة «لاغلبن» ملحوظ بالنسبة الى زمان الكتابة.

وامابيان غلبتهم الظاهرية فى‌القتال اوالحكومة فالكلام‌ح واقع‌موقع الوعد بوقوع ذلك فى‌الازمنةالاتية ولعلها ازمنةظهور الدولة الالهية، وظهور مهدى هذه الامة،فهو واتباعه وناصروه هم‌الغالبون على الكافرين، والظافرون على‌الباطل فى الارض كلها بجميع معانى الغلبة.

وقوله تعالى: واماالذين آمنوا وعملوا الصالحات‌اه هنا‌ابحاث: الاول، انه قدم‌معنى الايمان، وان‌الاظهر انه امرقلبى بمعنى الاعتقادالجازم بشىء، ولم‌يذكر فى‌الغالب متعلقه فى‌الكتاب الكريم الان المستفاد من مجموع الايات المربوطة بالمقصد، ان‌متعلقه امورسبعة .التوحيد، وصفات‌الله الجمالية والكمالية والملائكة والكتب السماوية، والرسل‌وخلفاءالرسل، واليوم‌الاخر، والايات‌هى‌الجامعة لتلك الامور اواكثرها ويتكفل البحث الاوفى لتعيين ذلك، علم‌الكلام.

وذكرالعمل الصالح بعدالايمان يشعر‌بان توفية الامورمن آثارتقارن الايمان بالعمل الصالح وقدتكرر هذا التعبيرفى‌موارد من‌القرآن كثيرة، والمتكفل‌للبحث عن مصاديق الاعمال الصالحة، هوعلم الفقه‌الباحث عن‌احوال اعمال العباد وماله الارتباط بهامن الامور الخارجية.

ويتوجه فى‌المقام‌سؤال وهوان‌الاية الشريفةمصرحة بان‌الكفر سبب‌لاستحقاق العذاب، كما ان‌الايمان والاتيان بالاعمال‌الصالحة سبب لاستحقاق الاجر، لكن‌الاية مبهمة من‌حيث متعلق‌الكفر والايمان، وكذا فى‌تعيين مصاديق الصالحات والحكم مترتب على الواقع، ومقتضى ذلك احالة تشخيصه على المكلف، وله فى ذلك طريقان، احديهما الادلة النقلية السمعية من‌الكتاب والسنة، والاخرى حكم العقل

البات وقضائه الجازم ، فمن تتبع الأدلة النقلية ، فوصل الى ما يجب الاذعان به من العقائد ومايلزم العمل به من الحسنات فآمن وعمل ، ترتب عليه توفية الأجور ، واما من لم تبلغ اليه احكام الدين وكان فى امكنة تقصر ايدى ساكنها عن ان تناول معارفها الدينية ، فهو قد خلى و عقله وترك وما حكم به لبه ، فان قدر على ادراك المعارف الاعتقادية واستقل بذلك عقله ، او استقل بحسن بعض الاعمال وقبحها ، فآمن بما احرز لزومه وعمل بما ادرك حسنه ، فأن اصاب الواقع بالنسبة الى جميع العقائد والاعمال الصالحة ، استحق الاجر والثواب لتمام الحجة عليه .

فان العقل رسول باطنى كما ان الرسول عقل خارجى ، لكن هذا فرض غير واقع ، والذى يكثر وقوعه فيمن لم يصل اليه الدين ، هو استقلال عقله فى بعض المعتقدات وشيء من الاعمال ، وح فهل يمكن القول بشمول الاية له واستحقاقه الاجر فيما اذا اعتقد بما علم وعمل بما ادرك، ومعذوريته فيما لم يصل اليه، بتقريب ان معنى الاية ان الايمان والعمل الصالح بأى مقدار كان، سبب الاجر بذلك القدر الظاهر عدمه، لظهور الايتين فى ان متعلق الايمان والكفر هو جميع مايجب الاذعان به فالمعنى ان الكافر بالجميع معذب و المؤمن بالجميع مأجور ولا نظر للاية الى صورة التبعيض .

نعم يمكن ان يقال بالنسبة الى الفرد المذكور ومن يضاهيه من اهل الملل والاديان المنسوخة من اهل الكتابين وغيرهم ، اذا كانوا قاصرين عن الوصول الى المعارف الحقة والدين الذى يجب عليهم التدين به، انهم بالنظر الى ما اخطأوا فيه من الاعتقادات الباطلة فى اصولهم والكبائر الصادرة منهم فى فروعهم، معذورون وبالنسبة الى ما اصابوا فيه من العقائد والاعمال مأجورون ، اما الدليل على الاول فقوله تعالى :

وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (۱۵- الاسراء)

لايكلف الله نفسا الاما آتاها . (۷- الطلاق)

ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة (٤٢- الانفال)

ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون (١٣١- الانعام)

وما اهلكنا من قرية الالها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين (٢٠٨- الشعراء)

وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا (٥٩- القصص)

ليس على الضعفاء ولاعلى المرضى ولاعلى الذين لايجدون ماينفقون حرج اذانصحوا لله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل (٩١- التوبة)

فالاول العاجز عن الوصول الى معالم الدين والثانى العاجز من حيث البدن والثالث من حيث المال، فلاحرج ولاتضييق فى امرهم فى دنياهم وآخرتهم.

واما مايدل على انهم مأجورون فيما اصابوافيه من العقائد والاعمال فقوله تعالى وان ليس للانسان الاماسعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى.

(٤٠ - النجم)

ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥- طه)

يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لايظلمون.

(١١١- النحل)

الا الذين صبروا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة واجر كريم

(١١ - هود)

واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى

(٤٠-النازعات)

ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦- الرحمن)

ان قلت : مقتضى هذا التقريب ، شمول غفران الله تعالى لجميع الكفار على تشتت فرقهم واحزابهم ، وعدم عذابهم فى الاخرة ، بل و دخولهم الجنة ، فانها المصداق الحقيقى للجزاء الاوفى وللاجر الكريم ، وهذا ينافى ماهو ضرورى عند المسلمين من عدم دخول الكفار الجنة ، و قد رتب فى الكتاب الكريم على

الكفار احكام كثيرة، منها حبط جميع اعمالهم وحسناتهم فى الدنيا والاخرة ، ومنها دخولهم النار فى الاخرى .

قلت ينبغى تعيين مورد البحث وتشخيص موضوعه حتى يظهر ورود الاشكال المذكور وعدمه ، فنقول ههنا طوائف من الناس

الاولى ، الجهلاء القاصرون بحيث لم يصلوا الى شيىء من العقائد الحقة ، ولم يدركوا شيئاً من الاعمال الصالحة كالاناسى الساكنين فى بعض نواحى البلاد الشيوعية ، والطبيعيين لم يسمعوا شيئاً من الدين ولم يتنبهوا لحكم من الاصول والفروع ، ثم ماتوا على تلك الحالة .

الثانية ، الذين ادركوا بعض العقائد الاصولية بطريق السمع او العقل ، و آمنوا بذلك و انقادوا له و عملوا ببعض الأعمال الصالحة كذلك ، و تركوا بعضا اخر من الاصول والفروع من غير تقصير فيما تركوه ، لغفلتهم عنه محضا اوقطعهم بالخلاف .

الثالثة الذين لم يعتقدوا بالاصول الحقة كلا او بعضا بان تنبهوا والتفتوا بها ، ثم اعرضوا ولم يؤمنوا مسامحة وتساهلا مع الشك فى كونها حقا .

الرابعة : الفرض السابق بعينه مع كون اعراضهم بعد الالتفات وقيام الحجة تكذيبا وعنادا .

الخامسة الذين عرفوا الحق من الأصول والفروع ، فآمنوا بما يجب الأذعان به وعملوا بما هو صالح من الاعمال ، و ح نقول لا اشكال فى حكم غير الثانية من تلك الطوائف .

اما الاولى فانهم غير معذبين فى الاخرة ، لعدم وصول التكاليف اليهم وعدم تمامية الحجة عليهم ، وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم مايتقون. وقد عرفت ان آيات رفع العقاب شاملة لهم ، كما ان الظاهر انهم غير مستحقين للجنة ، لعدم صدور الاعمال الصالحة منهم على الفرض ، فلا عمل لهم فلا اجرة ولا سعى لهم فى الخيرات فلا ثواب .

و اما الطائفة الثالثة ، فقد دلت الادلة السمعية على‌ان الجاهل الملتفت فى اصول الدين مقصرغير معذور اذا لم‌يفحص عن الحق ففات عنه‌الواجب‌الاصولى لعدم فحصه وبحثه ، فان باب العلم فى‌اصول الدين مفتوح ، و من اراد الوصول اليهاوسعى لهاسعيها فهومدرك لطلبته وظافرعلى‌منيته فالتارك كافر يترتب‌عليه‌جميع مايترتب على‌القسم الرابع مماسنذكره

قال تعالى : ان الذين‌توفاهم‌الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم‌قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا الم‌تكن‌ارض‌الله واسعة فتهاجروافيهافاولئك مأواهم جهنم وسائت مصيرا (٩٨-النساء)

وقوله«فيم كنتم» اى‌فى‌اى‌امر كنتم من‌اصول‌دينكم‌وفروعها و« كنامستضعفين» اى‌عاجزين عن اخذ معالم الدين‌قاصرين عن‌الوصول اليها ، وتوبيخ الملائكة‌لهم دال على‌قدرتهم على الهجرة و تعلم الدين ،كما يشهد به‌ايضا الاستثناء الواردفى الاية التالية

واما الطائفة الرابعة، فهم‌الكفار حقيقة ، وتنطبق عليهم‌جميع الايات‌الواردة فى حق الكفار الدالة على حبط اعمالهم وعذابهم‌فى‌الدنيا والاخرة وسوء حالهم فى القيامة ودخولهم النار .

واماالطائفة الخامسة فهم‌المؤمنون حقاوعليهم تنطبق‌الايات الواردة فى حق المؤمنين والوعود الالهية المذكورة فى‌الكتاب الكريم.

فالكلام فى المقام فى حال الطائفة الثانية فقد يقال انهم لما لم يتحقق منهم الايمان ولو ببعض مايجب الاذعان به ، فهم كفار ، ولاجل انهم مرتكبون لبعض الكبائر فهم فساق ، فلامانع من شمول الايات الناظرة لحال‌الكفار والفساق لهم ، فكيف يوجر الكافرالفاسق بثواب الاخرة وكيف يدخل الجنة من‌هذا شأنه فلاحظ قوله تعالى :

وبشر الذين كفروا بعذاب‌اليم (٣- التوبة) .

فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم (۳۷- مريم)

والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم (۴- يونس)

والذين كفروا لهم نار جهنم (۳۶ ـ فاطر)

ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم (۶ ـ البينة)

ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط (۴۰ ـ الاعراف)

بل هناك آيات تدل على حبط ماعمل هؤلاء الطائفة من الخيرات والصالحات كقوله تعالى :

اولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة (۲۲ ـ آل‌عمران)

لكن الظاهر عدم شمول تلك الايات و نظائرها لهولاء الطائفة ، فان الكفر فى اللغة الستر والكافر الساتر ولذا يقال ليل كافر و بحر كافر ، لانها تستر ما تشمله وتحيط به ويقال للزارع كافر لستره البذر تحت الارض

والظاهر ان اطلاقه على الكافر ايضا بلحاظ انه يستر ما يجب عليه الاعتقاد به والعمل له ، فهو لايصدق الا على الملتفت الى الشيىء المعرض عنه تجاهلا او عنادا، فكانه قدستر الحق فلم يعلنه، وقد كثر استعماله بمعنى المنكر الجاحد فى الكتاب الكريم، وهذا ايضا لايصدق على من لم يتوجه الى الشيىء ولم يعلمه .

وحاصل الكلام انا نجيب عن تلك الايات بأن الطائفة الثانية خارجة عنها موضوعا، فلايصدق عليهم عنوان الكافرين لعدم صدق انهم ستروا ماكان يجب عليهم اظهاره اوجحدوه وانكروه ، بل ينطبق عليهم عنوان الجاهلين و المستضعفين وغير المستطيعين ونحو ذلك.

وثانيا بأنه لو فرضنا كونهم كافرين لغة ، او فرضنا ان هنا اصطلاحاً خاصا شرعيا او متشرعيا لكلمة الكافر وهو من لم يعتقد بمايجب الاعتقاد به ، سواء اكان لعدم التفاته اصلا او لجحده بعد علمه ، فتشمل تلك الطائفة بلحاظ معناها اللغوى اوالشرعى لقطعنا بعدم شمول حكم الكفار لهم من حبط الاعمال والعقوبات الاخروية،

كما لايشملهم عدة من احكام‌الكفار المترتبة عليهم فى الدنيا، وذلك اما لانصراف الايات الحاكية عن حال الكفار فى الدنيا والاخرة عنهم، اولتخصيص تلك‌الايات بما دل على‌انهم معذورون غيرمعاقبين كالايات السابقة، وبالجملة فهؤلاء خارجون عن شمول آيات الكفار تخصصا او تخصيصا.

وان شئت ان يتضح لك صدق هذه الدعوى ، فلاحظ الايات التى وردت فى الكفار و اثبتت لهم احكاما ، منها حبط اعمالهم و شمول العذاب فى الاخرة لهم قال تعالى :

ان‌الذين يكفرون بآيات‌الله ويقتلون النبيين بغيرحق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم اولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة ومالهم من‌ناصرين . (٢٢-آل‌عمران)

فالبشارة‌بالعذاب وحبط‌الاعمال فى‌الدارين حكم مترتب على منكرى‌الايات وقاتلى الانبياء والامرين بالقسط ، وليست الطائفة المبحوث عنهاكذلك .

البحث الثانى

الظاهر ان المراد بالصالحات اعم من الافعال والتروك ، ففعل الواجب والمندوب وترك الحرام والمكروه من الصالحات جميعا ، فمن فعل شيئاً من المحرمات او المكروهات فهو لم يعمل بعض الصالحات .

ثم ان ظاهر الاية ان الاجور مسببة عن الايمان والعمل كليهما ، و ح فهل هى لهما بالاشتراك ولكل واحد منهما تأثير فى شيىء منها بالاستقلال ، او انها من آثارالايمان والعمل شرط فيه ، اوانها من آثار العمل والايمان شرط او انها لهما مع اشتراط الايمان فى تأثير العمل دون العكس ، وجوه ، احسنها الاخير .

ان قلت. اذا تحقق الايمان لاحد وآمن بمايجب الاذعان به ولم يتحقق‌منه العمل بالصالحات فكيف يكون حاله، وهل هو من اهل الجنة او من اهل النار؟

قلت عدم تحقق الصالحات من احد قد يكون بترك بعضها كمن ارتكب الصغائر او شيئا من الكبائر فى بعض الاحيان ، وهذا هو الذى وعدالله له المغفرة وان لم تحصل منه التوبة قال تعالى :

ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفرعنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما (۳۱ ـ النساء) اى نكفر سيئاتكم الصغائر .

وقال : ولله مافى السموات ومافى الارض ليجزى الذين اسائوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة. (۳۲ ـ النجم) الذين يجتنبون بدل من الذين احسنوا، واللمم العصيان الحادث حينا بعد حين ، لاعلى نحو التعاقب والدوام من الم الشىء اذا نزل ووقع .

وقديكون بترك الجميع فان فرض امكان ذلك ووجود مصداق لهذا العنوان مع بقاء الايمان فى قلبه، اوقلنا بان الاعمال التى تراها صالحة فهى من اغلب الناس باطلة، لعدم اجتماع شرائط الصحة فيها فضلا عن القبول، فالمصداق كثير، فالظاهر انه ليس بكافر ولايكون مخلدا فى النار ، وان كان قد يترای من ظواهر عدة من الايات بل اكثرها عدم ترتب اثر على ذلك النحو من الايمان ، لترتب وعود الله تعالى من المغفرة والجنة والرضوان ونعم الاخرة جميعا فى آيات كتابه فى اكثر من ۵۵ موضعا على الايمان والاعمال الصالحة كليهما، الا ان تلك الايات مسوقة لبيان مصاديق الوعد الاوفى والنعم العليا الاخروية وانها اعدت للمؤمنين العاملين ولا اشكال فى ان العمل هو الركن الاعظم والملاك الاقوم فى نتاج قواعد الدين وحصول عوائده وانتفاع المجتمع بفوائده فى الدنيا وترتب الاثار الموعودة له فى الاخرة، وان الغرض الاسمى من تشريع الشرائع والدين، انمايترتب عليها اذا ترتبت على العقائد الباطنية آثارها الخارجية وجرت ينابيع الحكمة العلمية عن عيونها النظرية على الجوارح والاعضاء ، وفيما بين المجامع .

و انما الكلام فى انه اذا اتفق انه لم يعمل واحد على طبق ما اعتقده و اذعن به مع بقاء العقائد فى مكنون ضميره ، فهل يصدق عليه انه مؤمن ، و هل يكون لهذا النحومن الايمان اثردنيوى اواخروى ، اوهو كافر يترتب عليه آثارالكفر ؟فالذى ينبغى القول به هنا ان مقتضىوجود ايمانه الذى هوايضا عمل من اعماله بل اتم اعماله واحسنها ، استحقاقه الاجرعليه كما ان مقتضى تركه الصالحات استحقاقه العقاب عليه ، فحاله حال نفس عملت صالحا وآخرسيئا ،اما استحقاقه الاجر على ايمانه فلما سمعت آنفا من قوله تعالى:

وان سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الا وفى (٤٠- النجم)

وقوله تعالى : ولتجزى كل نفس بما تسعى . (١٩ - طه)

وقوله تعالى : لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت

وقوله تعالى : والذين آمنوا بالله و رسله ولم يفرقوا بين احد من رسله اولئك سوف يؤتيهم اجورهم (١٥٢- النساء)

اذا المراد بالاجوراجورايمانهم .

و قوله تعالى : سابقوا الى مغفرة من ربكم و جنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا باللهورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .(٢١-الحديد)

وقوله تعالى:ان اللهلايضيع اجرمن احسن عملا (٣٠-الكهف) واما استحقاقه لسيئاته فلادلة تلك المعاصى .

مع انه يمكن ان يقال انه اذا عاقبه الله تعالى بازاء معاصيه ، فلابدمن انتهاء مدتها بعد برهة من الزمان وان طالت ، اذالعقوبة المضروبة على المخالفة العملية محدودة محصورة ، ولازمذلك عدم خلوده فى الناروخروجه منها، ولازم استحقاقه الاجرعلى الايمان دخوله الجنة، فان الظاهرانه لايقدم فى الاخرة ثواب الحسنات على جزاء السيئات .

ان قلت :كيف تدعى عدم خلود اهل الكبائر فى النار ، مع ان هنا آيات

تدل على الخلود فيما اذا كثرت الخطايا و الذنوب و احاطت بالانسان خطيئته ، وهذا هو تارك الصالحات بل فى بعض الايات ما يدل على الخلود بالنسبة الى بعض المعاصى ايضا فضلاعن كثرتها وانغمار الشخص فيها قال تعالى:

بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (۸۱ ـ البقرة) .

وقال تعالى :والذين كسبوا السيئآت جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كانما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (۲۷ـ يونس) قوله: «جزاء سيئة بمثلها» اى تجازى كل سيئة بما يناسبها من العذاب ويلائم حالها فى الشدة والضعف يوم القيامة ، والرهق القرب واللحوق ، واغشيت اى كأنها سترت بالليل المظلم فصارت اسود .

وقال تعالى: فى الربا فمن جائه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وامره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (۲۷۵ـ البقرة)

وقال تعالى : فى قتل المؤمن: ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزائه جهنم خالدا فيها . (۹۳ـ النساء) .

قلت. اما الايتان الاولتان فالظاهر ان المراد بهما صورة غلبة السيئات بحيث ازالت الايمان عن القلب ، وحصل فيه الشك او الانكار ، كما قال تعالى ثم كان عاقبة الذين اسائوا السوآى ان كذبوا بآيات الله (۱۰- الروم) وهذا امر يكثر وقوعه بالطبع ومقتضى العادة .

ويمكن كون المراد بالسيئة فى الموردين اعم من السيئة القلبية ، اى الكفر و السيئة العملية ، واما آية الربا فالظاهر ان قوله تعالى: «ومن عاد» اى عاد الى انكار حكم الربا والنقض عليه بحلية البيع، ودعوى عدم الفرق بينهما بقرينة ماقبلها ، وهو قوله: «ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا» ولااشكال فى ان انكار حكم الربا سبب الكفر ، لكونه من ضروريات الدين كوجوب الصلوة وحرمة

الخمر، واما آية قتل المؤمن فقد حمله الاصحاب على صورة الا ستحلال فيكون كافرا .

ويحتمل في جميع الايات ان يكون اطلاق الخلود لبيان طول مدة المكث في النار، فالاطلاق مجازى بنحو التشبيه وغيره، وان ابيت الا عن ظهور هذه الايات و امثالها في الخلود في المعاصى الجوارحية، فهي تساوى الكفر والشرك من المعاصى الجوانحية ، فنقول لامانع عن القول بكون كثرة المعاصى واحاطتها بالانسان وكذا الربا والقتل بالخصوص ،امورا تقتضى بنفسها خلود صاحبها في النار بحيث لاينافي عروض مانع منه من شمول الشفاعة له في الاخرى ونحوها من المكفرات، وح فتشمله الشفاعة ولو بعد طول المكث في النار ،كما في بعض الاخبار، فالخلود فيها خلود اقتضائى، واما الكفر والشرك وسائر مصاديق الاخلال بالايمان، فهي تقتضى الخلود اقتضاء باتا محتوما ، ولايقبل التخلف ولاتنفع في مورده الشفاعة ،كما قال تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فالخلود فيها خلود حتمى فتحصل من جميع ماذكرنا ان من صحت عقائده القلبية وايمانه وبقيت الى ما بعد موته لايكون مخلدا في النار وان لم يكن له عمل صالح .

ان قلت ان ماذكرت حكم من آمن بما يجب الايمان به ولم يعمل صالحا،فما هو حكم من كان على عكس ذلك بان لم يتحقق منه الايمان و صدرت منه الاعمال الصالحة ،كما يتفق كثيرا في اهل الملل الفاسدة والاديان الباطلة .

قلت اما من حيث عدم ايمانهم فان كان ذلك لعدم تمكنهم من تحصيل الايمان وقصورهم عنه فلا اشكال في عدم عقوبتهم عليه كما عرفت، واما استحقاقهم الاجر لما صلح من اعمالهم فهو ايضا غير بعيد ، لاطلاق ما تقدم من العمومات كقوله تعالى : وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى .

وقوله: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

وقوله: ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون(٤٤- الروم)

وقوله: من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها (۴۶- فصلت) واما كون الاجر وهو دخولهم الجنة، فهو بعيد وقد مضى شطر من الكلام فى ذلك.

وان كان عدم الايمان لاجل تقصيرهم فى تحصيله او انكارهم الحق بعد تمام الحجة عليهم عنادا او عصبية، فان فرض كون العمل الصالح الصادر منهم هو الصالح شرعا كعبادتهم على وفق عقائدهم وخضوعهم للاصنام والاوثان وتقريب القرابين لها وللكواكب، او خضوعهم للملائكة وعيسى مع اعتقاد مقام لهم لم يمضه الله او انفاقاتهم فى طريق التقرب الى غير الله، او الى الله تعالى بنحو لم يرض به الله ونحو ذلك.

فهذا ليس فى الحقيقة عملا صالحاً بل هو من جملة معاصيهم الكبيرة والفحشاء الصادرة منهم، وان فرض كونه الصالح عقلا ومما يستقل العقل بحسنه وصلاحه، كانقاذهم الغرقى واطفائهم الحرقى، والاحسان الى الفقراء والضعفاء، مع كونهم ممن يحب الله الاحسان اليهم خاصة اذا وقعت تلك الامور، فمن يعتقد بالله تعالى خالصا لوجهه وكان كفره لانكاره غير التوحيد مما يجب الاذعان به، ولعل هذا القسم من الصالحات كثير الوقوع من الكفار على اختلاف مللهم وتشتت مذاهبهم ومآربهم ولاجل ذلك قد يدعى استحقاقهم الجنة لاجل ما عملوا من الصالحات، ولاسيما اذا كان العمل عظيما جليلا بين الصلاح عام المنفعة، كعمل المخترعين اذا اخترعوا شيئاً ينتفع به الملائين من الناس.

لكن ذلك باطل بل تدل الآيات على ان من كان كافرا لا يستحق شيئا من الاجر وان صدر منه عمل صالح حال كفره، او حال ايمانه قبل ان يكفر، و يكون كفره حابطا لعمله مزيلا له مبطلا لاثاره فى الدنيا والاخرة، وبعبارة اخرى انا ندعى اشتراط الايمان فى استحقاق العامل الاجر على عمله الصالح، و مانعية الكفر من تأثير العمل ورافعيته لاثاره لو صدر صحيحاً، ويدل على اشتراط الايمان آيات.

منها قوله تعالى: ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلايخاف ظلماً ولا هضما. (۱۱۲ طه)

ومنها قوله تعالى : فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه.

(٩٤- الانبياء)

ومنها قوله: من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة

(٩٧- النحل)

ومنها قوله : ومن عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة

(٤٠- الغافر).

هذا مضافا الى ما عرفت من ظهور مقارنة الايمان بالعمل الصالح فى آيات كثيرة، فى ان الاثار انما تترتب على الاعمال المقرونة بالايمان.

وتدل على مانعية الكفر من تأثير الاعمال رافعيته لاثارها الايات التالية:

و من يكفر بالايمان فقد حبط عمله و هو فى الاخرة من الخاسرين .

(٥ ـ المائدة)

والمراد بالايمان هو مايجب الايمان به والاذعان بكونه من عندالله، كالامور الخمسة او السبعة التى سمعت، فالكفر بجميعها او ببعضها سبب لبطلان الاعمال .

والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة حبطت اعمالهم هل يجزون الاما كانوا يعملون

(١٤٧- الاعراف)

اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا.

(١٩-الاحزاب)

ان الذين يكفرون بآيات الله و يقتلون النبيين بغير الحق و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم اولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة ومالهم من ناصرين

(٢٢-آل عمران)

ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة واولئك اصحاب النارهم فيها خالدون

(٢١٧-البقرة)

فتحصل مما ذكرنا ان الكفار الذين صدر منهم بعض الاعمال الصالحة

والحسنات الشرعية والعقلية، لايبقى لهم عمل حتى يستحقوا به الجنة مع اقتضاء كفرهم دخولهم فى النار، ويشملهم جميع الايات التى ذكر فيها الكافر ورتب عليهم احكام دنيوية واخروية .

البحث الثالث

ان اطلاق الاجر فى قوله تعالى : «فيوفيهم اجورهم» على ما يبذل لهم بازاء اعمالهم يشعر بأنهم يستحقون الاجر من الله تعالى على اعمالهم، مع انه لا اشكال فى عدم استحقاق العبد شيئا من ربه استحقاقا اوليا، فانه انما يكون فيما اذا رجعت منافع العمل لباذل الاجرة، وليس الامر فى اعمالنا كذلك ، فان مصالح الحسنات ترجع الى فاعلها، كما ان مفاسد السيئات ترجع الى عاملها، فكل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

وهذا كما فى اوامر الطبيب ونواهيه فلا يستحق المريض اجراً من الطبيب لامتثال ما امره ولاعقابا لمخالفته، وعلى هذا فمنع الاجور عنهم وحرمانهم عنها لا يكون خلاف العدل من الله ولاظلما يحسب . مع انه اطلق عليه الظلم بقوله والله لا يحب الظالمين هذا ، و لكن لابأس باطلاق الاجرة على المبذول من عندالله بعد ماوعدالله اعطائه ولو كان الوعد تفضلا منه تعالى وامتنانا، فصار العبد بعدالميعاد مستحقاً للاجر والثواب ، واطلق الاجر له لذلك ، فلاحظ وعده تعالى فى الايات التالية :

و عدالله الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و اجر عظيم .
(۹ ـ المائدة)

وعدالله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار (۷۲-التوبة)

جنات عدن التى وعدالرحمن عباده بالغيب (۶۱ مريم)

ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم (۸ غافر)

بل يدل قوله تعالى : ان‌الله اشترى من المؤمنين انفسهم و اموالهم بأن لهم الجنة، على وقوع معاهدة بين‌الله‌وبين‌عباده الصالحين على‌صورة المبايعة ، فاذاسلم البايع سلعته‌وتسلمه‌المشترى، وجب عليه نقد الثمن‌فى‌زمان الوعدومكانه‌بلاتخلف، والله تعالى لايخلف الميعاد، فالعامل مستحق للثواب والاجر و يكون منعه خلاف العدل، ولذلك قال تعالى بعدقوله : «فيوفيهم اجورهم» والله لايحب‌الظالمين . اى فكيف يكون منهم .

قوله : **ذلك نتلوه عليك من الايات والذكر الحكيم** ٥٨-آل‌عمران

ذلك اشارة الى ما مضى من حالات الانبياء وقصصهم

١ ـ اى اصطفاء آدم‌ونوح وآل ابراهيم وآل‌عمران

٢ ـ وقصة امرأة عمران ونذرها وحملها مريم ،

٣ ـ ودعاء زكريا ربه وبشارته بيحيى

٤ـ وبشارة الملائكة مريم بعيسى واوصافه وحالاته ومعجزاته

٥ ـ واحساس عيسى من‌قومه الكفر ودعوته الحواريين الى نصرته

٦ـ ومكر الناس له‌وتوفى الرب له ورفعه اليه.

وكلمة ذلك مبتدأ خبره نتلوه عليك ، ومن الايات حال من ضمير النصب وكونها آية لاجل عدم اطلاع احد عليها فى‌ذلك العصر ، فيكون اخبار النبى‌بها آية لنبوته ، كما انها آية لعلم‌الله وقدرته ، او انها من آيات القرآن فعطف‌الذكر عليه تفسيرى ، واطلاق الذكر على القرآن لاجل انه مذكر لماينبغى ان يتذكر به الانسان من‌المعارف الدينية‌الاصولية والفروعية ،وغيرها من‌النذر والامثال‌والحكم والايات ، وكونه حكيما اى‌محكما لايتطرق اليه الخلل من اية‌ناحية من نواحيها من اللفظ والمعنى والاحكام والقوانين وغيرها ، كما قال تعالى : لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد ، او المراد انه‌حكيم صاحبه‌ومنزله فان‌الله هوالحكيم .

قال تعالى : **ان‌مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين ـ فمن حاجك فيه من بعد مـا جائك من العلم : فقل تعالوا ندع ابنائنا و ابنائكم و نسائنا ونسائكم وانفسناوانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنةالله على الكاذبين .**

(۵۹-۶۰-۶۱-آل‌عمران)

قدذكرنا فى رسالتنا : «التكامل» مافى تفسير الاية الاولى فلانعيدها

التفسير

المراد بالحق، كل قضية صادقة ومعنى حق ثابت ، سواء اكان من المطالب الدينية، امالعقلية، امالعقلائية، ام القضايا المتخذة من الحسيات الخارجية. فكل حق ينتهى اليه تعالى وهوالمنشأله والمبدء لصدوره، امابتعليمه للانسان بواسطةالانبياء. اوبالهامه للعقول والقلوب اوبادراك القوى الباطنة من العالم المحسوس .

فقولك : الله واحد وعيسى ليس بأله اوليس بابن الله او ليس بجزء من‌الله اوانه انسان مخلوق بأمرالله، اوانه رسول من‌عندالله وما اشبه ذلك ،كله حق وكله من‌الله، وكذاقولك ان‌الضدين لايجتمعان، والمتناقضين‌لايرتفعان، وقولك‌الاحسان حسن والظلم قبيح ، وقولك النار حارة والماء رطب بارد بالطبع ، والمثلث له زوايا ثلاث، ويعرف من ذلك بالمقابلة ان‌كل ماهو باطل فهوليس من الله ، بل‌هو ناش‌اما من ناحية الشيطان اومن ناحية جهل‌الانسان .

ثم ان‌الكلام‌وان كان كليا عاما‌الاان‌الغرض‌من‌سوقه‌تبيان مسئلة التوحيد،ونفى مازعموه من‌الربوبية لعيسى كماعرفت من‌الامثلة، فاشراق نورالتوحيدفى‌القلب‌انما هومن‌ناحيةالله وايحائه، سواء اكان ذلك‌بالمعجزات الصادرة من‌الانبياء،اوبالادلة العقلية الانية، اوبالمكاشفة المعنوية التى تكون هى دليلا على‌المخلوق بدلالة لمية .

والدليل الانى‌هوحصول‌العلم‌بالعلةمن طريق‌المعلول ،كالعلم بوجودالبارى تعالى وبعض صفاته من مشاهدة مصنوعاته .

والدليل اللمي حصول العلم بالمعلول من ناحية العلة ، والطريق الذى جرى عليه الكتاب الكريم بل واخبار اهل البيت (ع) فى توجيه العقول الى الله تعالى، هو النحو الاول ولم ارفيها مايدل على الثانى، الا ماقيل فى قوله تعالى: اولم يكف بربك، انه على كل شيء شهيد. فالله تعالى هو الشاهد المظهر للاشياء لانها مظهرة له تعالى وبعض الادعية الواردة ، فعن مولانا الحسين (ع) فى دعاء يوم عرفة .

(كيف يستدل عليك بماهو فى وجوده مفتقر اليك، ايكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الاثار هى التى توصل اليك) .

ولعل من هذا القبيل قوله تعالى ايضا فى ذلك الدعاء : (اشرقت الانوار فى قلوب اوليائك حتى عرفوك ووحدوك) .

وهذا المرمى لايحصل الا للاوحدى من الناس، بل والخاصة منهم الذى انتخبه الله بالقرب والولاية، ولذلك سمى دليل الصديقين والطريق المسلوك به للعامة هو النحو الاول كما قال تعالى :

(١) ان فى خلق السموات (٢) و الارض (٣) واختلاف الليل والنهار (٤) والفلك التى تجرى فى البحر بماينفع الناس (٥) وماانزل الله من السماء من ماء (٦) فأحيا به الارض بعد موتها (٧) وبث فيهما من كل دابة (٨) وتصريف الرياح (٩) والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون . (١٦٤ - بقرة)

وقال سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق

(٥٣ - فصلت)

وكان هذا الطريق هو الذى يسلكه الانبياء فى مقام دعوتهم كما قال تعالى:

قالت لهم رسلهم افى الله شك فاطر السموات والارض (١٠ - ابراهيم)

فالرسل عليهم السلام كانوا ينفون الريب والشك عن الله بشهادة خلقه السموات والارض ، وان المتأمل فيهما لايرتاب فى وجود الصانع الحكيم .

ويتلوا هذا الطريق فى اثبات الصانع تعالى الاهتداء اليه بالمعجزات الصادرة من الانبياء والائمة (ع)، فأنها ايضا مما لامعدل عنها فى هذا الباب، ولكنها تختص بمن اطلع عليها بالمشاهدة او بالنقل المتواتر .

وقوله تعالى: فلا تكن من الممترين، اى من الشاكين فى التوحيد وفى عدم ربوبية عيسى، فان الريب والمرية فى هذا المضمار لامجال له لوضوح البينة.

وقوله تعالى: فمن حاجك فيه الاية، الضمير المجرور للحق اولعيسى، والاول أحسن، اى فمن ناظرك فى كون عيسى مخلوقا لله مربوبا له ، وعدم كونه ربا والها فادعهم الى المباهلة .

وقوله من العلم ، اى الحاصل من اخبار الله تعالى بقوله : خلقه من تراب الاية ، وفى الكلام اشارة الى ان المباهلة لاتكون الا بعد اليقين دون الظن والوهم والخطاب فى قوله(تعالوا) لرؤسائهم ورجالهم، والضمير فى قوله (ندع) عام للنبى والنصارى، والمراد دعوة كل طائفة من طرفى المباهلة اهليهم،والمعنى ندعوانحن ابنائنا ونسائنا وانفسنا ، وتدعون انتم ابنائكم ونسائكم وانفسكم .

والابتهال افتعال من البهل اى اللعن والترك ، فالابتهال طلب اللعن ، وكثر استعماله فى الدعاء وطلب الحاجة من الله بألحاح والمراد به فى المقام ، اما طلب كل طائفة اللعن لصاحبتها ، او طلب الطائفتين معا اللعن للكاذبة عندالله .

فعلى الاول تكون نتيجة لعن المحق للمبطل ، ولعن المبطل للمحق ثبوت لعنة الله الكاذبين المبطلين .

و على الثانى يكون ذلك مفاد كلا اللعنين ، و على اى تقدير ففى الكلام ايماء بتأثير الملاعنة فى شمول الطرد والغضب للمبطلين .

ثم ان فى الاية الشريفة ابحاث :

الاول: ان الدعوة الى المباهلة وقعت فى قبال طوائف النصارى المدعين مقام الربوبية لعيسى باحدى الصور الثلاث، وهى دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت اعنى

كون عيسى هو الله كما يدعيه اغلب النصارى، او كون عيسى ابن الله كما هو مذهب ، او كون الله تعالى ثالث ثلاثة احدها عيسى (ع) كما هو مذهب .

وقد روت الخاصة والعامة ان عدة من رؤسائهم والوفد الوارد منهم على النبى الاعظم لتحقيق الحال عن نبوته وكتابه (ع) لم يقبلوا المباهلة ، بل اذعنوا بقلوبهم واقروا فيما بينهم بنبوته وتركوا المباهلة وصالحوا على البقاء على دينهم، على ان يدفعوا جعلا معينا فى كل سنة للحكومة الاسلامية، وبالجملة كانت الدعوة الى المباهلة وعدم قبولهم ، دليلا على عدم ربوبية عيسى وشاهدا على صحة نبوة نبينا وحقية دعوته ، وقد ظهر الامر عندئذ وشاع، وكان ذلك ظفرا معنويا للاسلام على النصرانية .

ثم ان الظاهر ان المباهلة لاتكون الا بعد يأس طرفى الخصام عن اثبات المدعى وقبول الاخر، وقد حكى الله تعالى من حال عيسى وتولده واقراره بالعبودية، ماهو كالدليل التام لاثبات المرام، ويظهر من عدم نقل الجواب عنهم وتعقيب ذلك بالامر بالمباهلة ، انهم اصروا على مااعتقدوا به حتى انجر الامر الى قطع النزاع بالمباهلة والملاعنة .

ثم انه يظهر من الاية الشريفة تشريع المباهلة فى كل مخاصمة لم تنجع البراهين الناهضة من قبل المتخاصمين فى فصل الخصومة ، فحصل اليأس من تأثيرها ، الا ان الظاهر اختصاص موردها بالاصول الاعتقادية. ويظهر من الروايات الواردة فى ذيل الاية الشريفة ، ان لها تاثيرا سريعا فى ظهور الحق وهلاك المبطل من الطرفين ودماره ، ولعلها كانت من الاحكام الثابتة فى التوراة والانجيل الاصليين وان لم تكن موجودة فيهما بالفعل .

ويشهد له ماورد فى تفسير العياشى عن ابيجعفر (ع) انه قال بعد ذكر قصة وفد نجران : (فلما رآه الحبران قال احدهما لصاحبه والله لئن كان نبيا لنهلكن).

وعن تفسير الثعلبى عن النبى (ص) انه قال : (والذى نفسى بيده ان الهلاك

قد تدلى على اهـل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستاصل الله نجران واهله حتى رؤوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا) .

وهذه غير الملاعنة المذكورة فى الفقه التى شرعت لفصل الامر بين المرء وزوجه ، فيما اذا قذف الرجل زوجه بالزنا وليس له شاهد الانفسه ، والحكم فيه انه يشهد الرجل اربع شهادات بزنا زوجه ثم يلعن نفسه على فرض كذبه فيدرء ح حد القذف عنه، فاذا شهدت المرأة ايضا اربع شهادات على كذب الزوج ، ثم طلبت غضب الله لنفسها ان كان من الصادقين ، درء الحد عنها ايضا، ثم انقطعت عصمة الزواج بينها وحرمت عليه ابدا ، ويسمى هذا العمل بالملاعنة .

قال تعالى: والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين . والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان مـن الكاذبين ويدرء عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انـه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين (۸ ــ ۹) فالملاعنة حكم ثابت فى الاحكام الفرعية ، والمباهلة حكم جار فى الاصول الاعتقادية وتفترقان ايضا فى الشرائط والنتائج .

البحث الثانى استدل علماء الشيعة (رض) بهذه الاية على خلافة على (ع) وولايته على الامة جميعا بولاية تشريعية ، وهى كونه منصوبا من قبل الله وليا عليهم واولى بالتصرف فى انفسهم واموالهم ، بتقريب انـه قد اجمع المفسرون سنيهم وشيعيهم على ان الذين جاء بهم النبى (ص) الى المباهلة امتثالا لما امره الله فى هذه الاية ، هم على (ع) وفاطمة الطاهرة والحسن والحسين (ع)، فيعلم من ذلك ان الحسنين ابنا رسول الله ، وان عليا نفسه ، والمراد بكون على (ع) نفسه انه مثله ومساوله ، فالآية تدل على مماثلته (ع) لنفس النبى (ص) فكلما قد علم من الخارج عدم ثبوته لعلى من اوصاف النبى كنبوته وافضليته عمن سواه كان خارجا عن مفاد

ويبقى الباقى حتى افضلية النبى على جميع الانبياء فضلا عن اصحاب النبى (ص).

هذا وبعد انضمام مقدمتين الى ذلك يثبت المطلوب . اولاهما وجوب نصب الخليفة على النبى (ص) ، وثانيهما اشتراط كون المنصوب افضل اهل زمانه.

اما الاول فالظاهر انه ممالاينبغى ان يرتاب فيه ذومسكة كيف؟ وكان من عادته (ص) انه لايخرج من المدينة الاويعين فيها خليفة لنفسه، ولايهيأ جيشا وجندا الاويعين لهم اميرا ولم يتفق انه اوكل الامر اليهم فى انتخاب الامير اوالخليفة ، وقد ثبت ذلك بالروايات المتظافرة ، بل قدعين (ص) فى غزوه مؤتة امراء ثلاثة على سبيل الترتيب، ومع هذا الحال فكيف ارتحل من الدنيا ولم يعين خليفة فترك الناس ومافعلوا وخلاهم وما اختاروا ، مع ان الانسان بطبعه ذواهواء وميول ولايذعن بهذا الامن حسب النبى (ص) (ونعوذبالله) انسانا غافلا عن حال الاجتماع غير ملتفت باوضاع امته وزمانه مع انه كان اعقل من خلقه الله وافضل من برئه ، مع ان فى المقام روايات كثيرة متظافرة عن اهل البيت عليهم السلام لايبقى لاحد مع ملاحظتها شبهة فى ظهور الحق .

واما الثانية. فهوامر بين لدى العقول السليمة ظاهر من مذاق الشرع فى موارد كثيرة، كما فى تقديم الرجال على النساء فى جميع الشؤن الاجتماعية، وتقديم الافضل فى ائمة الجماعة ، بل هذا امر عقلى وعقلائى ، والعجب من ابن ابى الحديد شارح نهج البلاغة حيث قال فى خطبة الكتاب (الحمدلله الذى قدم المفضول على الافضل لمصلحة اقتضاها التكليف واختص الافضل من جلائل المأثر ونفائس المفاخر بما يعظم عن التشبيه ويجل عن التكليف ولاندرى من هو المقدم أهو الله تعالى او النبى الاعظم وعلى اى تقدير فقد نسب اليه مالايناسب مقام العلم والكمال والقداسة

وان خالجك شىء من دلالة الآية . فعليك بقوله تعالى فى سورة المائدة (ياايها الرسول بلغ ماانزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لايهدى القوم الكافرين (٦٧) .

فانك ان لاحظتها ترى انها واقعة موقعها الخاص فيما بين آيات مدنية باحثة عن

احوال اليهود والنصارى، فسابقتها آيات تحكى حال الطائفتين وانهم لو آمنوا بالله ورسوله غفرالله لهم وكفر عنهم ذنوبهم وادخلهم الجنة، وانهم لو عملوا بمافى كتبهم لكانوا فى بلهنية العيش ورفاه الحال فى دنياهم .وان لم يؤمنوا ،بمحمد(ص) ولاحقتها تحكى عن انهم لو لم يقيموا كتبهم ولم يؤمنوا بماانزل اليهم لماكانوا على امر نافع وحياة سعيدة فالآيات السابقة واللاحقة كلها مدنية وهذه الآية مكية اونازلة فى الطريق بقرب جحفة فى غدير خم، فيظهر من السياق انهانازلة لامر خاص فيه كمال الاهمية بحيث لو لم يبلغه النبى (ص) فكأنمالم يبلغ شيئا ممارسله الله اليه، بل وفيه شدة وخوف بحيث كان النبى الاعظم يخاف من اظهاره و ابلاغه حيث وعدالله تعالى انه يعصمه من الناس .

ولااشكال فى ان هذاالامر ليس حكما فرعيا من فروع الاحكام، فان ابلاغ ذلك لم يكن موردا للخوف مع انه -ص- قد بلغ اكثرها ولم يبق الاشىء يسير كما يظهر من باقى آيات السورة ، ولم يكن خوفه من اهل التوراة والانجيل كما يظهر من بعض مفسرى اهل السنة ، فأنهم كانوا عندئذ مغلوبين للمسلمين ، محكومين بحكم الاسلام ولم يبق لهم تلك القدرة والعظمة حتى يخاف منهم النبى فى تبليغ ماانزله الله تعالى

بل هذا ظن سوء بالنبى(ص) وخلاف الانصاف، مع انه لو كان الخوف منهم لقال والله يعصمك منهم اومن اهل الكتاب دون قوله من الناس ، فظاهـر الكلام ان الخوف ووعد العصمة كان من المسلمين انفسهم .

وعلى هذا فماذاتظن ان يكون الحكم الذى انزله الله الى نبيه (ص) فى المقام أكان حكما فرعيا وجوبيا اوتحريمياً ؟ لايمكن المصير الى شىء من ذلك بل الحق الحقيق بالاذعان والقبول هو كونه مسئلة الخلافة والولاية للامة الاسلامية ، فأن لها شأنها من العظمة والاهمية وموقعها الخاص من امكان وقوع الخلاف والاعتراض والانكار وتشتت الامر و ظهور التفرق فى وحدة المسلمين مع شهادة العقل والتجارب انه كان فيما بين المسلمين من يطمع فى امر الخلافة خاصة بعدما اخبرهم

النبى بقرب ارتحاله من الدنيا .

كيف ؟ والانسان قدعجن فى ذاته بحب الجاه والمقام والرياسة و لم يكن افراد المسلمين كلهم عدولا معصومين من الخطاء والعصيان وح فلولم نكن نعلم من القرائن كون الاية الشريفة مرتبطة بالخلافة لكنا نستفيد ذلك من نفس الاية مع ان هناك روايات كثيرة متظافرة دلت على ان الحكم النازل على النبى الذى امر الله بابلاغه ووعده العصمة ، هو الامر المربوط بحال على اميرالمؤمنين و انه لما نزلت الاية جمع اهل البلاد من الحجاج بقرب جحفة و كانوا مجتمعين الى ذلك المكان، فى عودهم من مكة بعد ايام الحج ، وكان المكان اول منفصل من الطريق .

فخطب الناس وقـال (ص) ايها الناس الست اولى بكم من انفسكم فقالوا بلى ، ثم اخذ بيدعلى (ع) - قال من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه الخ .

والروايات الواردة فى حكاية كلام النبى الاعظم وما خطبه للناس فى ذاك اليوم مختلفة جدا باختلاف الالفاظ والمعانى لكن الذى ينقله الجل لولا الكل شامل على الكلام المزبور .

ثم ان عدة من محققى مفسرى اهل السنة مع اعترافهم بكون الحكم المنزل هو مفاد تلك الرواية ، قد حملوا الكلام على محامل يكشف ذلك عن شدة تعصبهم فى امر الخلافة وصعوبة اذعانهم بخلاف ماشرب فى قلوبهم من حب بعض وبغض آخرين. كحمل كون توصية النبى لعلى من جهة شكاية عدة من المسلمين عنه فى انه لم يقسم لهم الغنيمة المجلوبة من اليمن، وحمل قوله (ص) من كنت مولاه اى ناصره ومحبه .

فاخبر النبى بان من كان محباً للنبى او ناصراً له فليكن محباً لعلى وناصراً له اوان من كان ناصراً له فعلى ايضاً ناصره وكان النبى ناصراً لابى بكر وعمر فليكن على (ع) ايضا

كذلك ، وغيرذلك مما افادوه فى المقام ، وقد غفلوا وتغافلوا عن ان الحكم مؤكد من الله بتلك المثابة من التأكيد ،

ثم انجمع النبى للمهاجرين والانصار والخطبة لهم بما يذعن المتتبع فى التواريخ بعظمة الامر و شدة اهتمام الرب تعالى والنبى الاكرم لا يكون لابلاغ ان المسلمين يجب ان يحبوا عليا، مع وجود آيات تدل على لزوم ولاية المؤمنين بعضهم بعضا .

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياءبعض (التوبة - ۷۱)) مع انملاحظة عبارة الرواية المتواترةتقضى بالمراد فان قوله (ص) - الستاولى بكم من انفسكم لايراد به الا الولاية التشريعية الثابتة لنفسه الشريفة فى قوله (ص) : الست اولى بكم من انفسكم ، فقوله بعد ذلك من كنت مولاه فعلى مولاه لايراد به الا اثبات تلك الاولوية لعلى وهى الخلاقة الالهية التشريعية والولاية على جميع الناس .

ان قلت ، ما المانع من القول بأن مسئلة الخلافة بعد ارتحال النبى الاعظم كانت على نحو السنة الجارية فى عصرنا هذا ومايقاربه من الاعصار ، فوقعت على طريق انتخاب الخليفة باتفاق آراء الامة الاسلامية او اكثرية تلك الاراء ، فالنبى (ص) لم يوص بعده الى احد ، واوكل الامر فى هذا الموضوع الى الامة انفسهم فاجتمعوا على بيعة الخلفاء الراشدين على طبق ماوقع فى الخارج واذعن به اهل السنة والجماعة ، فكانوا ح كرؤساء الجماهير فى الممالك الجمهورية

او نقول : ان النبى ، اوكل امرانتخاب الخليفة الى طائفة خاصة من عظماء اصحابه والسابقين الاولين من المهاجرين والانصار، ليجتمعوا ويتشاوروا ويختاروا من بينهم الاحرى والاليق والاجدر والانفع ، فكانت نتيجة اجتماعهم وانتخابهم ان بايعوا ابابكر ثم الخلفاء من بعده ، ويشهد لصحة هذا الامر الايات التى وردت فى لزوم الشورى بين المسلمين .

قال تعالى : وما عندالله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . . .

والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨ ـ الشورى)

والشورى هو الامر الذى يتشاور فيه، فالمعنى ان امورهم هى التى تقع مورداً للمشورة والتشاور ليستخرج ماهو الاحرى بالعمل

وقال تعالى : فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فأذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين (١٥٩ ـ آل‌عمران)

وقال تعالى : والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين... وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ... فان ارادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما (٢٣٣ ـ البقرة) .

وفى نهج البلاغة فى كتابه عليه السلام الى معاوية (٦ك ص٣٦٦) انه بايعنى القوم الذين بايعوا ابابكر و عمر وعثمان على مابايعوهم عليه ، فلم يكن للشاهد ان يختار ولا للغائب ان يرد، وانما الشورى للمهاجرين والانصار ، فان اجتمعوا على رجل وسموه اماما كان ذلك لله رضى ،فان خرج عن امرهم خارج بطعن او بدعة ردوه الى ماخرج منه ، فأن ابى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله، ماتولى الخ.

قال ابن ابى الحديد فى ذيل الكتاب المزبور.

واعلم ان هذا الفصل دال بصريحه على كون الاختيار طريقا الى الامامة ،كما يذكر اصحابنا المتكلمون ، لانه احتج على معاوية ببيعة اهل الحل و العقد ، ولم يراع فى ذلك اجماع المسلمين ، و قياسه على بيعة اهل الحل و العقد لابى بكر فانه ما روعى اجماع المسلمين لان سعد بن عبادة لم يبايع ولا احداً من اهل بيته ولان علياً وبنى هاشم ومن انضوى اليهم لم يبايعوا فى مبدأ الامر وامتنعوا ولم يتوقف المسلمون فى تصحيح امامة ابى بكر... وهذا دليل على صحة الاختيار و كونه طريقاً الى الامامة انتهى (ج١٤ ص٣٦)

ونظير هذا الكلام منه (ع) فى آخر الكتاب ٧ من النهج قال (ع) لانها

بيعةواحدةلايثنى فيها النظر ، ولايستأنف فيهاالخيار ، الخارج منهاطاعن والمروى فيهامداهن .

قلت، اماالوجه‌الاول‌وهو ايكال‌النبى الاعظم(ص)امر الخلافة الى الامة ليجعلوا ذلك بالانتخاب نظير الحكومات الجمهورية ، فهـو باطل اولا بأنه لوكان الامر كذلك‌فلماذالم‌يرد فيه‌نص من آية اورواية مع كونها امرأعظيما لازم‌المراعاة‌جديراً بأن‌يعتنى به‌وينظر فى‌شأنه ويستحكم بنيانه ويقام‌برهانه ، وهو كالاساس من‌الدين‌و الركن من‌البنيان، فهل‌يحتمل المؤمن‌المنصف ان‌لايهتم صاحب‌الشرع بهذاالنحو من‌الحكم ولم‌يشرع اصله‌ولم يبين‌فروعه ولم‌يسد‌خلله ، والقى‌امره على‌عاتق الامة لتصنع‌فيه ماشائت وارادت، والناس مجبولون على‌حب الرياسة واتباع الاهواء ، مع‌ان الصواب ان‌الكتاب الكريم قد افاد خلاف‌ذلك وصرح بعدم كون انتخاب الخليفة راجعاً الى الامة بل نرى ان الله تعالى قدعين ذلك‌فقال تعالى :

انماوليكم الله‌ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم‌راكعون(المائدة ـ۵۵)والولى‌هو‌المدبر‌للامر‌الاولى بالتصرف والمخاطبون‌بها هم‌المؤمنون ، فلايكون قوله والذين‌آمنوا الآية‌ـ مرادابنحو العموم، بل قد اريد منه‌بعض من‌الامة .

وقد‌نقل‌الفريقان‌نزول‌الآية‌الشريفة فى‌حق‌على‌بن‌ابى‌طالب(ع)ـوليس الكلام فعلافى تعيين مصداق ذاك‌العام ، بل‌المراد ان‌الآية تنفى مسئلة ايكال الانتخاب الى الامةانفسهم ، والالزم‌كون انتخاب الرسول ايضا موكولا اليهم، بل‌اخبرت‌بنحو الحصر‌كون الولاية على المؤمنين ثابتافى حق المذكورين .

هذامع انه‌لوكان الامر بالانتخاب لماكان الاعتقاد بخلافة الخلفاء لازمـاً للموجودين فى‌الازمنة المتاخرة عن‌زمانهم ، فلكل‌قوم انتخاب خليفة فى عصرهم ولانفسهم ، بل ولهم الرد للمنتخب فيماقبلهم ، وتخطئتهم المنتخبين والمجتمعين لاوجوب الاذعان بذلك كما عليه اهل السنة .

مع ان في المقام عن طرق اهل البيت روايات متظافرة دالة على كون الخلافة امراً الهيا غير موكول الى الناس ، ولايحق لهم النظر فيها ولافي انتخاب من ارادوا وشائوا، بل قدعين الله الخليفة كما عين النبي ، والامر ليس في ذلك الا الى الله ، الا له الخلق والامر .

واما الوجه الثاني. اعني ايكال النبي(ص) امر الخلافة الى الشورى بين كبراء المسلمين واهل الحل والعقد .

ففيه اولا انه لماذا لم يصرح النبي بذلك ولم يبين لهم الوظيفة في امر الشورى وكيف لم يوضح لهم حدود الشورى وانه من هم الكبراء؟ ومن هم اهل الحل والعقد؟ وماهو الميزان في عددهم؟ وكيف الحيلة عند اختلافهم والمسئلة عامة البلوى ولها مكانتها الخاصة في المجتمع ، وفيها حياتهم وفي اهمالها هلاكهم وتفرقهم. كما كان الامر كذلك وآل امر المسلمين الى ماترى وهل هذا الا لعدم تعين هذا الامـر وعدم تشريع الله مايوضح حاله لو كان الامر كما يقولون .

وثانيا انه كيف يعقل ايكال الامر الى عدة معدودين و اخراج باقي المسلمين عن الشورى مع ان فيهم من يليق بالنظر اومن يكون ارجح من اهل الشورى المعقودة ولو فرض كون اهل المدينة افضل المسلمين في ذلك العصر فكيف بما يقع في الأزمنة المتأخرة مع تحقق سعة بلاد المسلمين ووجود الكبراء و العظماء واهل المعرفة و الولاية في امور المجتمع الدنيوية والاخروية .

وكيف يسجل عليهم امر دبر غيرهم من غير اطلاعهم، ولماذا يكون مااختارته طائفة من المسلمين حكماواجباً على آخرين وسالباً لحريتهم في آرائهم ، مع عدم فضل لهم عليهم اومع كونهم مفضولين مرجوحين ، وهل يمكن اسناد هذا النوع من الامور الى الاسلام ؟

وثالثاً انه لااشكال في كون مورد الشورى هو الموضوعات الخارجية التي لم يترتب عليها احكام شرعية الزامية ، فلا معنى للشورى في نفس الاحكام الشرعية

باتفاق من علماء الاسلام ، وكذا فى الموضوعات التى علم ثبوت حكم الزامى لها كالواجبات والمحرمات . فموضوع الشورى هو الامور المبحوث فيهم من حيث النفع والضر وتقع موردالتشاور لتشخيص الصلاح والفسادفيها واستخراج ماهو الانفع والاحرى فى الاقدام عليها .

فشمول قوله تعالى : وامرهم شورى بينهم لامر من الامور يحتاج الى احراز كونه موضوعا لم يترتب عليه من الله حكم الزامى وجوبى او تحريمى ، اذاً فلاتكون مسئلة الخلافة من مواردالشورى لما عرفت من انه تعالى حكم فيها بحكمه ولم يكل امرها الى خلقه فتأمل فى قوله تعالى :

انما وليكم الله ورسوله والذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راكعون (۵۵-المائدة)

وقوله تعالى : يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس (۶۷-المائدة) وقدروت علماء الشيعة فى المقام من الروايات مايتجاوز حدالتواتر ، و من الايات الدالة على المطلب ولو بمعونة الروايات ما يبلغ ۸۴ آية

ومن الاحاديث الواردة بنحو التواتر قوله (ص) - انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى، اهل بيتى ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض

والرواية واردة بالفاظ مختلفة من طرق اهل السنة ، بل رواها الزمخشرى ايضا مع انه كان من اشد الناس عناداً لاهل البيت وهو الثقة المأمون عند اهل السنة ورواها الثعلبى فى تفسيره فى ذيل قوله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا» باسانيدمتعددة عن رسول الله (ص) بهذه العبارة

«ايها الناس قد تركت فيكم الثقلين خليفتين ان اخذتم بهما لن تضلوا بعدى احدهما اكبر من الاخر كتاب الله حبل ممدود مابين السماء والارض ، وعترتى اهل

بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»

والرواية لو فرض عدم دلالتها على خلافة اهل البيت فلا اقل من دلالتها على حجية قولهم وانه يلزم التمسك بأقوالهم وحسبانهم كأحد الرواة الذين اخذوا عنهم وقبلوا قولهم، كأبى هريرة وعكرمة وانس و غيرهم ، فلو رجع اهل السنة اليهم لوجدوهم بحاراً غير منزوفة ولعرفوا ان النبى الاعظم هل يمكن ان يوصى الى احد غيرهم او ان يجعل الخلافة شورى بين الناس ام لا؟ او انه (ص) اعظم امرها واتقن صنعها واخذ من ربه حكمها وعرفه الله اهلها ومن يليق الوصاية اليه ومن يصلح للامة اتباعه .

اذاً فأمر الخلافة داخل تحت قوله تعالى

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم (٣٦ - الاحزاب)

وقوله تعالى :وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة (٦٨-القصص)

ورابعاً: انا نقول انه متى عملت الامة بهذه الشورى التى جعلوها اساساً للحكومة الاسلامية وبنوا عليها بنيانها، اكان ذلك بعد رحلة النبى الاقدس لانتخاب ابى بكر على الخلافة او لاختيار عمر او عثمان او على (ع) الظاهر ان كل ذلك لم يكن .

اما الاول : فمع انه قد صرح بعض المفسرين واعترف بعدم وقوع الشورى عندئذ وعدم كون انتخاب الخليفة الاول بنحو الشورى بل كان ببيعة عمر بنفسه ثم تبعه بعض لجهات غير خفية ولم تكن باجتماع السواد الاعظم ولا بمشورتهم ورضاهم .

«بل صرح : بان عمر بادر الى مبايعة ابى بكر خوف الخلاف المهلك للامة وصرح بعد ذلك بأن بيعة ابى بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها لايجوز العود الى مثلها انتهى» .

ومراده ان الناس فى ذلك العصر لم يكونوا مستعدين للشورى ومستأهلين لادراك شئونها ومصالحها ، ولما علم عمر صلاح الامة واهلية من اختاره وانه هو

الذى ينبغى ان يستخرج ويتبع بالشورى ، فبايعه ، وهذا النحو من الانتخاب بذاته شر للمسلمين ينبغى ان يجتنب فيما بعد .

و لو فرضنا وقوعها فى السقيفة فهى غير نافذة وليست بتلك الشورى التى صوبها الاسلام وحثت عليها آية الشورى (وامرهم شورى بينهم) فان اللازم فيها اجتماع السواد الاعظم من المسلمين ولااقل من كبراء الاصحاب وعظماء الامـة ، كيف ولـم يحضرها سعد بن عبادة واتباعه واهـل قبيلته ، وكذا لم يحضرها على (ع) وبنوهاشم والمنضوون اليه ولهم مكانتهم الخاصة فى الامة .

واما خلافة عمر . فلااشكال فى كونه بعهد من ابى بكر ولم تتحقق الشورى فى انتخابه ، وقداعتذر فى ذلك صاحب المنار بماذكره:

اولا بان ذلك كان رأيا رآه ابوبكر ثم قبله الصحابة فصار اجماعا والاجماع حجة مستقلة .

وثانيا بان الشورى حصلت بان تولاها ابوبكر بنفسه فى حياته لخوفه على الامة فتنة التفرق والخلاف من بعده، فشاور اهل الرأى والمكانة من الصحابة فيمن يلى الامر من بعده، فرأى الاكثرين موافقين على ان امثلهم عمر، فعهد اليه وانما العمدة فى جعله اميراً مبايعة الامة، والمبايعة لاتتوقف صحتها على الشورى فيما سبق لابى بكر من المشاورة واقتناع الناس بخلافة عمر اغنى عن المشاورة بعد وفاته ، فصدق ان خلافة عمر وقعت بالشورى ، ولكن ماذكره صاحب المنار غير تام وباطل .

اما الوجه الاول :فهو اعتراف بعدم الشورى ، واما الاجماع فهو غير حجة من البعض سيما اذا وقع فى مقابل النص كما عرفت ، وما قد يدعى فى كلماتهم من ان النبى (ص) ـ قال:

لاتجتمع امتى على خطاء ، فلم نتحققه من حيث السند والدلالة .

واما الوجه الثانى: فهو دعوى غير ثابت لاندرى من اين علمه صاحب المنار، وهل هو الهام غيبى او اتكل على بعض كلمات اهل التاريخ ممن يجر النار الى قرصه .

او انه نشأ من الاعتقاد بالخلافة فأثبت الخلافة بالآثار الناشئة عن اعتقاده بها لابدليل خارج يوجب العلم والاذعان لمن لم يسبق له الاعتقاد، فأدلته ظنون للمعتقد لابراهين للمنكر الطالب للدليل .

وبالجملة لم تكن خلافة عمر بالشورى قطعاً كما اعترف به جل القوم .

واما خلافة عثمان فالشورى التى امر بها الثانى وانعقدت بأمره ليست هى التى امضاها الاسلام وليست جامعة لشرائط الشورى .

اما اولا: فلقلة عددهم عن حد النصاب اللازم ولو بحسب اقتضاء ذلك العصر، فأن جميع اهل الحل والعقد لم تكن تلك الستة الحاضرين للشورى ، مع انهم قد اختلفوا فى انتخاب الخليفة ولم يقع انتخاب عثمان من بينهم الا برضا واحد منهم وهو عبدالرحمان اوهو وسعد، قال على (ع) فى الخطبة المعروفة بالشقشقية فصغى رجل منهم لضغنه ، ومال الاخر لصهره ، مع هن وهن .

واما ثانياً فقد صرح نفس الامر بالشورى بعدم اهليتهم للخلافة ، وذكر لكل واحد منهم عيباً ونقصاً فهم كانوا غير لائقين وانكان امرهم ثانياً بان يجتمعوا وينتخبوا احداً من بينهم للخلافة ، وامر بقتل جميعهم ان لم يفعلوا ماامرهم ، ولست ادرى كيف يمكن حل هذه العويصة وكيف جاز له الامر بقتل ستة من كبار الامة وفيهم على بن ابى طالب وهل يسوغ الامر به او هل يجوز لاحد اجراء هذا الامر ؟

فقد نقل ابن ابى الحديد عن السيد المرتضى بطريق اهل السنة عن ابن عباس انه قال له عمر : ماادرى مااصنع بأمة محمد (ص) وذلك قبل ان يطعن ، فقلت ولم تهتم وانت تجد من تستخلفه عليهم ، قال صاحبكم ؟ يعنى علياً ، قلت: نعم هو لها اهل فى قرابته من رسول الله (ص) وصهره وسابقته وبلائه ، قال : ان فيه بطالة وفكاهة .

فقلت: فأين انت من طلحة ؟ قال : فأين الزهو والنخوة.

قلت: عبدالرحمن ، قال : هو رجل صالح على ضعف فيه .

قلت : فسعد ، قـال : صاحب مقنب (الخيل) لايقوم بقرية لوحمل امرها .

قلت : فالزبير قال : وعقة لقس مؤمن الرضاكافر الغضب شحيح .

قلت :فأين انت عن عثمان ، قال : لووليها لحمل ابن ابى معيط على رقاب الناس ولوفعلها لقتلوه (ابن ابى الحديد ج ۱۲ ص ۲۵۸) .

واما ثانيا فلان اميرالمؤمنين عليا (ع) : و هو احد افراد الشورى قد قدح بنفسه فيها وبين ان مشاركته فيها كانت الزاماً عقلياً اوشرعياً رجاء ان يدرك حقه ، و يقع امرالخلافة عند اهلها بعد برهة من الانحراف والخروج عن مدارها ، وذلك معلوم لنا بالضرورة من احاديث كثيرة متواترة وردت مـن اهل بيته و اولاده الامجادالصالحين الطاهرين عن الكذب والشين بتصديق الكتاب العزيز انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً

ومن قول على نفسه فى الخطبة المسماة بالشقشقية (حتى اذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة زعم انى احدهم ، فيالله وللشورى متى اعترض الريب فى مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر ، لكننى اسففت اذا اسفوا وطرت اذا طاروا (الخطبة۳ من النهج)

واما ما ذكرنا من كتاب على (ع) الى معاوية الدال على و قوع الشورى وحقيتها وان بها عينت الخلفاء الذين سبقوه، وان المهاجرين والانصاراذا اجتمعوا على احد بالامامة كان ذلك لله رضا الخ فلايدل على مطلوب المستدل

فأنك اذا لاحظت حال الامة الاسلامية فى تلك الاعصار حتى الجيوش التى كانت تحت لواء على(ع) فضلا عن اهل الشام وغيرهم ، علمت انهم كانوا معتقدين بخلافة الاولى والثانى والثالث من الخلفاء ، وكان المسلمون التابعون لعلى (ع) معتقدين بأنه رابع الخلفاء الراشدين، ولم يكونوا يعتقدون بماتعتقده الشيعة من خلافة على (ع) بالنصب من عند الله الا الاقلون عددا المختصون بعلى (ع) كسلمان

ومقداد وعمار ومن يحذو حذوهم

فالكتاب الذى كان يكتبه على الى معاوية يلزم ان يكون مبنياً على مذاق المسلمين من تابعيه وتابعى معاوية، ولوصرح (ع) -فى كتابه ببطلان خلافة عثمان فضلاعن الخليفتين قبله لكان ذلك حجة اخرى فى يد معاوية نافية لخلافة على كالقميص المخضوبة بدم عثمان فكتاب على‌امتن كتاب فى مقام‌بيان اهليته‌للخلافة وبطلان دعوى معاوية وهو‌بيان جدلى‌اثبت (ع) مدعاه بمسلمات الخصم .

هذا وقد يتوهم ان‌كلام على فى‌نهج البلاغة (٢٢٨) دال على اهلية من قبله من الخلفاء بالخلافة حيث انه مدح الاول منهم او الثانى بقوله : « لله بلاد فلان » فلقد قوم الاود و داوى العمد و اقام السنة و خلف الفتنة ، ذهب نقى الثوب ، قليل العيب ، اصاب خيرها ، وسبق شرها ، ادى الى‌الله طاعته واتقاه‌بحقه، رحل وتركهم فى‌طرق متشعبة ، لايهتدى بها الضال ولايستيقن‌المهتدى»

ولايخفى عليك ان التأمل الصادق فى‌حالات الخليفة الثانى وفيما وقع من الامور‌الدينية‌الاجتماعية فى‌عصره بيده‌وفى كيفية مشيه وسيرته مع‌المسلمين ومقايسة ذلك مع ما صدر عن عثمان ومعاوية وما وقع فى عصرهما وبيدهما بل ومقايسته مع سائر الحكومات العالمية فى‌تلك العصور ومابعدها الى‌الان

ثم التأمل والتعمق فيما صدر منه‌من‌احداث البدع‌فى‌الدين‌وادخال‌مالم‌يكن من‌المذهب فيه وامحاء ماكان من احكامه‌منه .

ثم ملاحظة ان اللازم للانسان المنصف الذى يريدان يحكم فى‌حقه بحكم و يقضى فى سيرته و مشيه و هديه و سمته و سائر شئونه و اوصافه بقضاء حق ، او يكتب فيه مالايكون ابطالا لحق ولاستراً لباطل ، ليكون الكلام اوقع فى النفوس ولا تتسرى فيه العصبية ، ولا الخروج‌عن طريق العدل‌فى‌القضاء ، يقتضى‌بان‌يكون المقال فيه .

كما افاده الامام اميرالمؤمنين (ع) بعينه ، فقال فى‌حقه ما يلوح‌منه مدحه كالجمل التالية :

۱ ـ قوم الاود ۲ ـ داوى العمد ۳ ـ اقام السنة ۴ ـ ذهب نقى الثوب ۵ـ ادى الى الله طاعته واتقاه بحقه ومايلوح منه ذمه كالجمل التالية :

۱ ـ خلف الفتنة ۲ ـ ذهب قليل العيب ۳ ـ اصاب خيرها ۴ ـ وسبق شرها ۵ ـ رحل وتركهم فى طرق متشعبة ، لايهتدى بها الضال ولا يستيقن المهتدى ، الا انك اذا قايست خيره من اقامة الأود ومداواة العمد و اقام السنة و تأدية الطاعة المراد بها اقامته الصلوات بالجماعات ، واعطاء الحقوق المالية اهلها ، و تقسيم الغنائم بالسوية واقامة الحدود ، ونصب الولاة والقضاة و مراعاة القسط بالجملة فى الحكومة والقضاء و نحو ذلك من الامور الدينية الاجتماعية مع بعض ما صدر منه كجعل الخلافة الشورى على النحو الذى ادى الى خلافة عثمان الاموى ، فانه لااشكال فى كون ذلك من نتائج عمله

فقدسلم بيده الخلافة الى بنى امية ، فـانقلبت الخلافة العادلة الاسلامية الى السلطنة الجائرة القيصرية والكسروية هلم جرا الى اليوم، ولم ينل المسلمون مانالوه من التفرقة والانشعاب والانحطاط والسقوط الابواسطة خلافة عثمان التى صارت سببا لانتقالها الى معاوية وسائر بنى امية(۱) وفى تفسير المنار بعد ذكر كون خلافة الخلفاء بالشورى قال: (الاان بنى امية قداحاطوا بعثمان وغلبوا الامة على رأيها عنده فكان من عاقبة ذلك ماكان من الفتن حتى استقر الامر فيهم بقوة العصبية والدهاء لاباستشارة الدهماء) (المنار ج۴ ص۲۰۴ ذيل الاية ۱۵۹ من آل عمران)

وكان فى وسع عمران يوصى الى على(ع) كماينقل عنه انه قال: ان لم استخلف احدا فقد فعله من هو خير منى اى النبى ، وان استخلفت فقد فعله من هو خير منى يعنى ابابكر .

وهذا جناية على الاسلام وثلمة فيه لايسدها شىء فقول على(ع) رحل وتركهم فى طرق متشعبة تعبير عجيب يؤدى من المعنى مالايفوقه امر علمت موقع الخليفة من تصديه لامور المسلمين، ونتائج حكومته وعواقب توليه امر الامة، مع ان التفكير ـ

---

(۱) وفى بعض المصادر ان هذه الكلمات لامرئة قالتها فى عمر بن الخطاب ولابد من المراجعة

الصحيح يقضى بعدم استنادتلك الحكومه الصالحة فى الظاهر الى الخليفة بل كانت من نتائج السيرة العادلة النبوية وبقيةمما تركه الرسول الاعظم .

وبالجملة نحن نلاحظ حال كل واحد من الخليفتين ونرى فيما ورد من الاثار والتواريخ مايكون قدحاً فيهما وكاشفا عن عدم اهليتهما للخلافة الاسلامية العامة: خلافة النبى الاعظم وتدبير الاجتماعات الدينية لجميع الامة فنرى :

١- انه لم يول النبى الاعظم الخليفة الاول فى امرهام من امارة جيش اوخلافة عنه فى بلدونحو ذلك .

٢-وانه لما اعطاه النبى سورة البراءة ليبلغها فى منى امره الله بأخذها منه و اعطائها لعلى (ع)- قائلا ان الله امرنى ان لايبلغها الا انا اواحد منى .

٣- ونرى ان النبى الاعظم امره بالدخول فى الجيش الذى هيأه فى آخرعمره وجعل اسامة اميراعليه وعلى عمروسائرقرنائهما .

٤- ونقل اهل السنة ان عمر قال فى حق بيعة الاول كانت بيعةابى بكرفلتة وقى الله المسلمين شرها، فمن اعاد اليها فاقتلوه

٥-وترك اجراء حدالقتل والزنا على خالدبن الوليدحيث قتل مالك بن نويرة ووقع على زوجته بعدقتله .

٦-وانه قال : ان لى شيطانا يعترينى فان زغت فقومونى .

٧ - وانه قال اقيلونى ولست بخيركم وعلى (ع) فيكم .

٨ - وانه قال : فى الكلالة ، اقول فيها برأيى فان كان صواباً فمن الله وان كان خطاءفمنى .

ثم انه قد نقل اهل السنة فى حق الخليفة الثانى

١- انه قال عند احتضار النبى (ص) وطلبه القرطاس لان يكتب مالايضلوا بعده ، دعوه فانه يهجر

٢ - وانه كان ماموراً بالحضورفى جيش اسامة والكون تحت امارته فتخلف

عنه والنبى(ص) لعن من تخلف عنه

۳ ـ وانه قال بعد موت النبى : انه لـم يمت ـ فرده بعض اصحاب النبى بقوله تعالى : افأن مات اوقتل انقلبتم على اعقابكم ، وقوله : انك ميت و انهم ميتون .

۴ ـ وانه حرم المتعتين بقوله : متعتان كانتا حلالين على عهد الرسول و انا أحرمهما واعاقب عليهما

۵ ـ وانه قد عطل حد مغيرة بن شعبة ، وخوف الشاهد على زناه فمنعه عن اقامة الشهادة

۶ ـ وانه تسور دار غيره فرأى صاحب الدار يشرب الخمر ، فهدده فقرء ، فادخلوا البيوت من ابوابها فاعتذرورجع

۷ ـ وانه امربرجم الحامل مع عدم جوازه الا بعد وضع الحمل بل وبعد الارضاع.

۸ ـ وانه امربرجم المجنونة مع انه رفع القلم عن المجنون حتى يفيق .

۹ ـ وانه شرع اتيان صلاة التراويح

۱۰ ـ وانه اعطى من بيت المال عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم

۱۱ـ وانه منع الخمس عن اهل البيت (ع)

۱۲ ـ وانه هم بأحراق بيت فاطمة (ع) ـ وقال (وان) اى وانكان فيه فاطمة والحسنان

۱۳ ـ وانه استأذن عائشة فى دفنه فى جنب النبى (ص) مع ان عايشة لم تكن مستحقة من البيت شيئاً لنقل الخليفة الاول (نحن معاشر الانبياء لانورثاه).

ثم ان اهل السنة قدسعوا فى رد جميع تلك الاشكالات و تبرئة ساحة الخليفتين عن توجه اى نقص وعيب بما لايرتضيه العقل السليم العارى عن شوب العصبية ، بل يظهر من كلماتهم و كيفية اقامتهم البرهان على مطلوبهم ، ابتناء دفع الاشكالات على

سبق اعتقاد منهم بالخلافة ، متخذ من اشتهار نقل الخلف عن السلف بلاقيام دليل ونهوض برهان، واذا طالبنا منهم بالدليل تمسكوا بآية الشورى وهى عمدة ما اعتمدوا عليه فى المقام .

واذا سئلناهم عن حال الشورى، وان النبى الاعظم ماذا قال فيها، فهل امر بها ووضع قوانين تحدد حدودها وتحل عقدها ومشاكلها مع ماهى عليه من محلها الخاص وموضعها الهام الاصيل وركنيتها فى تعيين مسير الامة الاسلامية ، واصالتها فى تفريع مسائل الدين، وعراقتها فى تعيين عاقبة امر المسلمين ومقدرهم ومنتهى امورهم .

وانها هل تنعقد بالرجال فقط ، أوتشترك فيها النساء ايضا ؟ ـ ولااشكال فى عدم اشراكهم النسوان فى شورى الخلافة ،كيف. وقدعرفت حرمان الرجال منها الا الاقلين جدا .

مع ان لهن نصيبهن من امور المسلمين ، وقد اشتركن فى البيعة على النبوة وهذا مما يقدح فى تلك الشورى عنداهل المعرفة .

قال تعالى : « يا ايها النبى اذا جائك المؤمنات يبايعنك على ان لايشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم »
(١٢ ـ الممتحنة)

وفى تفسير الرازى فى ذيل الاية قال : روى ان النبى (ص) لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال اخذ فى بيعة النساء ، وهو على الصفا وعمر اسفل منه يبايع النساء بأمر رسول الله ....

قال واختلفوا فى كيفية المبايعة ، فقالوا كان يبايعهن وبين يديه وايديهن ثوب، وقيل كان يشترط عليهن البيعة وعمر يصافحهن، وقيل دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمسن ايديهن فيه ، ومامست يد رسول الله يد امرأة قط .

۲ ـ وانها هل تختص بأهل المدينة ، اوعظمائهم واهل الحل والعقد منهم، اوتعم سائر البلدان ايضا ، والاختصاص لماذا ؟

۳ ـ وانه لواتفقت آراء اهلها ، فهو ، والافما هوالحكم لو اختلفوا على طائفتين متساويتين، اوكان احداهما اكثر عددا وكمية والاخرى كيفية ، اوتشعبوا على طوائف ولم‌تكن احدى الشعوب حائزة للكثرة .

۴ـ وانه‌لو انكشف الخطاء فى الانتخاب‌وعدم‌اهلية المنتخب، فماهوالحكم وهل تنحل عقدة الشورى وبيد من هى ؟

۵ ـ وانه هل يكون المنتخب بالشورى خليفة من قبل الله ورسوله ، او من قبل الناس ، وعلى الاول فهل يكون المنتخب اليوم كالمنتخب فى ذلك اليوم فى الحرمة ووجوب الطاعة؟ فان كان‌كذلك ، فما الوجه فى تفضيل الخلفاء الراشدين على غيرهم ؟ وان لم يكن كذلك، فلماذا هو مع ان اللازم‌كون اللاحقين افضل من‌السابقين لكثرة الامم المنتخبة .

۶ ـ وانه هـل تكون الشورى مختصة بتلك الاعصار ، او تعم هذه الازمنة ايضا؟ وهل يكون المنتخبون من‌بين الموجودين مثل‌الخلفاء الراشدين وان‌تعددوا وكثروا ، بأن اختاركل ناحية من النواحى خليفة، اوكل بلد من البلاد الاسلامية خليفة .

۷ ـ و انه لماذا وجب لنا الاعتقاد بصحه الشورى المحققة فى ذلك الزمان ولزوم‌الاذعان بفضل‌المنتخبين بها وخلافتهم، ولم يجز لنا النظرفى صحتهاوفسادها وجامعيتها للشرائط ، ولماذا يكفر او يفسق من ارتاب فى ذلك وتردد ؟

وبالجملة ان سئلناهم عن الشورى اعترفوا بان النبى‌الاعظم لم يتعرض‌لها اصلا ولم ينطق فيها بشيىء نفيا ولااثباتاً .

ثم‌انك ان تأملت فى‌حقيقة تلك الشورى وسبرت التواريخ وكلمات القوم لادراك ماوقع عندئذ ، اهتديت الى امر عجيب ، وهو ان‌تعيين خلافةكل‌واحدمن

الخلفاء الثلاث وقع من ناحية انفسهم وبيدهم ، فخلافة الاول واقعة بتعيين الثانى وبيعته، وخلافة الثانى بتعيين الاول ووصايته، وخلافة الثالث بالوصاية من الثانى بشورى خاصة وامر دبر بليل فآل الى بيعة عبدالرحمان لعثمان .

فجميع الادلة على خلافتهم ينتهى الى دليل واحد هو الشورى، وهى تنتهى الى نفس القوم وتعيين بعضهم بعضا ، وهذه هى اساس الحكومة الاسلامية عند القوم ، واصل الدين الحنيف الالهى الذى انزلـه الله على الناس جميعا من زمان ظهور النبى الاعظم الى قيام الساعة، فتدبرولاتصغ الى مانسجوه من الاخبار الاحاد فى اثبات اصل من اصول العقائد .

ثم انا نسئل ايضـا ان النبى الاقدس هـل كان غير مطلع عن تسرى تلك الاختلافات المخزية فيما بين امته ، ولم يخبره الله بها اصلا ، او انه كان عالما بها بأخبار الله تعالى اياه ؟

فان كان الاول فهو ينافى مااشتهر نقله منه بين اهل السنة والشيعة من قوله (ص) : ستفترق امتى على ثلاث وسبعين ، والناجية منها واحدة .

وان كان الثانى فهلا عين فى ذلك تكليفا للامة، ولماذا تركهم يعيشون بعده حيارى سكارى ، لامسلمين ولانصارى؟ ولماذا لم يسدد امرشوريهم بوصايا اكيدة فى عقدها، وتعيين مكانها وزمانها بتبيين ماذكرنا فيها من موارد الاشكال والاعضال، و هلاعين واحدا من اصحابه للخلافة بنفسه بلاحاجة الى الايكال الى الشورى ؟ وهل كان علمه بمن يجب انتخابه من افراد المسلمين ودرايته ودربته وادراكه عواقب الامور ، وماتنتجه من الخيرات والشرور اقل من اهل الشورى ؟

ولوتوهم انـه كان ذلك لغرض تعليمه الشورى على المسلمين فكان يكفيه الحث عليها مستقلا والامر بالعمل بآية الشورى فى سائر امورهم .

ان قلت ان الشورى امر نطق بها الكتاب الكريم وحث المسلمين عليها فى امورهم ، فلو كان عدم تعرض النبى الاعظم لاحكامها وعدم تسديدها وسد ثغورها

قأدحا فيها ، فما هى مزعمتك فيها مع انها امر محثوث عليه ؟

قلت قد عرفت انه ليس لها عندنا مكانتها الاصيلة الركنية عند اهل السنة ، فانهم اعتمدوا فى كثير من احكامهم الدينية على بيان الخلفاء واقوالهم وافعالهم، واحتجوا لها بسيرتهم، فهى تبتنى على الحكومة، وصرحوا بأن الحكومة الاسلامية مبنية على الشورى ، فالشورى اساس الحكومة الأسلامية المتفرعة عليها امور هامة كثيرة ، فللشورى عندهم مكانتها الخاصة العريقة لايليق بالشارع المهتم فى امر تشريعه غض النظر عنها وتركه بيان حدودها واحكامها .

واما الشورى عندنا ، فكما انها لاتعمل بها فى الاحكام الشرعية ، لاتجرى فى الموضوعات الخارجية التى علم ترتب حكم الزامى من الشارع عليها ، فلاشورى فى الاحكام الالهية مطلقا من الاصولية والفرعية والتكليفية والوضعية وغيرها ، ولاشورى فى اتيان صلاة اوحج وترك الربا وشرب الخمرونحو ذلك.

فمحلها الموضوعات الخارجية التى لاحكم الزامى لها ،كشراء دار واحياء ارض ونحو ذلك ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى : (وامرهم شورى بينهم) فالاية حاثة على امر دنيوى عقلائى حثا غير ايجابى ، وايكالا لشئونه على الناس ، كما يظهر من جعلها فى عداد عدة امور واجبة ومندوبة ، فوصف المؤمنين .

١ ـ بأنهم يتوكلون على ربهم .

٢ ـ ويجتنبون كبائر الاثم والفواحش .

٣ ـ ويغفرون عندالغضب. ٤ ـ ويستجيبون لربهم. ٥ ـ ويقيمون الصلوة.

٦ـ وامرهم شورى بينهم ٧ـ وينفقون مما رزقناهم ٨ـ وينتصرون عند مابغى عليهم

فالتوكل فضيلة خلقية ، والغفران عند الغضب فيما اذا كان له الانتقام غير واجب ، والاستجابة لله فى المندوبات مندوبة .

والانفاق فى غير موارد وجوبه مستحب .

والانتصار فى طلب الحق لنفسه سائغ غير واجب فالشورى ايضأ كذلك .

ثم ان هنا امرا آخر لايخلو عن ارتباط بالمقام، وهو انه ماهو السر فى افتراق اهل السنة الى مذاهب اربعة، ولزوم عمل جميع علمائهم فضلا عن عوام المذاهب بفتيا الائمة الاربعة المعروفة، وتركهم الاجتهاد بأنفسهم فى احكامهم الدينية، فهل كانت تلك الائمة ولاة الامة وخلائف النبى الاعظم من قبل الله تعالى! مع انهم نفوا ذلك فى حق الخلفاء الراشدين، ولماذا حكموا بانسداد باب الاجتهاد فى حق غيرهم، ولزمهم التقليد عنهم، وينقل ان الحسين بن عبد الله البخارى المشتهر بابن سينا اتم جميع العلوم وقد مضى من عمره اربعة عشر سنة وكان يفتى بفتيا ابى حنيفة.

وايضا انهم يدعون ان الفرقة الناجية من الفرق الثلاث والسبعين هى اهل السنة والجماعة، فلماذا لايعد كل مذهب من المذاهب فرقة من تلك الفرق، ولم لايجب الحكم ببطلان ثلاث منها وحقية فرقة واحدة، وكيف يدعى كون الناجى جميعهم.

ثم ان المتحصل من جميع ماذكرنا انا اذا وقفنا موقف التقابل مع اخواننا من اهل السنة وطالبناهم ببيان مااعتقدوا به وركنوا اليه فى مسئلة الخلافة، واقامة الدليل عليه، فادعوا الخلافة الانتخابية للخلفاء الثلاث وتمسكوا فى ذلك بالشورى، كان الجواب عنها ماعرفت، واذا طالبونا بمعتقدنا فى امر الخلافة واقامة الدليل عليه.

فنجيب بأن مدعى اهل التشيع هو الخلافة التشريعية الالهية المنصوصة لعدة معينة مخصوصة، اوحى الله بها الى رسوله وامره بأبلاغها الى الناس كلهم، وهم الاوصياء الاثنى عشر ائمة اهل البيت، اولهم على بن ابى طالب وآخرهم الحجة بن الحسن العسكرى سلام‌الله عليهم اجمعين.

واما الدليل على ذلك فأمور

الاول الحديث المتواتر بين الفريقين عن النبى (ص) وهو قوله (ص): (انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى ماان تمسكتم بهما لن تضلوا) ولااشكال

فی انه لم يدع من اهل البيت العلم بالاحكام الالهية والمعارف الدينية غيرالأئمة الاثنی عشر، بل ولم يكن يعلمها غيرهم الا مااخذوه عنهم، فيعلم ح كونهم‌القدر المتيقن من العترة الذين امر النبی (ص) بالتمسك بذيلهم ، فاذا ادعوا الامامة والخلافة من الله والعلم بالاحكام الدينية بالوارثة عن النبی الاعظم ، يكون قبول خلافتهم واخذ العلوم عنهم تمسكاً بهم ، وماموراً به من ناحية النبی الاعظم وهو المطلوب .

الثانی‌ان ائمة اهل البيت الاثنی‌عشر قد ادعی كل واحد منهم الامامة الالهية والخلافة للخلق بأمرالله تعالی‌ونصب رسوله الاعظم، واظهر كل واحد منهم‌لاثبات مدعاه من المعجزات وخوارق‌العادات مافيه كفاية للمستكفی‌وحجة بالغة للمنصف ويعرف ذلك من كان له ادنی تتبع فی اخبارهم وسبر فی تواريخهم واحوالهم ، فراجع كتاب الخرائج والجرائح للمحقق قطب الدين الراوندی، ومدينة المعاجز للفاضل البحرانی ، والبحار للمحدث المجلسی ، وغيرها من كتب الشيعة المؤلفة فی الامامة ، تجد فيها بغيتك فوق ماتطلب وتروم، فقد نقل المحدث المجلسی قده فی‌البحار من المعجزات الصادرة عن ائمة اهل‌البيت (ع) مايقرب من الف‌معجزة

فعن مولانا اميرالمؤمنين(ع)ـ ۱۶۶ معجزة فی المج ۴۱ من صفحة ۱۹۱ الی صفحة ۳۵۸ والمج ۴۲ من صفحة ۱۷ الی ۵۰ .

وعن الحسن المجتبی (ع) ۱۱ معجزة فی‌المج ۴۳ من ص ۳۲۳ الی ۳۳۰

وعن الحسين (ع) ـ ۱۶ معجزة فی المجلد ۴۴ ص ۱۸۰ الی ۱۸۸

وعن السجاد (ع) ۴۹ معجزة فی المجلد ۴۶ ص ۲۰ الی ۴۹

وعن الباقر (ع) ۸۹ معجزة فی المجلد ۴۶ ص ۲۳۳ الی ۲۸۵

وعن الصادق (ع) ۲۲۷ معجزة فی المجلد ۴۷ ص ۶۳ الی ۱۶۱

وعن الكاظم (ع) ۱۰۶ معجزة فی المجلد ۴۸ ص ۲۹ الی ۱۰۰

وعن الرضا (ع) ۹۶ معجزة فی المجلد ۴۹ ص ۲۹ الی ۸۲

وعن الجواد (ع) ٤٧ معجزة فى المجلد ٥٠ ص ٣٧ الى ٧٢

وعن الهادى (ع) ٦٥معجزة فى المجلد ٥٠ص١٢٤الى ١٨٨

وعن العسكرى(ع) ٨١معجزة فى المجلد ٥٠ ص٢٤٧الى٣٠٥

وعن الحجة (ع) ٧٠ معجزة فى المجلد ٥١ ص٢٩٣ الى٣٤٣

فمجموع ما نقل عنهم (ع) فى البحار ٩٩٣ معجزة

ولعل المتتبع فى حالاتهم(ع) والمطلع على اوصافهم واحوالهم يجداضعاف مانقله (ره) ، فالمعجزات عنهم (ع) متواترة وهى من الادلةالقطعية لمدعى النبوة والامامة ، ولوتوهم احد انه لم يعتن بهذه الدعوى اكثرعلماء الاسلام

ولم يقل بذلك منهم الا البعض ، فكيف يكون دليلا على المطلب؟قلنا كما ان عدم اطلاع اكثر الناس فى الدنيا على نبوة نبينا وعدم اعتنائهم وقبولهم دينه و كتابه قصورا اوتقصيرا غيرقادح فى نبوته ، وادلة اثبات صدقة، وكما ان وجود بعض البلدان فى قرب بلدك الذى تسكن فيه، ثابت لك بالتواتر القطعى ، اذالم تكن شاهدته بالعيان،وان جهله اكثر اهل الدنيا و لم يعرفوه ، كما لم يعرفوا بلدك و ذلك لا يضر بتحقق التواتر بالنسبة اليك ، فعدم اطلاع الاكثر على نبوة نبينا و دعواه ومعاجزه ، لا يوهن الحجج البالغة القائمة على صدق دعواه وان كانت نسبة القائلين بنبوته الى غيرهم نسبة الواحدالى الاربع او الخمس او اقل منها ، فكذلك عدم قبول سائرفرق المسلمين امامة الائمة الاثنى عشر غير قادح فيها

فأن المخالفين اما قاصرون واما مقصرون وذلك لايخل بالاستدلال كمالايخفى على من له ادنى تدبروتفكر

وبالجملة ، قدثبت لنا بالتواتر دعوى الامامة من هؤلاء الائمة، وثبت بالتواتر ايضا ظهور معجزات كثيرة بأيديهم ، فهما ثابتتان بالتواتر الاجمالى و بالتواتر المعنوى وكلاهما حجة ولوفرضنا عدم ثبوت التواتر فى الامرين بالنسبة الى كل واحد منهم، فلانشك فى تحققه بالنسبة الى بعضهم فى الجملة و ذلك يثبت امامة الجميع

لتصديق كل‌واحد منهم امامة‌جميعهم

الثالث‌الاخبار الكثيرة جداالمنقولة بالتواتر بطرق متعددة عن‌النبيى الاعظم انه (ص) اخبر بمجيء اثنى عشر خليفة من بعده ، وهى واردة بالسنة مختلفة ، ففى طائفة‌كثيرة منها اضافةقوله(ص) كلهم من‌قريش

وفى‌عدة اخرى ، ان‌عدتهم عدة نقباء بنى‌اسرائيل

وفى‌ثالثة ان‌عدتهم عدةالشهور

ورابعة وردت التسمية منه(ص) بأسمائهم وان اولهم على ، ثم الحسن ، ثم الحسين ، ثم على بن الحسين ، ومحمدبن على ، وجعفربن محمد ، و موسى بن جعفر ، وعلى بن موسى ، ومحمدبن على . وعلى بن محمد ، والحسن‌بن على . والخلف الحجة ، وقد نقل فى البحار عن النبى (ص) فى‌المجلد ۳۶ فى باب ۴۱ نصوص الرسول(ص) عليهم عليهم السلام من صفحة ۲۲۶ الى صفحة ۳۷۳ مأتين واربعة (۲۳۴)حديثا اكثرها من‌غيرطريق الائمة (ع) فراجع مأثورات الشيعةواهل السنة تجد صدق ما ذكرنا وتذعن بما اذعناه

الرابع انعقاد الاجماع من‌جميع علماء الاسلام على‌انه‌يلزم وجودخليفة للنبى الاعظم (ص) ينوب بعده منابه ، ويتولى مايتولاه ، فافضلية وجوده فى مقابل‌عدمه وترك الناس كيفما فعلوا وعاشوا حكم اتفاقى لامعدل عنه ، يحكم به الفريقان من المسلمين سنيهم وشيعيهم . وان ذهب اهل السنة الى ان انتخابه موكول الى‌الناس والشيعة الى لزوم كونه‌من‌الله تعالى، و لوراجعنا الكتاب الكريم والسنة الثابتة عن النبى الاعظم واهل بيته الاطهار ، لوجدناتأييد هذاالاجماع وتسديده، فترى‌ان‌الله يقول فى‌مقام الاخبارعن‌الامم الماضية:

ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت(۳۶-النحل)

ومعنى الاية ان‌الله‌لم‌يدع امة من الامم بغيررسول يأمرهم بعبادة الله‌والخضوع لاوامره ونواهيه ، وينهاهم ويجنبهم عن عبادة الطواغيت الانسية والجنية ، و ان

يكونوا منهم على شق وجانب ، والاية تدل على ان هذا من سنن الله الجارية ، ولافرق في ذلك بين عنوان الرسول والامام، فأنه مع ان الرسل كانوا ائمة ايضا يكون حكم العقل في الاول والاخر مساوياً .

وقال تعالى : وان من امة الا خلافيها نذير (٢٤ـ فاطر)

وقال تعالى : ولكل امة رسول (٤٧ - يونس)

وقال تعالى : ولقد ارسلنا من قبلك في شيع الاولين (١٠ـ الحجر)

وقال تعالى : انما انت منذر ولكل قوم هاد (٧ ـ الرعد)

وبالجملة يمكن ان يقال ان اي دليل اقاموه على لزوم بعث الرسل الى الامم فهو بعينه دليل مثبت للزوم وجود الامام العدل فيما بين الناس ، ووجوب انتخابه، فأنه كما يحتاج ابلاغ الدين اليهم الى بعث الرسل ويجب ذلك عقلا على الله تعالى فكذلك لايكون بقائه الا بالامام العدل، فالرسول علة محدثة للدين، والامام علة مبقية، وكلاهما سيان في لزوم تعيينه على الله

و من هنا يظهر دقيقة اخرى وهي ان ما يستشكله البعض في خاتمية نبوة نبينا (ص) وانه كيف لايبعث الله نبيا بعده، والناس يحتاجون في كل عصر الى من يهديهم ويصلح بالهم، وانه كيف تبقى القوانين الاسلامية الى الابد؟ وكيف تكفي الاحكام المجعولة لعدة من الناس ، يعيشون عيش البدو بالنسبة الى عيش الحضارة في اليوم فضلا عن الازمنة الاتية ؟

وتنحل هذه العويصة بان وجود الامام هو في الحقيقة دوام وجود النبي الاعظم والامامة استمرار مقام النبوة ، فحياة الائمة (ع) عبارة عن مراحل استمرار حياة النبي فهو حي الى يوم القيامة ، ولا معنى لبعث الرسول اللاحق مع فرض حياة المبعوث السابق .

وحيث ان للنبي بوجوده المستمر تسلط على الاحكام والقوانين السماوية ، فله التصرف فيها بزيادة اونقيصة على طبق مايراه من المصلحة بالنسبة الى حال الناس

والحكم الجارى فى حقهم ، فكلما فرض تغير كيفية العيش الانسانى فى التمدن والتكامل والانتقال من البدو الى الحضارة ، فللامام الحاكم عليهم وعلى احكامهم ـ ان يطبق عيشهم على الاحكام الثابتة ، او يطبق الاحكام على حالهم ، نعم لا يكون ذلك الا فى فروع خاصة واحكام جزئية ، لا فى امهات مسائل الدين واصولها

فالاشكالات المتولدة فى عصرنا هذا فى خاتمية نبوة النبى الاعظم او فى قابلية بقاء دينه الى الابد والى يوم القيامة ناشئة من عدم الاعتقاد بالامام ، اوعدم معرفة مقام الامام وشئونه واوصافه .

هذا كله فى تأييد الكتاب الكريم حكم العقل ، واما ما ورد فى المقام من الاخبار ، فهى وان صدرت عن ائمة اهل البيت (ع) والكلام فعلا فى اثبات امامتهم الا انها توافق حكم العقل ، فنذكرها تأييدا مع انا وان لم نقل بامامتهم المنصوصة فلابد من ان نقول بحجية اقوالهم كالرواة الثقات التى يتمسك بأحاديثهم ، وذلك لما عرفت فى توضيح معنى حديث الثقلين ، وبالجملة فقد عقد علماء الشيعة (رض) فى هذا المقام بابا فى كتبهم الحديثية وسموه بباب الاضطرار الى الحجة ، واوردوا فيه احاديث كثيرة تهدى الطالب الى مرماه بدلالة عقله ، وتسلك برواد الحقيقة الى ماقصده بالتمسك بالكتاب فغالب تلك الاخبار فى الحقيقة ارشاد للعقل السليم او تعليم للتمسك بالكتاب الكريم .

فمن ذلك البحث الجدلى الدقيق الذى وقع بين هشام بن الحكم وبين عمرو ابن عبيد فى الامامة وفيه .

قال قلت له الك قلب؟ قال: نعم ـ قلت وماتصنع به؟ قال : اميز به كلما ورد على الجوارح قلت: افليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب؟ قال: لا

قلت وكيف ذلك وهى صحيحة سليمة ؟

قال : يا بنى ان الجوارح اذا شكت فى شيىء شمته اورأته اوذاقته اوسمعته او لمسته ردته الى القلب ، فيتيقن اليقين ويبطل الشك.

فقلت: انما اقام الله القلب لشك الجوارح ؟ قال : نعم

قلت: فلابد من القلب والالم يستقم الجوارح؟ قال : نعم .

قلت : يا ابا مروان ان‌الله لم يترك جوارحك حتى جعل لها اماما يصحح لها الصحيح ويتعين ماشك فيه، ويترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم وشكهم واختلافهم لايقيم لهم اماما يردون اليهم شكهم وحيرتهم ويقيم لك لجوارحك ترد اليه حيرتك وشكك ، قال فسكت ولم يقل شيئاً اه) البحار المج ٢٣ص٦ح١١) (الكافى كتاب الحجة ب ١ ح٢)

وفى‌خبر حسن بن زياد عن ابيعبدالله قال: لايصلح الناس الابامام ولاتصلح الارض الابذلك (البحار ج ٢٣ ص٢٢ ح٢٣)

وفى‌عده روايات عن الباقرين : ان‌الارض لاتبقى الا و منا فيها من يعرف الحق فاذا زاد الناس قال قد زادوا واذا نقصوا منه‌قال‌قدنقصوا، ولولاذلك‌لم‌يعرف الحق والباطل (ج٢٣ ص٢٦ح٣٤)

وفى‌رواية علل الفضل‌عن‌الرضا (ع) (ومنها انالانجدفرقة من‌الفرق ولاملة‌من الملل بقوا وعاشوا الابقيم ورئيس لمالابد لهم منه فى‌امرالدين والدنيافلم‌يجزفى حكمة الحكيم ان‌يترك الخلق مما يعلم انه‌لابدلهم‌منه ولاقوام لهم‌الابه ، فيقاتلون‌به عدوهم‌ويقسمون به‌فيئهم، ويقيم لهم‌جمعتهم‌وجماعتهم، ويمنع‌ظالمهم‌من‌مظلومهم اه (ج٢٣ ص٣٢ ح٥٢)

فراجع المجلد ٢٣ من‌البحار الجديدة وقد نقل المحدث المجلسى قده فى الباب الاول من‌الكتاب (باب الاضطرار الى‌الحجة) ١١٦ حديثا كلهايدل‌على‌لزوم وجود الامام والحجة بين‌الناس فى كل عصروزمان .

وراجع الكتاب الثانى من الكافى وهو كتاب الحجة والباب الاول من باب الاضطرار الى‌الحجة .

ثم انه اذا ثبت عقلا وجوب وجود الامام ، فهل‌الاصلح لحال الامة والاقرب

الى غرض الله تعالى بالنظر الى قضاوة العقل ، هواحالة انتخابه الى الناس انفسهم اوكون تعيينه من قبل الله وابلاغ رسوله ، لااشكال فى رجحان الثانى ولزومه ، فأن الاحالة الى الناس (مع تسرى الهوى واتباع الشهوات فى امورهم واقتضاء طباع الناس وطينتهم خلاف ماتقتضيه عقولهم واحلامهم) غير سديد ، مع مانراه اليوم فى الحكومات الانتخـابية من الزيغ والاهواء والانحراف عن الحق ، والظلم والجهالات .

كيف وقد اثبتت التجارب حال الانتخابات البشرية .

ويدل على ذلك ظاهر قوله تعالى :

وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم اهم يقسمون رحمـة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون .

(۳۱/۳۲ ـ الزخرف)

فالنبوة رحمة من عندالله على خلقه ونعمة من نعمه وكانهم ارادوا ان يكون قسمتها بأيديهم وباختيارهم ليمنحوها لاحد رجلين من القريتين :

الوليد بن المغيرة من مكة، وابى مسعود الثقفى من الطائف ، فأخبرالله تعالى بان الناس ليس لهم امر بعد مشية الله تعالى، كيف ولم يجعل قسمة ارزاقهم بأيديهم بل الله تعالى قسمها بينهم ، فكيف بمقام النبوة والامامة ، فهى امر الهى لاتنالها عقولهم واحلامهم ولاتصل اليها ايديهم ،كما قال تعالى: (وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة (۶۸ ـ القصص)

وقال تعالى: (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم (۳۶ ـ الاحزاب)

وفى حديث سعد بن عبدالله القمى قال سألت القائم (ع)ـ وهو فى حجر ابيه فقلت اخبرنى يامولاى عن العلة التى تمنع القوم من اختيار امام لانفسهم؟ قال: مصلح اومفسد؟

قلت: مصلح ، قال: هل يجوز ان تقع خيرتهم على المفسد بعد ان لايعلم احد مايخطر ببال غيره من صلاح اوفساد ؟ قلت: بلى .

قال: فهى العلة، ايدتها لك ببرهان يقبل ذلك عقلك قلت: نعم.

قال (ع) اخبرنى عن الرسل الذين اصطفاهم الله ، و انزل عليهم الكتب و ايدهم بالوحى والعصمة اذهم اعلام الامم واهدى ان لوثبت الاختيار، ومنهم موسى وعيسى هل يجوز مع وفور عقلهما و كمال علمهما اذاهما بالاختيار ان تقع خيرتهما على المنافق وهمايظنان انه مؤمن ؟

قلت: لاقال : فهذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحى عليه اختار من اعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه سبعين رجلا ممن لم يشك فى ايمانهم واخلاصهم ، فوقعت خيرته على المنافقين ، قال الله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال رب لوشئت اهلكتهم من قبل واياى اتهلكنا بمافعل السفهاء منا (١٥٥- الاعراف).

فلماوجدنا اختيار من قد اصطفاه الله للنبوة على الافسد وهويظن انه الاصلح دون الافسد علمنا ان لااختيار لمن لايعلم ماتخفى الصدور وماتكن الضمائر وتنصرف عنه السرائر ، وان لاخطر لاختيار المهاجرين والانصار بعدوقوع خيرة الانبياء على ذى الفساد لما ارادوا اهل الصلاح (البحار الجديدة ج٢٣ ص ٦٨ ح٣)

وفى رواية البزنطى حينما دخل على الرضا (ع) فى القادسية فسأله عن الحجة بعده الى ان قال الامام (اماعلمت ان الامام الفرض عليه والواجب من الله اذا خاف الفوت على نفسه ان يحتج فى الامام من بعده بحجة معروفة مبينة ان الله يقول (وما كان الله ليضل قوما بعداذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون ١١٥- التوبة .

ثم انه بعد ثبوت المقدمتين العقليتين (وهماان وجود الخليفة بعد النبى لازم ، وان اختياره لابدان يكون من عندالله وبابلاغ النبى (ص) يمكن دعوى القطع بأن المختار للخلافة هم الاوصياء الاثنى عشر ائمة اهل البيت (ع) - اذعدم تعيين ابى بكر

وعمر وعثمان من عندالله اجماعی بین الفریقین ، ولانجد غیرالائمة المذکورین من یدعی الخلافة ویلیق بها من جمیع الجهات .

ویحصل القطع بالامر بعد مراجعة ماورد فی حقهم من النصوص وماوردفی شؤنهم واوصافهم من الکمال والجدارة لتصدی امورالامة من حیث العلم والفضائل النفسیة الخلقیة والافعال الحسنة الجمیلة .

الخامس انه لااشکال فی کون المقصودمن انزال القرآن علی النبی الاعظم وامره بتلاوته علی الناس وابلاغه للمجامع البشریة ، هو ان تتلقاه المجتمعات بالقبول فتهتدوا ، وان یتفهموا معارفه ویتفقهوافیه ویتدبروا آیاته فیکونوا عالمین بحقائقه ، عاملین بها رافعین من بینهم الاختلاف بتحکیمها ، وهذا اعنی کون الکتاب حاکما بین الناس ورافعا لاختلافهم من اهم ماقصد من انزال الکتب السماویة قال تعالی

۱- ونزلنا علیك الکتاب تبیانا لکل شیء . (۸۹- النحل)

۲- کتاب انزلناه الیك مبارك لیدبروا آیاته ولیتذکر اولوا الالباب .

(۲۹ - ص)

۳- هذا بصائر للناس وهدی ورحمة لقوم یوقنون . (۲۰- الجاثیة)

۴- ولکن جعلناه نورانهدی به من نشاء من عبادنا . (۵۲- الشوری)

۵- فبعث الله النبیین مبشرین ومنذرین وانزل معهم الکتاب لیحکم بین الناس فیمااختلفوا فیه (۲۱۳ - البقرة)

۶- وماانزلنا علیك الکتاب الالتبین لهم الذی اختلفوا فیه وهدی ورحمة لقوم یؤمنون (۶۴- النحل)

۷- لقدارسلنا رسلنا بالبینات وانزلنا معهم الکتاب و المیزان لیقوم الناس بالقسط . (۲۵ الحدید)

۸- اناانزلنا الیك الکتاب بالحق لتحکم بین الناس فیمااراك الله .

(۱۰۵ - النساء)

ثم لا اشكال ايضا فى ان ترك الكتاب فيما بين الناس وايكال الامر فى تعليمه وتعلمه ونشره والعمل به الى نفس المجتمع ، وعدم تعيين من يعلمه ويدرك معارفه ويتعهد ابلاغه ، اضاعة له وقصور ونقض غرض فانه بنفسه لا ينزل فى المجتمع منزلة ولا يأخذ فيهم موطئه ولا يزيل الاختلاف عنهم ، ولا يرفع التشتت والتفرقة من بينهم ، بل هو حمال ذو وجوه ، قابل لتحمل المعانى المختلفة ، الاترى انه يتمسك كل طائفة فى اثبات مدعاه بآية فيأخذها حجة ودليلا ، وكل حزب بما لديهم فرحون ولعل الكل على خلاف الحق ، قال تعالى :

منه آيات محكمات واخر متشابهات ، فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله .

وعن على (ع) هذا القرآن انما هو خط مسطور بين الدفتين لا ينطق بلسان ، ولا بد من ترجمان ، وانما ينطق عنه الرجال . (نهج خ ١٢٥)

وقال (ع) : فجائهم بتصديق الذى بين يديه ، والنور المقتدى به ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن اخبركم عنه (الخ) نهج البلاغه خ١٤٨)

وقال (ع) لابن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج لا تخاصمهم بالقرآن فانه حمال ذو وجوه تقول ويقولون ، ولكن حاججهم بالسنة فأنهم لن يجدوا عنها محيصا (نهج وصه٧٧)

لايقال مقتضى هذا البيان عدم جواز التمسك بالقرآن فانه حمال ذو وجوه كما يظهر من نهى على (ع) - من التمسك به ، مع انه كتاب انزل دليلا على كل حى وتبيانا لكل شىء وهدى ورحمة للعالمين

فأنا نقول للقرآن نصوص وظواهر ومتشابهات من حيث المفهوم والمصداق لاريب فى جواز التمسك بنصوصه لمن استجمع شرائط الاستفادة منه بلا مراجعة احد اودليل آخر ، فان النص هو الظاهر الذى لا يحتمل الخلاف فيه ، وليس ذلك سببا للاختلاف ايضا ، واما الظواهر فيجوز التمسك بها مع الفحص عن المعارض

وهی ایضا لاتکون علی الغالب منشأ للنزاع ولامدرکا لکلا المتنازعین و ان امکن احیانا ان یأوله کل من المتخالفین الی مارامه ویجر کل منهما النار الی قرصه، فعلم ان منشأ الاختلاف امران احدهما وجود المتشابه فی القرآن وکونه حمالا ذا وجوه یفسره هذا بما ینفعه وهذا بما یفیده

والثانی انه لاجل عمق باطنه وبعد مفهومه ومرماه عن ان تناله عقول العامة لعدم کونه مختصا بشخص خاص ولازمان معین ولا مکان محدود، فلا محالة یقع الاختلاف فی ادراك مفاهیمه، فیدرك هذا معنی و ذاك معنی آخر، و یستفید هذا البعض غیر مایستفیده البعض الاخر، فلایکون رافعا للخلاف، وهذا مما شاهدناه الی الان ونشاهده بالوجدان، ویظهر بعض ما ذکرناه من قوله تعالی فاما الذین فی قلوبهم زیغ فیتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأویله. فالآیة تشهد بوقوع التمسك بالمتشابه طلبا للافتنان ومن مصادیقه استدلال کل من الاحزاب الباطلة بشیء منه علی مقصده .

ففی الکافی فی صحیحة منصور بن حازم عن ابی عبدالله (ع) بعد أن عرض له (ع) شیئا من معرفة الله ومعرفة رضاه وسخطه وقوله (ع) ـ صدقت . قال وقلت للناس الیس تعلمون ان رسول الله (ص) کان الحجة علی خلقه ؟ قالوا : بلی، قلت، فحین مضی رسول الله (ص) من کان الحجة لله علی خلقه ؟ قالوا : القرآن فنظرت فی القرآن فأذا هو یخاصم به المرجیء والقدری والزندیق الذی لایؤمن به حتی یغلب الرجال بخصومته ، فعرفت ان القرآن لایکون حجة الابقیم ، فما قال فیه من شیء کان حقا ... الی ان قال فاشهد ان علیا کان قیم القرآن وکانت طاعته مفترضة وکان الحجة علی الناس بعد رسول الله ، وان ما قال فی القرآن فهو حق (الکافی ج۱ ـ باب الاضطرار الی الحجة ح۲) (ئل ج۱۸ ابواب صفات القاضی ب۱۳ ح۱) (علل الشرایع ج۱ ص ۱۸۳) رجال الکشی

وفی خبر یونس بن یعقوب . قال کنت عند ابی عبد الله (ع) فورد علیه رجل

من اهل الشام ، ثم ذكرحديث مناظرته مع هشام بن الحكم . قال‌له الصادق(ع) كلم هذا الغلام (هشاماً) فقال لهشام سلني: قال: ياهذا اربك انظر لخلقه ، ام خلقه لانفسهم ؟

فقال الشامي: بل‌ربي انظرلخلقه، قال: ففعل بنظره لهم ماذا ؟ قال:اقام لهم حجة ودليلا كيلا يتشتتوا اويختلفوا ، يتألفهم ويقيم اودهم ويخبرهم بفرض ربهم قال : فمن هو ؟ قال‌رسول‌الله (ص) قال هشام فبعد رسول الله؟ قال الكتاب والسنة قال‌هشام فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في‌رفع الاختلاف عنا

قال الشامي نعم ، قال فلم اختلفنا انا و انت وصرت الينا من الشام في مخالفتنا اياك ؟ قال فسكت الشامي فقال ابوعبدالله (ع) ـ للشامي مالك لاتتكلم قال الشامي ان قلت لم نختلف كذبت ، و ان قلت ان الكتاب و السنة يرفعان الاختلاف ابطلت لانهما يحتملان الوجوه ، الا ان لي عليه هذه الحجة فقال (ع) سله تجده مليا ، فسئل مثل ذلك الى ان قال فهل‌اقام لهم الحجة؟ قال‌هشام‌في‌وقت رسول‌الله (ص) اوالساعة ؟

قال الشامي في وقت رسول الله (ص) رسول الله (ص) ، والساعة من ؟فقال هشام هذا القاعد الذي تشد اليه الرحال .... سله عما بدالك (الكافي ج۱ ـ باب الاضطرارالى‌الحجة ج ۴) (ئل ج۱۸ ابواب صفات القاضي‌ب۱۳ ح۲)

فتحصل من تينك المقدمتين ان القرآن من حيث اشتماله على المتشابهات لايكون رافعا للخلاف رأسا وان‌كان‌كذلك في‌الجملة ، اذا فاللازم بحكم العقل بعد ارتحال النبي (ص) وجود فرد في كل زمان عالم بجميع مفاهيمه و استخراج جميع‌الاحكام‌اللازمة للامم، من متنه‌وبطنه قادرعلى ارجاع متشابهاته الى‌محكماته عادل في ذاته ، قوى في‌الوفاء بما عليه من التكليف في تفسيره وتعليمه لئلا يكون للناس على‌الله حجة بعد الرسل

ولايقول احد ربنالولا ارسلت الينا رسولا منذرا وماقمت‌لناعلماهاديا فنتبع

آياتك من قبل ان نذل ونخزى ، ومن الواضح انه لايكون الجاهل والفاسق والعاجز جديراً بالنيابة عن النبى الاعظم .

ثم ان تعيين ذاك الشخص انكان موكولا الى اختيار الناس جاء فيه ماسمعت فنستكشف انه قد عينه النبى (ص) ــ ، وحيث انه قام الاجماع من جميع المسلمين على عدم تعيين الخلفاء الثلاثة ، فلاجرم ينحصر فى الائمة الاثنى عشر (ع) ، لعدم دعوى احد غيرهم ذلك ، وعدم اهليته كذلك ، وليعلم ايضا ان لزوم تعيين الخليفة العالم بالقرآن المبين له كما عرفت امر ، وطاعة الامة والانقياد له والاخذ منه امر آخر ، والكلام فعلا فى اثبات ان الله قد انجز ماهو مقتضى احسانه وانعامه ، ونصب من يجب نصبه وتعيينه ، فاعلن برهانه وبلغ حجته .

واما رجوع الناس اليهم ، فهو مما امرهم به وحثهم عليه ، لكنه موكول الى اختيار الناس ولا اكراه فى ذلك ولا اجبار .

فمسئلة اتمام الحجة على الخلق ولزوم تحققه من ناحية الله تعالى بنصب الامام العدل على الامم بحيث يلزم من الاخلال به صدور القبيح من الحكيم تعالى ، هى المبحوث عنها فى المقام ، وهى المدعى ثبوتها وتحققها من قبل الله .

واما مسئلة انه هل تحقق رجوع الخلق الى المنصوب من قبله ، او انه هل يجب على الله ان يجبرهم على الطاعة ام لايجب ؟ فهى امر لسنا بصدد بيانه ، مع انه من الواضح عدم تحقق كلا الامرين .

السادس: انه لا اشكال فى ان الله تعالى شأنه شرع لكل قوم وامة من اول ازمنة استعدادهم لتحمل الدين والشريعة ، واقتضاء حالهم ذلك دينا وشريعة يشتمل على اصول اعتقادية وفروع عملية ومناهج اخلاقية ، نظمها وشرعها عن علم بحال عباده واحاطة بصلاحهم وفسادهم ، فاوجب ماحسن ايجابه وحرم ماصلح تحريمه .

ثم انزلها على انبيائه عصرا بعد عصر وبرهة بعد برهة الى ان انتهى الامر الى شريعة محمد (ص) ، فانزلها اليه فى مدة معينة وهى الوقت الفاصل بين مبعثه

ورحلته، فامره بابلاغها الى الناس فبلغ ماامر به ربه واتعب فى ذلك نفسه الزكية وتحمل فى طريقة الجهد الجهيد ، وجاهد فى ابلاغه الى العباد حق الجهاد ، واضحى فى سبيله بنفسه واسرته ونفوس قوم من المؤمنين حتى اشاد بنيانه واوضح برهانه واسس اساسه واوقد نبراسه ، فبلغ رسالات ربه كماامره لامتوانياً ولامقصرا .

ثم انه قد اخبر مرارابان دينه وشرعه ، شريعة الهية عالمية خاتمة الشرايع قيمة لاتنسخ باقية لاتزول تستمر الى يوم القيامة جاء بها من عندالله للخلق كلهم ، ابيضهم واسودهم عربيهم واعجميهم كما قال تعالى:

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (١ ـ الفرقان)

وقد تعرضنا فيما سبق لكون شريعة محمد(ص) عامة للناس كلهم وللاعصار كلها الى ان تقوم الساعة ، ثم انه بعد ماجائه نصرمن الله وفتح ورأى الناس يدخلون فى دين الله افواجا سبح بحمد ربه وقضى بامره نحبه ، فانتقل الى دار البقاء وفاز بشرف اللقاء .

وح فيبقى هنا سؤال نظيرما ذكرناه فى الدليل السابق ، وهوانه هل يجب عقلا ولطفا على منزل الشريعة وشارعها وعلى رسوله الصادع لتبليغها ونشرها . ان ينصبا ويعينا شخصا لرعايتها وحفظها عن الزيادة والنقصان والاندراس والنسيان وابلاغها الجاهلين اويجوز ترك ذلك واحالة الامر الى الناس انفسهم

فان قال الخصم لايجب ذلك قلنا فلم وجب تشريعها وان قال باللزوم والوجوب سئلناهم عمن عينه الله ونصبه ، والاجماع منعقد بين المسلمين على عدم تعيين الخلفاء الثلاثة كما عرفت ، فوجب كونه الائمة الاثنى عشر(ع) لما عرفت .

خاتمة . اذا فرضنا بعد ارتحال النبى الاعظم مجتمعا عظيما اومملكة ليس لهم دين ولا رئيس قائم بالامر ، فاردنا اقامة الدولة الاسلامية والحكومة الدينية الاسلامية الالهية، فكيف يكون حال هذا المجتمع فى شتى الابعاد حياتهم ومآل عيشهم وعاقبة امرهم اذا عملنا فيهم بما يعتقده اهل السنة على مافهموه من الكتاب والسنة ، وكيف

الحال اذا سبكناذاك المجتمع فى قالب معتقدات الشيعةوصورناهم على طبق مافهموه من كتاب الله واحاديث المعصومين من اهل البيت .

فنقول اما على الاول فتجتمع عدةمنهم قليلة اوكثيرة تحت سقيف فينتخبون واحدامنهم بخلافة النبى الاقدس ، وزعامة الامة ولايشترط فى ذلك حضور جميع الخواص ورجال العلم والدراية من الامة ، فضلاعن حضور الجميع ، بل ولايشترط اطلاعهم على ذلك ولارضاهم به ، فاذا وقعت البيعة لمن انتخبوه صارهو امير المؤمنين والخليفة فى الارضين وامام الامة ،فوجبت على الجميع طاعته وحرمت عليهم مخالفته فصار مصداقا لاولى الامر وشمله قوله تعالى (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامرمنكم) فيشرع فى تدبير امر الامة وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وحقائق الدين ومعارف الاسلام ، فاذا مات وارتحل انتخبوا شخصا آخر من بينهم بما يشبه الانتخاب الاول ، ولواتفق انحراف الخليفة عن الحق فى مورد اقامته الامة وامرته بالمعروف ونهته عن المنكر ولوجهل شيئاسئلهم عنه وان جهلوه عطلوه ، وكذلك ينتخب الثالث والرابع ولا يزال امر الامة على هذا المنوال بخير وصلاح ! ! الى ان ينقضى عمر الدنيا .

هذاما يتصوره من النظم الاتم الاكمل فى الاسلام على رأى اخواننا اهل السنة وهذامنتهى غرض الله من خلق الدنيا وخلق الانسان وانزال الكتب والقرآن ونهاية امنية نبيه الاعظم من دعوته وابلاغ دينه !!

۱ـ وليس لاحد ان يستشكل فى امر تلك الشورى وانه لم يحضرها الاقليل

۲ـ وانه لماذا صار مقتضاها الخلافة الدائمية دون الموقتة.

۳ـ وانه لماذا لايختل امر الانتخاب ولو اعترف مؤسسها ان تلك البيعة كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها.

۴ـ وانه لما ذا لايضر بصحته ولوقال نفس الخليفة المنتخب اقيلونى ولست بخيركم .

۵- وانه لماذا وجبت طاعته؟ولو كان فيما بين الامة من هواعلم منه وافضل، بل ولو كان فيهم من هومساوله ، قال القاضى البيضاوى فى ذيل قوله تعالى: (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم(۵۱ النساء) .

يريد بهم امراء المسلمين فى عهد الرسول وبعده ، ويندرج فيهم الخلفاء و القضاة وامراء السرية ، امر الناس بطاعتهم بعد ما امرهم بالعدل ، تنبيها على ان وجوب طاعتهم ماداموا على الحق .

۶- وانه اذا كان ارسال النبى(ص) وانزال القرآن لاجل تكامل النفوس البشرية وتعاليها ونيلها اعلى مراتب الرقى الانسانى المتصور فى العلم والاخلاق الفاضلة والاعمال فكيف يحصل هذا الغرض اذا كان القيم بامر الامة وخليفة النبى رجلا منهم ومثلهم، اذا اعوج اقاموه ، واذا اخطأ نبهوه، واذا عصى لم يطيعوه .

۷- وانه اذا كثر المسلمون فانتخب اهل كل ناحية خليفة بالشورى ، فهل تبطل خلافة الجميع اوتصح خلافة الجميع او تصح خلافة واحد منهم معين او غير معين؟ وايضا لو خالف الخلفاء بعضهم مع بعض، فهل يكون الجميع محقين اومبطلين وماذا يكون حال الامة وماهو تكليفهم ؟

۸- و انه كيف تدوم وتستمر هذه الكيفية (بعد فرض عدم وجود امام عالم بجميع الاحكام معصوم عن الخطاء والزلل فيما بينهم) مع كون الانسان جاهلا بنفسه لولا التعليم والالهام، مائلا بالطبع الى الهوى ، غالبا عليه حب الشهوة والرئاسة تاركا لما يصعب عليه من الطاعة والعبادة ، فيؤل الامر بعد مدة قليلة او طويلة الى وقوع الاختلاف فيهم والمنازعة والتحارب والقتال بينهم ، وغلبة الشهوات عليهم فتعود الجاهلية الجهلاء والحكومة الشيطانية والدولة الابليسية .

واما على الثانى: فهو على قسمين فتارة يفرض الكلام فيما اذا كان الامام المنصوب ظاهرا بين الناس غير غائب ولا مستور، واخرى فيما اذا كان مستورا مغمورا وهو حال الغيبة .

اماعلى الاول فحيث عرفت ان الرسول الاعظم على مذهب الشيعة وان مات وارتحل الى دار البقاء بما انه كان رسولا من الله الى الناس منبأ عن الله دينه واحكامه ، علة محدثة للقوانين السماوية الالهية ، فهو بهذه العناوين غير باق بعد موته اذ لاحاجة الى احداث دين جديد فى كل سنة او عصر مثلا ، الا انه بعنوان انه امام على الامة ولى لهم حاكم عليهم مدبر لامورهم حافظ لشريعتهم آمر وناه فيما بينهم لم يمت ولا يموت ابدا ، بل هو باق بوجوده التبديلى التنزيلى وهو وجود الائمة من بعده الى آخر الدنيا بل لو كان فى الدنيا اثنان فهو احدهما ولو مات احدهما قبل الآخر فهو ثانيهما

ولعل الى هذا يشير ماورد فى بعض الاخبار من قولهم (اولنا محمد و آخرنا محمد واوسطنا محمد و كلنا محمد) اى محمد وجميع الائمة كأنهم خليفة وامام واحد باق الى يوم القيامة وفى بعض الادعية الواردة فى كيفية خطاب الناس للحجة المنتظر (عارف باولاكم واخريكم) اى نعرف بتعليمكم ان اولكم محمد وهو باق بتبادل وجوداته المختلفة تشخصا وزمانا المتماثلة علماً وحكمة وسلطانا وحكومة الى يوم القيامة ويوم ينفخ فى الصور النفخة الاولى (نعم هنا احتمال آخر وهو انه يمكن ان يجيء على الانسان عصر بعد حكومة الائمة وانقضاء زمان الحجة ، يرغب فيه الناس للفجور ويتجدد هنالك جاهلية ثالثة وتكون اعظم وافحش من الجاهلية الموجودة والماضية ولعل قوله تعالى :

ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ، يوهم وجود اقسام من الجاهلية ، اولاها هى التى كانت قبل الاسلام . والثانية زماننا هذا ومايليه من الازمنة . والثالثة هى الزمان بعد ظهور الحجة وبعد ان ملاء الارض قسطا وعدلا ، وعليه فاذا كان الكتاب الذى يجب العمل به هو القرآن ، والدين هو الاسلام ، والمجرى لهما بين الناس والحاكم فيهم هو محمد (ص)

فماظنك بحال هذا المجتمع ، فالانسان الالهى الذى اوجد المجتمع الاسلامى فى المدينة المنورة فى مدة عشر سنين بتلك الصورة المعجبة ، من الوحدة

الاجتماعية والالفة الباطنية والظاهرية ، فنفخ فيهم روح العلم والحكمة والايمـان والعمل حتى رقوا ففاقوا ، وعملوا ففازوا ، وظفروا فراقوا ، ـ لومكث فيهم مآت من الاعوام وآلاف من السنين ، فكيفمـا يكون حالهم ؟ وهذا هو الامنية العظيمة اقصى الامانى ، والغرض النهائى اتم الاغراض للشيعة الامامية .

ثم انك لن تنسى فى هـذا المقام بحول الله وقوته ، ماشرنـا اليه سابقا من اندفاع عويصة اشكلت على عدة من المسلمين وغيرهم ، بانه ماهو السر فى كون النبى الاعظم خاتما للانبياء، وماهى العلة فى كون الشريعة الاسلامية آخر الشرايع، اذ قد عرفت ح انه بعد فرض بقاء النبى الاعظم بوجوده التنزيلى الى آخر الدنيا، فالنبى المبعوث حى غير ميت ، ولامعنى لبعث نبى اخر ، وعرفت ايضا انه كمان للنبى بوجوده المستمر الدائم ، حكومة على الامة جميعا ، فكذلك له حكومة على الاحكام الاسلامية فله التصرف فيها بزيادة ونقصان بمايراه مصلحة، وقد حكمه تعالى فيها وامضى ماتصرف بعد تصرفه فى موارد كثيرة ، فلامقتضى ايضـا لانزال دين جديد وتشريع شريعة اخرى كما هو واضح .

واما على الثالث . وهو فرض الكلام فى امثال زماننا هذا وهو زمان غيبة الحجة والعجز عن الوصول اليه، فالظاهر لزوم ان يعمل فيه بالشورى كما اختارها اهل السنة، لكنها بنحو آخر وطرز مغاير لعملهم، وهو تشكيل هيئة رئيسة للمسلمين، ولجنة دينية اسلامية تتركب من عدة من فقهاء الشريعة، وعدة اخرى من علماء الاقتصاد ومعرفة احوال المجامع ومهرة فن السياسة، وعلماء الطب وغيرهم ، وصدور فتوى الفقهاء بالنسبة الى كل موضوع من الموضوعات مع تبادل البحث فيمـا بينهم ، ونظارة من علماء ذاك الموضوع واشراف من المتخصصين فيه، فيصدر للمجتمع كلهم كتاب دينى عملى واحد ورسالة فتوائية واحدة، ثم يؤسس بيت واحد لاموال الامام ، وبيت لاموال المسلمين ، ويكون كلا المالين بيد عدة رجال قيمة كافلـة تحت اشراف اللجنة، حتى تصرف الاموال فى مصارفها الشرعية الدينية ، ويكون

جميع افراد اللجنة الرئيسة والعاملين على البيوت من مرتزقة المالين، هذا ماعندنا مما نراه صلاحا للمجتمعات الاسلامية والعلم عند الله ورسوله والائمة (ع) .

ثم انه لايخفى عليك ان الركن الاصيل فى الترسيم الذى رسمناه لك تبيانا لمعتقد الشيعة فى الخلافة والامامة يرجع الى امورا اربعة:

الله ، الانسان ، الغرض ، الوسيلة ، والاول هو الذات المستجمع لجميع الصفات الكمالية الموجد من سواه من الممكنات .

والثانى هو افضل ماخلقه وبرئه وانشأه وابدعه ، (ولاكـلام بالفعل فى غير الانسان) قال تعالى:

ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . (۷۰ الاسراء)

والثالث . هو الدين المشتمل على الاصول والفروع والشريعة التى شرعها الله لاصلاح حال العباد .

والرابع . هو الانسان الكامل الراقى القابل لتلقى الدين من الله واخذه من ناحيته وايصاله الى الخلق ، اعنى الواسطة فى التشريع، وهوالنبى الاعظم وسائر الانبياء والمرسلين ، فوقع الخلاف بين الشيعة الامامية واخوانهم اهـل السنة فى هذا المقام فى امرين .

الاول فى وجوب دوام الوسيلة وجوداً بنيابة الخلفـاء عنه بعده ، متصفين باوصافه ، متأد بين بآدابه ، فالشيعة تدعى وجوب نصب الخليفة من عندالله ، لان الغرض من انزال الكتاب وتشريع الشريعة ان يتلقاها الناس بالقبول ، ويعملوا بها وهذا الغرض ليس مختصا بالموجودين بل باق الى الابد قال تعالى :

هو الذى ارسله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وكيف يبقى الدين ويظهر على الاديان ويكون حاكما على النفوس والقلوب مع عدم وجود من يراعيه ويحفظه ويراقبه ، مع وضوح ان القوانين المجعولة

للاجتماعات اذاكانت على خلاف الاهواء والشهوات، تكون سريعة الزوال وان كانت على وفق العقل والحكمة ، فالغرض الاصيل الذى هو بقاء وجود الشريعة معمولا بها بين الناس لايتحصل ولا يتحقق الا براع وحافظ عالم بها مهيمن عليها والافيتسرع اليهاالاختلاف ويغلبها النسيان والاندراس، كما تشهدبه التجارب.

واما اهل السنة فيدعون كفاية ان يكلها الصادع لها الى الامة لينتخبوا من بينهم من يحفظها، ولواخطأ فى فهمه وحفظه نبهوه ولواعوج اقاموه ، وانت خبير بان ملاحظة الغرض فى تشريع الشرايع وانكانت تغنى عن اقامة الدليل على المطلب الاانا اقمنا الدليل عليه فيما سبق .

الثانى فى شرائط الخلفاء والوسائل النائبة عن الوسيلة الاولى، فالشيعة تدعى وجوب اتصافهم بمايجب اتصاف النبى الاعظم به من العدالة والعصمة ونحوذلك فكماانه قد صدرمن العادل فى جميع شئونه وافعاله ، شريعة عادلة فى جميع اصولها وفروعها، فتلقاهاعادل من ربه وبلغها الى خلقه ليتكاملوا ويصيروا عادلين ، فكذلك يجب عدالة الخلفاء الحافظين لها، واهل السنة يكتفون بانتخاب احدمن الامة لحفظها ويوجبون طاعته على الخلق فيمالم يخالف الكتاب والسنة ، ولا يوجبونها فيما عصى وخالف، وعلى ذلك فالاولى ان نشير الى بعض شرائط الامام المنصوب مع رعاية الاختصار وتقديم ماهوالاهم فالاهم فنقول :

الشرط الاول العدالة ، ويمكن التعبير عنها ههنابالعصمة ، فانك اذا عرفت العلة الغائية من تشريع الدين وهى هداية الناس الى كمالهم اللائق ، واجرائهم فى مسير العدالة فى شتى جهاتها ليكونوا امة وسطا لاانحراف فيهم عن سبيل الفطرة والدين، - وعرفت انها لايتحقق الابامام عادل، فلابدان يراد بالعدالة هناالمصونية عن جميع اقسام الاعوجاج والانحراف، سواء اكان فى مرحلة اخذ الشريعة وتلقيها من المبدأ الاعلى ، ام فى مرحلة ابلاغها الى الناس ، ام فى العمل بنفسه بها، وسواء اكان بنحوالعمد ام الخطاء والاشتباه ، وهذا المعنى هو الذى يسمى فى علم الكلام

بالعصمة ، وهو الذى يحكم به العقل ويؤيده النقل .

اما العقل. فلحكمه البات القاطع بانه لو كذب الوسيلة الرابطة بين الخالق وخلقه فى الاحكام ، فاخبر بوجوب ماحرمه الله أوحرمة ماأوجبه الله،أواخبر بخلاف الواقع خطاء او نسيانا ، يترتب عليه مفسدة عظيمة وضرر كبير ، بانحراف النفوس عن الحق ووقوعهم فى المفاسد أوفوت المصالح الملزمة عنهم ، ولا يليق هذا لمن عينه الاله العدل، والالزم اما عجزه أوجهله وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فالعدالة بالمعنى الذى ذكرناه مع ملاحظة حكمة المشرع عقلى بلاترديد .

ويدل عليها فى الجملة قوله تعالى .

عالم الغيب فلايظهر على غيبه احداً الامن ارتضى من رسول فأنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم انقدابلغوا رسالات ربهم واحاط بمالديهم واحصى كل شيىء عددا . (٢٧-٢٨ ـ الجن)

فان الظاهر ان المراد بالرسول هنا هو النبى المبعوث على الامة ، والرصد الحرس الموكلون عليه من الملائكة ليحفظوه عن الخطأ والغفلة والنسيان وغيرها فى مقام اخذ الاحكام من الله ، ومقام تبليغها الى الناس .

فهذه الاية تدل على عصمة الانبياء فى الاحكام ، وتشمل الامام ملاكا وان لم يشملها لفظا .

واما العصمة فى العمل فهى ايضا مما يدل عليه العقل لقضاء الوجدان بان من لم يعمل على طبق ماامر اونهى ، لم يكن امره ونهيه مؤثرا نافذا ، وان معصيته يسقطه فى الانظار عن العظمة ويحقره ويهونه ، وكل ذلك نقض للغرض ولعب وعبث لايصدر من الحكيم تعالى .

الشرط الثانى. مراعاته حقوق الناس على السواء وشدة مواظبته على احقاقها واجرائها لئلا تفوت وتضيع ، ومرجع هذا الشرط الى العدل فى معاملة الناس فى مقابل الشرط الاول الذى هو عدله فى تلقى الاحكام و ابلاغها والعمل بها ، وان شئت

عبرت عن ذلك بالعدل فى الاحكام ، وعن هذا بالعدل فى الموضوعات ، وافردنا هذا بالشرطية لشدة اهميته وقيام نظم الاجتماع به واختلاله بتضييعه ، كما هو المحسوس بالعيان والمعلوم لدى الوجدان، وهل حصل الاختلاف بين الامة الاسلامية واختلف امورهم ، وحدث الجور والفساد فيهم الالعدم رعاية بعضهم حق البعض ، وتركهم القيام بالوظائف والحقوق ، ويشهد على هذا الشرط اولا قوله تعالى

والحافظون لحدود الله (١١١ التوبة)

ففى موثقة سماعة عن ابيعبدالله قال : لقى عباد البصرى على بن الحسين (ع) فى طريق مكة ، فقال له ياعلى بن الحسين (ع) تركت الجهاد وصعوبته واقبلت على الحج ولينته ان الله يقول :

ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون الخ .

فقال له على بن الحسين اتم الاية فقال التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين (١١١- التوبة)

فقال على (ع) اذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم ، فالجهاد معهم افضل من الحج (نور الثقلين ج٢ ص٢٧٢)

ولايخفى عليك ان الرجل المعترض لعلى بن الحسين سواء اكان هو الزهرى المعروف الذى كان من عمال بنى امية ، كما فى بعض الروايات ، او عباد بن كثير البصرى عابد اهل البصرة والصوفى العامى المرائى كما فى هذه الرواية، لم يكن يدعو الامام (ع) الاالى الجهاد مع الكفار تحت راية بنى امية ، وقبول خلافتهم وولايتهم على الامة الاسلامية ، و تصديهم لامر الجهاد الابتدائى ، فاراد الامام ان ينبهه على امرهام ، من الشروط الركنية لمتصدى امر الجهاد ،

فظهران الامام فى مقام بيان اوصاف خليفة المسلمين او من نصبه الخليفة

للجهادوالاوصاف المذكورة على النحو الكامل لايكون الافى الامام العدل المنصوب وح فقوله تعالى: والحافظون لحدود الله بيان للشرط الرابع الذى ذكرناه وفى تفسير على بن ابراهيم (قال : نزلت فى الائمة)

والمرادبالحدود هنا احكام الافعال الاولية الاستقلالية والحدودوالتعزيرات الجزائية، وتوضيح ذلك انه ورد فى عدةروايات معتبرة ان النبى(ص)قال(ان الله قد جعل لكل شىء حداًوجعل لمن تعدى ذلك الحد حدا)الوسائل ابواب مقدمات الحدود ب۳ و۴ ج۱۸

والشىء هنا عبارة عن الافعال القلبية والجوارحية الصادرة من كل انسان ، سواءِ اكان الفعل مستقلا غيرمتعد من صاحبه الى غيره كالوضوء والصلاة والصيام والحج ونحوها ، ام كان متعديا الى الغيروله مساس به ،كالاطعام والاكساء والزكاة والجهاد والولاية والنكاح والطلاق وغيرها

فلكل منها حد اى حكم مجعول من قبل الله تعالى ، فهنا حد الهى مجعول بالاستقلال و لنفسها ، و حد الهى مجعول لحفظ ذاك الحد ، فيكون حفظ الحدود باقسامهاومنها الحدودوالحقوق المربوطة بالناس من اوصاف المؤمن المجاهد المتصف بتلك الاوصاف ، و يكون حفظ الجميع من شرائط الامام والخليفة

وثانياً قول على (ع) : وليكن احب الامور اليك اوسطها فى الحق واعمها فى العدل واجمعها لرضى الرعية (كتابه الى الاشتر۵۳ ص۴۲۹)

و قوله (ع) : واعلم ان الرعية طبقات ، الجنود و الكتاب ، والقضاة ، والعمال ، واهل الجزية ، واهل الخراج ، والتجار ، و اهل الصناعات ، والطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة، وكل قد سمى الله له سهمه ، ووضع على حده فريضة فى كتابه اوسنة نبيه (ص) ، عهدا منه عندنا محفوظا . (ص۴۳۱)

وثالثا قوله (ع) : وان افضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلادوظهور مودة الرعية (كتابه الى الاشتر ۵۳ ص۴۳۳) آخرها

ورابعا قوله (ع): ثم انظرفی‌امورعمالك فاستعملهم اختبارا ولاتولهم‌محاباة واثرة فانهما جماع من شعب الجوروالخيانة و ... ثم اسبغ عليهم الارزاق . . . فانه غنی لهم عن تناول‌ماتحت ايديهم (ص۴۳۵)

وخامسا قوله (ع) : ثم الله الله فی‌الطبقة السفلی‌من‌الذين‌لاحيلة لهم،واحفظ لله مااستحفظك من‌حقه فيهم واجعل‌لهم‌قسماً‌من‌بيت مالك وقسما من‌غلات‌صوافی الاسلام فی‌كل بلد (ص۴۳۸)

وسادسا قوله (ع) : (فی كتاب له(۵۹)الی‌الاسودبن قطبة‌صاحب‌جندحلوان) اما بعد فان الوالی اذا اختلف هواه منعه ذلك‌كثيرا من العدل ، فليكن امر الناس عندك فی‌الحق سواء فانه ليس فی الجور عوض من العدل

الشرط الثالث : ان يكون عالما بجميع ما يحتاج اليه الامة المعاصرة له من الاحكام الدينية والاصول و الفروع المذهبية ، بل و كل موضوع يكون له مساس بحال الاحكام ، اواتفق توقف امر من‌الامور علی‌العلم به ، وان شئت فعبر عن هذا الشرط بالعلم بالاحكام وما يتبعها ، ويترتب علی هذا الشرط و الشرط الاول حجية السنة الصادرة عن النبی و الائمة (ع) بمعناها المصطلح عليه بين اهل الاصول ، وهی اقوالهم وكتبهم ، واشاراتهم ،وافعالهم ، و تقاريرهم ، ای سكوتهم عند سماع قول‌اورؤية عمل ، فيدل علی صحته وجوازه مثلا، وكل‌ذلك مع‌شرائط خاصة مذكورة فی‌محلها

الشرط الرابع . معرفته بجميع الفنون التی يكون له التصدی بها او لها مساس بوظيفته فيجب‌ان يكون مطلعا علی جميع مايجب الاطلاع عليه‌لمديرومدبر ورجل ممارس لامرالسياسة وتدبيرامورالمملكة ، فان الامام كما انه معلم لاصول الدين وفروعه ، فهو متصد للقضاء بين الناس ، وجباية الخراج والزكوات والاخماس ، وتدبير امر الجند ، والمحاربة مع الاعداء ، وغير ذلك من العناوين والشئون وان شئت فعبر عن هذا الشرط بمعرفة الفنون او العلم بالموضوعات ،

واما الدليل على الشرطين اى علمه بالاحكام والعلم بالموضوعات بمعنى معرفة الفنون فعدة امور .

الاول ان هذه القضية من القضايا التى قياساتها معها، فان تعيين الخليفة لجميع الامة ونصب الامام لهداية جميع الناس وتعليمهم وتربيتهم ، لايكون الامع علمه بجميع الاحكام الدينية التى تحتاج اليها الامة ، وحذقه وتدربه فى جميع الفنون التى يتصدى بها ويقوم بامرها ، وهؤلاء خلفاء النبى الاعظم حيث ارسله الله هاديا للناس ونورا وسراجا منيرا وبشيرا ونذيرا وحجة فهل يمكن القول بجهله بالاحكام وعجزه عن قضاء الحوائج الدينية واصلاح الشئون الدنيوية ؟

الثانى الايات الدالة على ان الكتاب الكريم فيه بيان الاحكام وبيان كل شيىء بضميمة الاخبار الكثيرة المتواترة الدالة على ان الائمة عليهم السلام عالمون بالقرآن كله ظاهره وباطنه محكمه ومتشابهه تنزيله وتأويله .

فهذا الدليل مركب من صغرى وكبرى ، وشكل القياس : كل شيىء مما يحتاج اليه الامة او الاعم من ذلك فهو فى القرآن ، والقرآن كله فى صدور الائمة (ع) ، فعلم ان كل شيىء فى صدور الائمة (ع) ، اما الصغرى فلقوله تعالى : ونزلنا عليك القرآن تبيانا لكل شيىء (۸۹ النحل)

وقال تعالى : ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيىء وهدى ورحمة (۱۱۱ يوسف) .

وفى سورة يونس (۳۷) وتفصيل الكتاب .

واما الكبرى فلروايات اوردها الكلينى فى الكافى فى المجلد الاول فى كتاب الحجة فى باب ان الائمة (ع) اوتوا العلم فى ذيل قوله تعالى :

وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلمون بل هو آيات بينات فى صدور الدين اوتوا العلم ومايجحد بآياتنا الاالظالمون . (۴۹ العنكبوت) . وهى خمسة احاديث اكثرها صحاح نقلها عن ائمة اهل البيت، وهى

تدل على ان القرآن ثابت محفوظ فى قلب الامام، وان المراد بقوله تعالى : اوتوا العلم هم الائمة ، فالقرآن كله فى صدورهم وهم اهل العلم .

الثالث ، الاخبار الكثيرة الدالة على ان الائمةهم الراسخون فى العلم ، ففى تفسير قوله تعالى :

ومايعلم تأويله الاالله والراسخون فى العلم (۷ آل‌عمران) فى الصحيح عن الصادق (ع) قال : نحن الراسخون فى العلم ونحن نعلم تاويله (بح۲۳ ص۱۹۸ ح۳۱)

وفى الحديث ۳۳ من ص۱۹۹ عن احدهما (ع) فرسول الله افضل الراسخين فى العلم ، قدعلمه الله جميع ماانزل عليه من التنزيل والتاويل ... واوصيائه من بعده يعلمونه كله آه ، فهذه الاخبار بنفسها او بمعونة الايات السابقة ، تدل على ان الامام عالم بالاحكام عارف بالفنون .

الرابع قوله تعالى :(ثم استوى على العرش) يدبر الامر، فان المراد بالاستواء على العرش ، تسلطه تعالى على اوضاع مملكة الوجود ، وذكر التدبير بعده لبيان ان من آثار السلطنة على الشيء تدبير اموره وتنظيم شؤنه، فالله تعالى يدبر امور جميع الخلق فى مختلف جهاته ، والامام عليه ان يدبر امر رعيته فى جهاته المرتبطة بهم ، فيجب ان يكون عارفا بفنونها .

وفى نهج البلاغة ولايحمل هذا العلم الااهل البصيرة والصبر والعلم بمواضع الحق، فامضوا لماتؤمرون وقفوا عند ماتنهون عنه (خ ۱۷۳ ص ۲۴۷) نهج اللبنانى .

وقال ايضا: ايها الناس ان احق الناس بهذا الامر اقواهم عليه، واعلمهم بامر الله فيه، والمراد بهذا الامر امر الولاية على الامة والخلافة الالهية بتعيين الرسول .

وفى النهج ، فى كتابه الى الاشتر النخعى ره (كتاب ۵۳) انى وجهتك الى بلاد قدجرت عليها دول قبلك من عدل وجور ... الى ان ذكر (ع) فى الكتاب مايدل على وفور علمه فى تدبير الامور وكمال اشرافه على الاوضاع، وتسلطه على شؤن السياسة والرئاسة .

وهذا القسم من العلم هو الاهم اللازم معرفته لمن اراد الاطلاع على شروط الخلافة واوصاف الامام ، وهو العلم النافع بحال الامة .

والمناسب لحال زعيمها ، ومدبر امورها والمتصدى لنظمها واصلاح حالها لامايذكر فى بعض الكتب اوفيمابين الناس من ان الامام هل يعرف عدد الشوك والشجر اوالحجر والمدر ، اوالشعر والوبر ، اوانه هل يعلم عدد شعر رأس كل احد عند ملاقاته اوعدد الطوب المصروف فى كل بناء اذا اراد الدخول فيه ونحو ذلك

الشرط الخامس. زهده عن الدنيا وليعلم ان فى معنى الزهد خفاء ، فقد يتخيل انه ترك الدنيا والاشتغال بالعبادة مثلا، لكن الظاهر انه ليس المراد بها ترك تحصيل الدنيا من جاهها ومالها وامتعتها وملاذها، اوالاعراض عما كان منها حاصلا موجودا واتلافه وتضييعه ، فان ذلك كله ينافى ما ورد متواترا من جواز تحصيل الدنيا بل واستحباب ذلك ، او وجوبه احيانا ، وانه خلق الله ذلك للانسان ولاجل عيشه وحياته .

قال تعالى: هو الذى ماخلق لكم فى الارض جميعا (٢٩ـ البقرة) اى لاستفادتكم وانتفاعكم .

وقال تعالى :

قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق .

(٣٢ ـ الاعراف)

والمراد بالزينة هنا جميع لوازم العيش الانسانى ووسائل حياته كما قال تعالى: انا جعلنا ماعلى الارض زينة لهالنبلوهم ايهم احسن عملا (٧ ـ الكهف) .

وقال تعالى : فكلوا ممارزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله .

(١١٤ ـ النحل)

والمراد بالاكل هنامطلق التصرف لعموم الموصول فى مارزقكم ، وشموله لجميع مايعيش به البشر ويكون وسيلة لبقائه .

وقال تعالى: ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات

(٧٠ - الاسراء)

وقال تعالى : هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور .　(١٥ - الملك)

وقال تعالى : والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين .　(٢٠ - الحجر)

وقال تعالى: ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش .

(١٠ - الاعراف)

وقال تعالى : هو الذى انزل لكم من السماء ماءاً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ... وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا الوانه .　(١١ - ١٢ - النحل)

وقال تعالى: الم تر ان الله سخر لكم مافى الارض والفلك تجرى فى البحر بامره

(٦٥ - الحج)

وقال تعالى : ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التى جعل الله لكم قياما .

(٥ - النساء)

وقال تعالى : وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين .

(٣١ - الاعراف)

وقال تعالى: وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين .　(٢٧ - الاسراء)

فاذا علمنا ان تحصيل وسائل العيش فى الدنيا حلال للانسان بل امر مطلوب مرغوب فيه ، وكذا انتفاعه بماحصله وصرفه فيما يمتع به ويستلذ . علمنا ان المراد بالزهد المطلوب للشرع المحثوث عليه فى الكتاب والسنة ، ليس ذاك المعنى ، بل يظهر بالتأمل ان ذاك معنى مختلق تخديرى ، انشأته ايادى الاستعمار فى البلاد

الاسلامية صرفا للمسلمين عن الانتفاع اللائق باراضيهم ومعادنهم ، وسائرمامنحه الله لهم ، ومنعا من قدرتهم ورقاهم وتقويهم (ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين ان ينزل عليكم من خيرمن ربكم) .

وتؤيد الايات السابقة ماوردمن الاحاديث الكثيرة جدا المتظافرة المتواترة الحاثة على التكسب والتجارة، واحياء الاراضى، واجراء العيون والانهار،وغرس الاشجار واقتناء الانعام، والدواجن وغيرذلك .

فالزهد بذاك المعنى شجرة خبيثة اصلها الاستثمار وفرعها الذلة والانحطاط والظاهر انه ليس له معنى اصطلاحى شرعى او متشرعى ، فهو مستعمل فى معناه اللغوى وهو الرغبة عن الشيء وتركه، ويتوقف اتصاف معناه بالحسن والقبح على ملاحظة حال متعلقه.

ولا اشكال فى كون متعلقه الدنيا، فالشرط المبحوث عنه فى المقام الزهد عن الدنيا، فاللازم فى المقام معرفة معنى الدنيا وهى على ما يستفاد من السبرفى الايات والسنة على معان، اشهرها انها انتفاع الانسان بهذه الارض وما عليها، و استمتاعه بقواه المختلفة فى هذا العالم .

و هذه الانتفاعات على اقسام ثلاثة ، الانتفاعات المحرمة الممنوعة شرعا ، و المباحة الجائزة ، و الواجبة اللازمة ، اى ماكان بقدر الحاجة و الضرورة من حلالها .

وح فنقول ان ترك القسم الاول فى الدنيا والاعراض عنه زهادة بمرتبتها الناقصة وترك الاول والثانى زهادة بمرتبتها الكاملة.

ثم ان الدرجة الاولى من الزهد وظيفة اخلاقية عملية لازمة المراعاة لكل مؤمن، فهى من شرائط الايمان او كماله.

واما الدرجة الثانية فهى التى ادعينا كونها شرطاً فى امام الامة وخليفة المسلمين فحقيقة هذا الشرط عدم اعتنائه بشأن الدنيا ورغبته عنها وعن الاشتغال بالترفه والتنعم

لاعدم وجودها عنده و ترك تحصيلها من حيث امره الله وصرفها فيما عينه ، كيف وقد جعل الله له حقوقا فى اموال الناس ، ومنحه خمس الغنائم، ووهبه الانفال ، وله غير ذلك من الافادات ، فتحصيلها و جبايتها و جعله تحت يده او فى ملكه امر ، والزهد عنها امر آخر، والاول مأمور به ، والثانى منهى عنه، فتكون نتيجة تحقق الامرين فى الامام ان تصرفها فى مصارفها المعينة المقصودة، واجرائها فى مجاريها لتحيى بذلك العباد وتعمر بذلك البلاد وليعدوا لاعدائهم ما استطاعوا من قوة وعتاد

والدليل على هذا الشرط .

اولا ما علم مما ذكرناه، فانه بعد ان فوض الله اليه تلك الاموال والغنائم،فلو كان محبا لها حريصا على التمتع بها، لايمكنه ان يجعلها فى سبيل الاغراض المطلوبة منها، بل يخل ذلك بسائر شئونه ،ايضا، لسقوطه ح عن اعين الناس، فلا يستمعون اليه ولا يتبعونه، فمن اللازم ان لايكون محبا لها مولعا بها معتنيا بشأنها ، و هذا هو الزهد الذى ذكرناه .

و ثانياً انه مقتضى الجمع بين طائفتين من الادلة، احديهما مادلت على ان للامام الخمس والانفال وغير ذلك من الاموال كآية الخمس :

واعلموا انما غنمتم من شيىء فان لله خمسه وللرسول و لذى القربى .

(۴۱- الانفال)

وكآية الفيء الواردة فى بنى النضير: ماافاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى (۷- الحشر)

وكآية الانفال : يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول (۱- الانفال)

فهى دالة على ان خمس الغنائم بمعناه الاعم اى الامور السبعة المذكورة فى باب الخمس من الفقه ، خمس القرى التى تركها بنو النضير ، و تمام الانفال وهى امور كثيرة للامام (ع) .

وثانيتها نظائر قوله تعالى :

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا. (۲۸ الكهف)

اى لا تتجاوز عيناك عن المؤمنين نحو زينة الدنيا بان تحبها و تميل الى التمتع منها .

وقوله تعالى: ولاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى. (۱۳۱- طه)

ويقرب منها الاية (۸۸- من الحجر)

ومد العين نحو الشىء معلوم، وهو هنا كناية عن الحب والميل، والمراد بما متعنا نوع المتاع لاشخصه، فالمراد لاتكن ممن يطلب الانتفاع بزهرة الحياة، كما هو حال اعدائك من الكفار .

وحاصل الجمع ان الله اعطاهم الاموال الكثيرة، كما منحهم الجاه العظيم والمقام الرفيع ومنعهم عن اكثار التمتع بها والحرص عليها والولع بها وهو معنى الزهد

وثالثا: ماوصل الينا بالتواتر واخبار الكتاب العزيز من حالات النبيين والمرسلين واوصيائهم عليهم السلام، فانها تدل على كمال مواظبتهم على الاعراض عن الدنيا، وعدم الرغبة فيها، والتجنب عن الركون اليها ، والاستلذاذ بامتعتها .

فعن مولانا اميرالمومنين (ع) قال (نهج البلاغة خ۱۶۰): فتأس بنبيك الاطيب الاطهر (ص) ، قضم الدنيا قضما، ولم يعرها طرفا اقضم اهل الدنيا كشحا واخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الدنيا فابى ان يقبلها وعلم ان الله ابغض شيئا فابغضه وحقر شيئا فحقره وصغر شيئا فصغره،

القضم اخذ الشىء باطراف الاسنان واكله، و هو كناية عن قلة المأخوذ ، وقد عبر (ع) عن فعل النبى (ص) بالقضم، وعن فعل عثمان فى الخطبة الشقشقية بالخضم قال يخضمون مال الله خضم الابل، نبتة الربيع، والخضم ضد القضم، و هو الاكل بملاء الفم .

وقال (ع) : وان‌شئت ثلثت بداود صاحب المزامير،وقارى اهل الجنة،فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه ايكم يكفينى بيعها، ويأكل قرص الشعير من ثمنها .

وعن النبى قال لابن مسعود: (وان شئت نبأتك بامر سليمان، لما كان فيه من الملك، كان يأكل الشعير ويطعم الناس الحوارى، وكان لباسه الشعر، و كان اذا جنه الليل شد يده الى عنقه ، فلا يزال قائما يصلى حتى يصبح ، و ان شئت نبأتك بابراهيم خليل الرحمان (ع)، كان لباسه الصوف وطعامه الشعير.

(سفينة البحار كلمة زهد)

ورابعا قول على (ع) (لعاصم بن زياد لما لبس العبائة وتخلى عن الدنيا) ياعدى نفسه لقد استهام بك الخبيث، اما رحمت اهلك وولدك، اترى ان الله احل لك الطيبات ، و هو يكره ان تاخذها ، انت اهون على الله من ذلك ، قال يا امير المؤمنين هذا انت فى خشونة ملبسك وجشوبة ماكلك،قال ويحك انى لست كانت ان الله فرض على ائمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره

(نهج خ٢٠٩ ص٣٢٥)

وخامسا قوله (ع) فى دعاء الندبة: اللهم لك الحمد على ماجرى به قضائك فى اوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك اذا اخترت لهم جزيل ما عندك ... بعد ان شرطت عليهم الزهد فى درجات هذه الدنيا الدنية و زخرفها و زبرجها فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به. (المفاتيح)

تنبيهات . الاول قديتوهم مما ذكرناه ان الاموال المجعولة تحت يد الامام ملك للامة وليست للامام او انها وان كانت ملكا له لكن لايجوز له التصرف والانتفاع بها بمقتضى ماشرطه معربه ، فيكون المورد من قبيل الانتفاعات المحرمة والزهد فيه زهدا بمرتبته الناقصة وهوخلاف الفرض .

لكنه باطل اولا بعدم اختصاص اموال الامام بالخمس والانفال ، بل قد يحصل له بالتكسب والاحياء والتوراث

وثانياً بانه لا اشكال فى كون الخمس والانفال ونحوهما من الاموال ملكا للامام (ع) بعنوان رئاسته العامة وامامته وزعامته للامة الاسلامية . و هذا غير بيت المال الذى هو ملك للمسلمين ويشهد بذلك قوله تعالى :

فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل:
(۴۱ ـ الانفال)

فان ظاهر اللام الملكية ، ولذلك قد يستظهر من عطف الطوائف الثلاث الاخيرة بدون ذكر اللام ، انهم من قبيل المصارف لا الملاك وكذلك قوله تعالى : قل الانفال لله والرسول (۱ـ الانفال)

والروايات الواردة فى ابواب الخمس تدل على ذلك، فراجعها واما خروج المورد عن الفرض اى كون الزهد فيه اعراضا عن الانتفاعات المحللة ، فهو باطل ايضا فانه اذا فرضنا كون الاموال ملكا له فلا محالة يترتب عليها آثار الملكية من جواز التصرف والانتفاع ، والنهى المتعلق بارادة زينة الحياه ، او بمد العين الى متاع الحياة وزهرتها ، نهى شرطى لا مولوى ، كما ان الايجاب المستفاد من كلمة الفرض فى قوله تعالى:

(ان الله فرض على ائمة العدل اه) ايجاب شرطى، فتلك الادلة تساوق فى المعنى مع قوله (ع) :بعد ان شرطت عليهم الزهد ، ويكون حاصل المطلب ان الزهد الكامل من شرائط النبوة والامامة

كما يظهر من دعاء الندبة، فلو لم يعمل به النبى او الامام سقط عن مرتبة النبوة او الامامة ، لانه عمل محرما من المحرمات كما فى الزهد الناقص هذا ولكن من المعلوم المقطوع به ان الاولياء لا يخالفون شرطهم، ولم يتحقق الى الان مورد صدرت المخالفة ولو من واحد منهم ويشهد بذلك قوله (ع)

وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقربتهم وقدمت لهم الذكر العلى والثناء الجلى

لا يقال يظهر من التواريخ وبعض الروايات ان الائمة (ع) كانوا يستفيدون من الدنيا

ويتمتعون منها، فكانوا(١) كغيرهم من اوساط الناس بل وازيدمن ذلك واحسن فكيف التوفيق بين ذلك وماذكرت من شرطية الزهد

لانا نقول على فرض ثبوت تلك الدعوى انهم (ع) كانوا يقابلون احيانا اهل التصوف ومدعى الزهادة عن الدنياومافيها ، وكانوا يرون خطر الامر ووخامة العاقبة لومال الناس اليهم و سكن المسلمون فى زوايا البيوت والمساجد ، و اقبلوا الى العبادة والترهب ، ولم يشتغلوا بما اوجب الله عليهم من تحصيل المعاش وماالزمهم به من اعداد القوى للمقابلة مع الاعداء، فيميل عليهم الكفار ميلة واحدة ، ويقطعوا اصلهم ويقلعوا عرقهم، وكان من هذا القبيل ما صنعه الباقر والصادق (ع) فى مقابل الحسن وعبادالبصرى ونظائرهم واشباههم

مع ان الشرط الذى ذكرناه انما هو فى الامام المتمكن من تصدى الامور ، والواجد لشرائط الزعامة لا الممنوع عن حقه ، و المسجون فى السجن اوجوف بيته ، والا فحاله ح كحاله سائر الناس بالنسبة الى شئون الزعامة واحكامها ، فهو كالمنسلخ عن مقامه لا يترتب عليه غالب احكامه ، كماكان محروما عن سائر شئون الرئاسة .

التنبيه الثانى فى ذكر امـوال الامـام و مـاجعله الله تحت يده ممـا يتعلق بنفسه الشريفة ومايتعلق بالمسلمين ، فاعلم ان للامام (ع) من حيث انه قد فوض الله اليه زعامة الناس ، ورئاسة الامة ، وتدبير الامور ونظم المجتمع الاسلامى ، وتجنيد الجند لدى الحاجة ، والجهاد مع الاعداء ، والدفاع عن حوزة الدين ، اعدالله له اموالا ، وجعلها تحت يده واختياره ، سوى الاموال الشخصية التى تملكها بالحيازة والاحياء والارث ونحوها ، فمنها ما هو ملك له ، ومنها ماهو ملك للمسلمين مفوض امره اليه من حيث الاخذ والجباية ، والصرف فى مصارفه المقصودة

فاما ما هو ملكه (ع) فقسمان:

---

(١) يأكلون ويشربون ويلبسون

اولها الخمس وهوالمأخوذ من الغنائم السبع التالية (الاول) غنائم دارالحرب وهى امور.

١ - الاموال المنقولة التى حازها العسكر باذن الامام (ع)

٢ - ما تسلطوا عليه من الاناسى من الرجال والنساء والصبيان .

٣ - الاراضى العامرة حال الاستيلاء.

٤ - الاراضى الميتة الغامرة حال الاستيلاء.

٥ - ماصالحوا عليه من الكفار واخذوه منهم صلحا

٦ - فدية الاسراء الذين افتدوا انفسهم بالمال.

٧ - السلب اذالم يشترط العسكر اخذه لانفسهم .

الثانى المعدن بجميع مصاديقه واقسامه .

الثالث : الكنز وهو المال المذخور تحت الارض اوفى الجبل ، او الجدار اوالشجر . من النقدين وغيرهما .

الرابع الغوص اى ما يخرج من البحر و النهر الكبير من الجواهر والاحجار الكريمة والعنبر غير الحيوان.

الخامس المال الحلال المخلوط بالحرام بحيث لايعلم مقداره ولاصاحبه .

السادس الارض التى اشتراها الذمى من المسلم .

السابع مازاد من مؤنة سنة الشخص من ارباح مكاسبه .

وثانيها الانفال وهى ايضاً على اقسام .

الاول الارض التى لم يوجف عليها بخيل ولاركاب ، سواء انجلى اهلها ، او اسلموها للمسلمين طوعا .

الثانى الاراضى الموات التى لم يعلم لهاصاحب .

الثالث : سيف البحار وشطوط الانهار.

الرابع رؤس الجبال وبطون الاودية والاجام.

الخامس قطائع الملوك وصفاياهم .

السادس: صفو الغنيمة كفرس جواد وجارية حسناء، وثوب مرتفع و سيف قاطع .

السابع الغنائم التى ليست باذن الامام (ع) .

الثامن ارث من لاوارث له .

التاسع المعادن التى ليست لمالك خاص ، هذا ، وكثيراً ما يطلق على هذين القسمين مال الامام، وعلى المحل المدخر فيه القسمان بيت مال الامام ،

ثم ان الظاهر ان الجميع ذلك ملك بعنوان رياسته العامة ، لابما انه شخص خاص فينقل بعد ارتحاله الى من هو امام بعده من ورثته لاجميع الوراث ، وليس كاملاكه الشخصية التى تملكها بالتكسب ، او الاتهاب اوالارث مثلا فانها تنتقل الى جميع الورثة ، ولو فرض انتقال شيىء من تلك الاموال الى الورثة ، فهو مختص بالعوائد المأخوذة و بعض فوائدها المقبوضة ، لااصولها الناتجة وفروعها الحاصلة بعدموته(ع)

واما ماهو ملك للمسلمين ، فهو اقسام كثيرة .

١ - منها الزكوات المأخوذة من الأشياء التالية: النقدين - الانعام الثلاثة - الغلات الاربع .

٢ - ومنها الاراضى المفتوحة عنوة ، فانها بنفسها للمسلمين مع قطع النظر عن ان فوائدها للمسلمين، فلوجاز فى مورد بيعها كما قد يتفق، فثمنها يجعل فى بيت مال المسلمين .

٣ - ومنها الخراج والمقاسمة المأخوذتان من اهل تلك الاراضى، والاولى هى الضرائب على الرئوس اوعلى الاراضى اوعلى المواشى، والثانية هى مايؤخذ من نفس الغلات والفوائد .

٤ - ومنها عوائد الاوقاف العامة التى وقفها اهلها ليصرف درها فى المبرات.

٥ - ومنها النذور العامة ،كان نذر صرف مال معيين فى وجوه البر.

۶ - ومنها الاموال المجهول مالكها من ارض ودار وغيرهما .

۷ - ومنها اللقطة مطلقا من حيوان وغيره .

۸ - ومنها الكفارات ككفارة القتل عمدا أوخطأ ، وكفارة حنث النذر والعهد واليمين ، وافطار شهر رمضان وغيرها .

التنبيه الثالث فى بيان مصارف الاموال التى بيد الامام وتحت استيلائه، فنقول اما املاكه الشخصية غير الخمس والانفال ، فحكمه (ع) بالنسبة اليها كحكم سائر الناس فى التسلط والتصرف، غير ان الاقوى شمول ماذكرنا من ادلة اشتراط الزهد لها ايضا .

واما امواله بعنوان الامامة والرئاسة، فحكمها ومصرفها ظاهر بعد ملاحظة امور.

۱ - كثرة تلك الاموال جداً بحيث لايمكن القول بأن الغرض من تمليكها للامام ادارة عيشه بشخصه ، او مع عائلته واقاربه واضيافه ، بل وقبيلته من اليتامى والمساكين وابن السبيل .

۲ - اشتراط الزهادة له بما عرفت بحيث كانت النتيجة قناعته على قدر الضرورة من المعيشة ، وتقدير نفسه بضعفة الناس وطبقتهم السفلى .

۳ - كون اعطائه وبذله لها بعنوان رئاسته للامة وزعامته للمجتمع وادارته رحى حياة الامة بانواع فرقهم وشتى اصنافهم ومختلف شئونهم وحوائجهم .

فينتج التأمل فى ذلك ان مصارف تلك الاموال بعد اخراج مؤنته الشخصية المقتصدة وتكفل مؤنة قبيلته من بنى هاشم، من ايتامهم وفقرائهم وابن سبيلهم، هى الحوائج المرتبطة بذاك المنصب العظيم، وهى حوائج المجتمع عموما، ومصالح الامة طرا، وصرفها فى اصلاح حالهم ورفاه عيشهم فى الدنيا ، وهدايتهم الى كمالهم اللائق بهم و تربية نفوسهم ، و تكميل عقائدهم ، وتصفية ارواحهم ، وتحسين اعمالهم، ليرتقوا فى درجات الانسانية والكمالات المعنوية والفضائل الباطنية اعلاها وارقاها وافضلها واغلاها .

ويستفاد من الاية الشريفة ايضا الفرق بين الامام والطوائف الثلاث بالنسبة الى هذا المال، وذلك لذكر اللام فى الاول ، وتركها فى الثانى ، وليس ذلك الا لكون الامام مالكا ، وتلك الطوائف من قبيل المصارف ، وحيث ان مؤنة الجميع اعنى نفس الامام وعيالاته ، وتلك الطوائف لاتطابق الاموال المعدة لها، بل تخالفها بكثير، علمنا انه يجب على الامام اولا اخراج تلك المؤن، و اعطاء الطوائف مايكون كفافا لحالهم، ثم صرف الباقى فى المصارف المذكورة .

ويشهد لماذكرناه عدة روايات فى باب الخمس فراجع .

ثم انه لايتوهم عدم الحاجة الى صرف اموال الامام (ع) فى الموارد المذكورة فان بيت مال المسلمين كاف فى اصلاح امورهم وترميم نواقص عيشهم ، لان من الواضح اولا ان بيت مالهم بالقياس الى بيت مال الامام اقل قليل، بل نسبته اليه نسبة الواحد الى المأة أو الالف ، فهى لاتدير عيش المسلمين ولاتنظم امورهم، ولاتكفى لرفاه حالهم واصلاح بالهم .

وثانيا ان الزكوات والاموال المجهولة مالكها ، والكفارات واللقطة ، وما يماثلها ، تختص بطائفة معينة وهم الفقراء والمساكين ، والاراضى المفتوحة عنوة لايجوز بيعها الابشرائط خاصة ، والخراج والمقاسمة والاوقاف العامة لاتفى بشىء من الامور العامة الاجتماعية والهامة الاسلامية ، فالمتكفل لاصلاح حال الامة صلاحا يوافق مايليق برقاهم، ويناسب المقصود من تكاملهم فى دنياهم واخريهم، هو بيت مال الامام كما عرفت .

التنبيه الرابع فى بيان حقيقة ولاية الامام وانها على الانفس والاموال جميعا؟ أو على الانفس فقط ؟ أو على الاموال فقط ؟ وذكر شيىء من احكامها ومايدل عليها.

فاعلم ان الولاية وهى بمعنى التسلط على شيىء وتدبير امره على اقسام .

١-منها الولاية التكوينية التامة، كولاية الله تعالى وسلطانه على جميع الموجودات

٢-ومنها الولاية التكوينية الناقصة كسلطان الروح على الاعضاء، وهذا احسن

مثال موضح وكاشف عن ولاية الرب تعالى، اذلاتريد النفس امرا وتحركت العضلة المتناسبة له نحوه ، الاان يوجد مانع وقاسر، وهومعنى نقضها، فانه لايمكن وجود مانع عن تمشى ارادة الله التكوينية .

٣-ومنها الولاية التشريعية الكاملة، وهى التى ندعى ثبوتها للنبى والائمة (ع) فى مقابل الولاية التشريعية الناقصة كولاية الاب على الاولاد وكذا الجدوالقيم المنصوب من قبلهما ، وولاية الحاكم على القصر والغيب - فان كلها ناقصة بالاضافة الى ولاية المعصومين (ع) التشريعية :

وهذه الولاية امراعتبارى وحكم وضعى انشائى قابل للجعل وتابع لانشاء من بيده الامر ، كالمناصب المجعولة من قبل السلطان على عمال البلاد ، وكالملكية والزوجية ونحوهما ، فللنبى والامام ولاية تشريعية تامة مجعولة من الله تعالى تشبه ولاية الاب لولده، ومن آثارها نفوذ أوامره ونواهيه فى حق المسلمين ، و وجوب طاعتهم له فى جميع ما احبه واراده ، بل و وجوب وقاية نفسه الشريفة بانفسهم عندالمخاطر ، ولزوم حبه اشد من حبهم انفسهم ونحوذلك ، والدليل على ثبوت هذه الولاية امور :

الاول قوله تعالى : النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم : (۶ - الاحزاب)

و معنى الاية انه لااشكال فى ان للمؤمن بما انه انسان ذوعقل واختيار،ولاية على نفسه يتصرف فيها كيف يشاء ، فيمضى ماتشتهيه من المحاب ، وينفذ ماتريده من الافعال، وولاية النبى عليه اقوى وارجح من ولايته على نفسه ، بحيث يلزمه ان يقدم مااحبه على مااحبته نفسه ، ومااراده على ماارادته نفسه، فتدل الاية الشريفة بالمطابقة على المدعى ، وهو ولاية النبى على النفوس .

ثم انه اذا ثبت الولاية التشريعية للنبى الاعظم ، فهى تثبت لامحالة للامام بعده باخبار كثيرة متظافرة عن اهل البيت(ع) ، ومنها الحديث المتواتر بين الفريقين

(من كنت مولاه فعلى مولاه) بالنسبة الى امير المؤمنين

الثانى قوله تعالى : (وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله و رسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم (٣٦ الاحزاب)

بتقريب ان المراد بالامر هنا الامور المرتبطة بالاشخاص بانفسهم او باجتماعهم لا الاحكام الشرعية المتعلقة بهم ، و ذلك بقرينة اضافة الامر اليهم ، فان الاحكام الكلية الالهية لايصدق عليها انها امرهم وفعلهم، بل هى امر الله تعالى وفعله ،وكذا بقرينة ذكر الرسول فانه لو كان المراد به الاحكام الشرعية لم تكن لاحد بعد قضائه الخيرة، سواء فى ذلك الرسول وغيره ، فمحصل معنى الاية انه اذا حتم الله و رسوله فعلا من الافعال يتعلق بالمؤمنين كلا او بعضا ، والزمهم بذلك ، كان امرهم بالخروج الى حرب ، او بالتوطن فى مدينة معينة ، اوبان يطلقوا ازواجهم ، او ينفقوا من اموالهم فى سبيل خاص ، لم تكن لهم خيرة بعد ذلك . بل يجب عليهم التسليم والانقياد والطاعة و العمل ، و هذا المعنى من آثار الولاية التشريعية ، فتدل الاية بالدلالة الالتزامية على الولاية التشريعية للنبى ، وتتم فى الامام بضميمة ما ذكرناه من الادلة ، وبعدم القول بالفصل من علماء التشيع ، بل القول بعدم الفصل فى ذلك.

ولايخفى ان هذه الاية تغاير فى المرمى الاية (٦٨ من القصص) ، وهى قوله تعالى : (وربك يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخيرة) فانها لا تدل على المدعى كما توهم فانه يمكن ان يكون متعلق الاختيار فيها ، تدبير الخلق او جعل الاحكام وتشريع الشرايع

والمعنى ان الله يخلق من الخلق ما اراد ، ويختار فى تدبيره ما هو الاصلح، و ينشأ من الشريعة ما شاء ، ولاخيرة لاحد فى ذلك ،كما قال : له الخلق و الامر (٥٤ الاعراف)

وقال : الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى (٥٠ طه) ولذلك لم يذكر النبى (ص) فيها .

الثالث قوله تعالى : انما وليكم الله ورسوله و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون

وتقريب الاستدلال ان الولى كما عرفت هوالمتسلط على الشخص اوالشىء المتصرف فيه المدبرلامره ، والاية تثبت المعنى المذكور بعد اثباته لله و رسوله لكل طائفة كان فيها و صفان ، اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة حالة الركوع ، وح فلواريد الوصفان بنحوالموضوعية والحيثية التقييدية لينطبق على كل واجد لهما و انبلغ الوفا وملايين فهوامرباطل قطعا ،مع ملاحظة ما يترتب عليه من تسرى الاهواء المختلفة فيه ، ووقوع الاختلاف كثيربين الامة بذلك

فنستكشف منه كون المراد الشخص اوالاشخاص المعينين الموجودين فى زمان نزول الاية ، وقد ورد فى اخبار الفريقين ان الاية نزلت فى حق على بن ابى طالب عليه السلام ، فيتعين بالولاية ، مع انه لااشكال فى كون على عليه السلام ، داخلا فى الآية ، ودخول غيره يحتاج الى احراز شرط الامامة فيهم ، وعدمه معلوم عندنا .

ثم ليعلم ان الولى فى هذه الاية قد استعمل فى الاعم من التكوينى والتشريعى فولاية الله تكوينية ، وولاية الرسول والائمة عليهم السلام تشريعية ، وقد ظهرايضا ان دلالة الاية على الولاية بالمطابقة ، فانها ظاهرها فى اثبات نفس الولاية ، اعنى الحكم الوضعى التشريعى القابل للجعل والتشريع ، وليست بالالتزام كآية القصص.

الرابع قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعواالرسول واولى الامرمنكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر(۵۵ النساء)

لايخفى عليك ان طاعة الله تعالى عبارة عن امتثال احكامه والعمل بماانزله على رسوله واخبربه النبى وبلغه ، فيدخل فى ذلك امتثال الاوامر والنواهى الشرعية كلها ، واما طاعة الرسول ، فان كان المراد بها طاعته فى اوامره و نواهيه الشرعية

الارشادية ، فهى راجعة الى طاعة الله بل هى عينها غير ان نسبتها الى الله بالاصالة والى الرسول بالتبع

وهذا يكون كالتكرار ، فلابد من ان يكون المراد طاعته فى اوامره ونواهيه الشخصية المنشأة من قبله لمصالح نفسه اومجتمعه ، كان يامر بشراء شىء او بيعه او بتجنيد جند اونحو ذلك ، وهذا القسم هو الاوامر والنواهى الحقيقية للرسول (ص) فاذا وجب طاعته فيه كان دليلا على ولايته على النفوس ، فالاية تدل بالدلالة الالتزامية على تحقق الولاية التشريعية فى حق النبى (ص) وتثبت فى الائمة (ع) بالبيان السابق مع انه يكفى فى اثبات المطلوب وجوب الطاعة بنفسه

ويدل على المطلوب ايضاً قوله تعالى : (واولى الامر منكم) فاوجب الله تعالى طاعة اولى الامر، والامر اما بمعنى الطلب الاكيد ، او بمعنى الفعل والشأن .

والمراد بالفعل هنا ليس مطلقه ، بل الفعل الذى من شأنه ان يرجع فيه الى رئيس القوم وزعيم الملة سواء كان امرا ماليا او اجتماعيا او سياسيا ، كاقامة الجمعة والتصرف فى اموال الايتام ، والتصرف فى اموال الغائبين ، وتعيين القيم للصغار واجبار الممتنع عن اداء الحق ، و تطليق زوجة الغائب ، و اخذ اللقطة و مجهول المالك ، وتعيين المتولى على الاوقاف او عزل متوليها ، وجباية الزكوات ، وجمع الاخماس والانفال، وجباية الخراج والمقاسمة والحكم بافلاس المفلس ، والحكم برؤية الهلال اى باول الشهر او آخره، وتعيين القاضى للبلاد ، و عزل القضاة فى صورة المصلحة ، وتعيين العمال لسائر الامور اللازمة ، واجراء الحدود والتعزيرات وتهيئة الجند والعتاد ، ونصب الرئيس على العسكر ، واخذ الجزية من اهل الذمة والتصدى لعقد الجزية وتعيين شرائطها والمصالحة مع الكفار عند اللزوم ، والامر بالجهاد ابتداء للدعوة الى الاسلام : وغير ذلك

وعلى اى تقدير اما ان يراد به صاحب الامر والنهى ، او صاحب الشان من هو كذلك عرفا وفيما بين الناس ، اومن جعله الله صاحب امر او شأن ، فان فرض

الاول لزم القول بان الله اوجب طاعة الظلمة والطواغيت والشياطين المتسلطين على النفوس والاموال ، كمعوية وابنه ، والرشيد والمأمون ونحوهم ، فانه لااشكال فى انطباق تلك العناوين عليهم مع انطباق عنوان اولى الامرعليهم عرفا، وح فهل يمكن الجمع بين انيكون احد من اولى الامرعرفا، فتجب طاعته مقرونا بطاعةالله و طاعة الرسول ، وان يكون طاغوتا امرالله الناس بالكفر به والاجتناب عنه ، و شيطانا حرم اتباع خطواته ، ويحصل الخسران من اتخاذه وليا، وقد عهدالله الينا الانعبده، قال تعالى : ويريدون انيتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به (۶۰ النساء)

وقال : ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (۳۶ النحل) .

وقال : فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى (۲۵۶ البقرة)

وقال : ولاتتبعوا خطوات الشيطان (۲۰۸ البقرة) .

وقال: ومن يتخذ الشيطان وليامن دون‌الله فقد خسرخسرانا مبينا (۱۰ النساء)

وقال : الم اعهد اليكم يابنى آدم الاتعبدوا الشيطان (۶۰ يس)

وح فلابد من كون المراد بأولى‌الامرمن‌جعله الله كذلك ومنحه هذاالمنصب الخاص، ولابد من‌وجود المصداق له من حين ارتحال النبى الاعظم الى اخرازمنة بقاء الامة الاسلامية ، والخطاب المتوجه اليهم بهذه الاية ، ولايصدق على الخلفاء الثلاث قبل على (ع) ، للاجماع من اهل السنة والشيعة على عدم نصبهم من الله ، وعدم التنصيص بكونهم اولى الامر، اذافلانجد لهم مصداقا الاالثقل الاصغر الذى امرالنبى(ص) امته بالتمسك بهم‌وعدم التخلف عنهم .

ومن اوجب الله محبتهم على الامة وجعلها اجراً لرسالة رسوله ، ومن عنده علم الكتاب ، والذين يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا ، والذين‌هم نفس النبى وولده، والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهمراكعون، والذين

هم الراسخون فى العلم ، والذين هم خير امة اخرجت للناس، والذين ان مكنهم الله فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .

والذينهم لما استضعفوا فى الارض اراد الله انيمن عليهم فيجعلهم ائمة ويجعلهم الوارثين، والذين هم اهل الذكر الذين يجب سؤالهم، وبالجملة لم نجد مصداقا لهذه الايات الا الذين امر الله رسوله باظهار امامتهم بقوله :

ياايها الرسول بلغ ماانزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) .

مع انهم القدر المتيقن بين الفريقين، بعد العلم بعدم ارادة الخلفاء الثلاث ، لاعتراف الفريقين بعلمهم وتقواهم، وفضلهم وعلو مقامهم، مع انه لم يدع مقام الولاية غيرهم، ولم يأت بالمعجزات الكثيرة سواهم .

واماماذهب عدة من علماء اهل السنة ، بأن المراد بالاية ايجاب طاعة كل من يصدق عليه عرفا انه من اولى الامر ، الا انه مقيد بعدم مخالفة امره امر الله وطاعته طاعة الله، او فيما اذا امر بما امر الله به ونهى عما نهى الله عنه ، اذ لاطاعة للمخلوق فى معصية الخالق ، فهو كلام فاسد ، اذ لايختص ذلك ح باولى الامر ، بل يجب طاعة كل مؤمن ومؤمنة اذا امروا بما امر الله به ، ونهوا عما نهى الله عنه .

مع ان القول بان الله اوجب طاعة كل من تصدى لمقام السلطنة على الناس وجازاريكتها وتسنى له الركوب على اعناقهم. وان كان ذلك بقتل النفوس، واتلاف الاموال ، وارتكاب انواع الظلم والجور، وان فرضنا ذلك فى غير موارد عصيان الله ، بل فيما كان مباحا بالذات قبل تعلق امره او نهيه ، امر لايوافق روح الاسلام وحرية قوانين الدين، وشدة وقوع النكير فيها على الظالمين والجائرين والفاسقين، والحث الاكيد على الاعراض عنهم واجتناب طاعتهم ، والنهى الشديد عن اطاعة امر المسرفين و المفسدين ، الشامل باطلاقه لاغلب موارد طاعتهم .

الخامس الدليل العقلى وهو مركب من مقدمتين .

الاولى ان النبى والائمة (ع) وسائط الرحمة والفيض بين الله تعالى وبين

خلقه فيهم افاض الله الوجود على الاشياء، وبيد هم اجرى العلوم والحقائق على ذوات العقول .

الثانية ان شكر المنعم لازم واجب بحكم العقل السليم وقضاء الفطرة الصحيحة فتكون النتيجة وجوب طاعتهم فى كل ماامروا به عقلا بعين ماحكموا به فى طاعة الله وطاعة الابوين .

امابيان المقدمة الاولى. فهو انه وان كان لااشكال فى عدم دخل النبى والائمة فى خلق العالم ، ولافى تدبيره بعد الخلق بنحو العلة التامة ، او السببية الناقصة ، فنسبة الخلق او التدبير اليهم باطلة قطعا ولاقائل بها من الشيعة الامامية، ولعل القول بها نشأ عن الغلاة و المفوضة ، بل مقتضى ظواهر الايات القرآنية و صريح احاديث الباب ، انتساب خلق الموجودات كلها، وايجاد العالم وابداعه ثم تدبير الامر فيه وحفظ نظمه وادارة رحاه الى الله تعالى ، فالخلق يصدر منه تعالى بارادته التكوينية المستقلة ، والتدبير بامره ووساطة الملائكة الموكلين ، وهم المدبرات امراً ، والمقسمات امراً ، كما قال تعالى فى جهة الخلق .

الا له الخلق والامر (۵۴ الاعراف) .

وخلق كل شيء فقدره تقديراً (۲ الفرقان) .

انا كل شيء خلقناه بقدر (۴۹ القمر) .

ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام (۳ يونس)

خلق الليل والنهار والشمس والقمر (۳۳ الانبياء) .

وماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق (۸۵ الحجر) .

وخلق الازواج كلها مماتنبت الارض ومن انفسهم (۳۶ يس)

ومن كل شيء خلقنا زوجين (۴۹ الذاريات) .

والله خلق كل دابة من ماء (۴۵ النور)

خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار (۱۴ الرحمن)

وماخلقت الجن والانس الاليعبدون (٥٦ الذاريات) .

والخيل والبغال والحمير لتركبوها (٨النحل).

والانعام خلقها لكم فيهادفء ومنافع (٥النحل) .

خلق لكم من انفسكم ازواجا. (٢١ الروم)

وجعل الظلمات والنور (١- الانعام) .

جاعل الملائكة رسلااولى اجنحة (١ - فاطر)

وقال تعالى فى التدبير

ومن يدبر الامر فسيقولون الله (٣١ يونس) .

ثم استوى على العرش يدبرالامر (٣يونس)

يدبرالامر من السماء الى الارض (٥السجدة) .

وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدراقواتها فى اربعة ايام (١٠فصلت)

الله خالق كل شيء وهوعلى كل شيء وكيل (٦٢ الزمر) ومعنى وكالته تعالى على كل شيء ، هى قيامه مقامه فى تدبير امره .

وماانزل من السماء ماء فأحيابه الارض بعدموتهاوبث فيهامن كل دابة (١٦٤ البقرة)

فأناخلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة (٥ - الحج)

هوالله الخالق البارىء المصور (٢٤ - الحشر) .

وبالجملة ليست الائمة علةفاعلية للخلق ولاللتدبير ، وهذاهو مراد من نفى الولاية التكوينية عن النبى والائمة ، فهى بمعنى كونهم فاعلاللخلق ولوبامرالله ، او فاعلا للتدبير كذلك ، غير ثابتة ، بل ظاهر الادلة كما عرفت عدمها ، مع غمض النظر عن انه على فرض الثبوت فهل تختص بنبيناو اوصيائه ، اوتثبت للانبياء الماضين ايضا ومع فرض تعدد الانبياء فى زمان واحد فهل تثبت لواحد منهم، اويشترك فيها الجميع وانه هل تثبت لهم فى جميع احوالهم ، اوفى حال اليقظة دون النوم وغير ذلك من المشاكل .

نعم للولاية التكوينية معنى آخر اشرنا اليه فيما سبق لايبعد القول بثبوتها لهم ، وهو ان لهم القدرة والتمكن فى ان يتصرفوا فى بعض الامور التكوينية ، ويوجدوا بعض الحوادث على خلاف مجراها الطبيعى ، ومن هذا الباب مايصدر منهم من الخوارق بنحو التصرف فى الموجودات .

وقد ثبت ذلك بالاخبار المتواترة اجمالا ، فلا بد من القول بذلك ، وهذه هى الولاية التكوينية التى قلنا بثبوتها لهم فيما سبق ، لكن الكلام فى حدود هذه الولاية وسعة دائرتها وضيقها ، فالقدر المتيقن منها ثبوتها بنحو الموجبة الجزئية لا الكلية ونظير ذلك علمهم بالموضوعات الغيبية ، فانه لا اشكال فى انهم كانوا عالمين بها فى الجملة ، لورود اخبار متواترة حاكية عن ذلك لكن على اجمال فى حدوده ، فالمتيقن ثبوته بنحو القضية المهملة لا الموجبة الكلية ، هذا كله بالنظر الى كونهم علة فاعلية للخلق والتدبير .

واما العلية الغائية فالظاهر انه لا اشكال فى كونهم علة غائية للخلق والتدبير ، أو ان لهم الركنية والاصالة فيها ، فبهم خلق الله الخلق ، ولهم دبر امره ، ولولاهم لم يخلق ماخلقه ، ولم يوجد مااوجده ، ولم يدبر الامور ويظهر ذلك من ملاحظة الروايات ، وبعض الادعية الواردة ، والزيارات المأثورة عنهم (ع) ففى زيارة الجامعة الكبيرة .

بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزل الغيث وبكم يمسك السماء ان تقع على الارض الا بأذنه .

هذا بالنسبة الى وساطتهم فى التكوينيات ، واما دخلهم ووساطتهم فى جهة التشريع ، فلا اشكال فى انهم العلة الفاعلية لذلك بمعنى ان جميع الفيوضات التشريع والعلوم والحكم وبرامج الشريعة واحكامها تجرى بواسطتهم وبايديهم ، فهم الوسائط فى التشريع بنحو العلة الفاعلية قال تعالى :

عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احد الا من ارتضى من رسول فأنه يسلك من

بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم . (٢٨ - الجن)

وقال فى صالح النبى (ع) : وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالة ربى .

(٧٩ - الاعراف)

وقال فى شعيب النبى : وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالات ربى .

(٩٣ - الاعراف)

وقال فى‌هود النبى: فان تولوا فقدابلغت ماارسلت به اليكم . (٥٧ - هود)

وقال تعالى : واوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ (١٩ - الانعام)

والحاصل انه لا اشكال فى ان لهم الدخالة والتسبيب فى جريان الرحمة الالهية والفيوضات التكوينية والتشريعية من‌الله تعالى الى‌عباده ، فهم اولياء النعم

وأما وجوب شكر المنعم ، فامراستقل العقل به بالنسبة الى أصل الشكر ، ولااشكال عنده ايضافى‌ان امتثال‌أوامر المنعم ونواهيه واجب، فيمااذا لم‌يكن الامر جاهلا، ولم يعلم كون أمره على‌خلاف المصلحة ، أومشتملا على وجود المفسدة، فضلا عمااذاكان المنعم حكيما لايقع منه الخطاء ، وكان أمره ذامصلحة تامة متعلقة بنفس‌المأمور، فاذا وجبت الطاعة فى‌جميع ماصدرمنهم من الاوامر والنواهى كان ذلك مساوقا لمنصب الولاية التشريعية .

هذه أدلة خمسة اقمناها على‌اثبات‌الولاية التشريعية للنبى والائمة ، وقدظهر لك ان المتحصل منها المستفاد من جميعها بنحو المطابقة فى بعضها والالتزام فى الاخرثبوت الولاية التشريعية للنبى والائمة (ع) .

ويظهر أيضاً حدود تلك‌الولاية من‌حيث السعة والضيق، فللنبى والائمة (ع) ولاية تامة وسلطنة عامة بالنسبة الى نفوس الامة جميعا من‌الرجال والنساء والولدان كماان لهم‌الولاية على اموالهم، اذهو مقتضى‌اقوائية ولايتهم، ومقتضى‌اطلاق‌جعل الولاية لهم. واطلاق الامربطاعتهم والنهى عن‌مخالفتهم، اذا قلنا بان الاية فى‌مقام البيان بالنسبة الى‌هذا الامر .

التنبيه الخامس

فى انه يجب عليهم ان ينصبوا خليفة لانفسهم عند غيبتهم عن الناس ولوفى مدة قليلة فضلا عما اذا طالت المدة ، وامتدت ايام الغيبة وتاخر زمان الظهور.

لايقال لماذا تلك الغيبة ، وما هى العلة فى خروج النبى أو الامام من بين الناس وابتعاده عنهم وحرمانهم من سعادتهم ومن الفيوض الربانية حتى يحتاج الى تعيين خليفة ونصب نائب ووزير ؟

لانا نقول المستفاد من الكتاب الكريم المؤيد بقضاء العقول ، ومقتضى ما طبع وجبل عليه الانسان من الغرائز، انه كانت حالات الامم والاقوام الماضين بالنسبة الى الانبياء المبعوثين فيهم مختلفة، فمنهم قوم كانوا يقبلون دعوة نبيهم ويستجيبون لما انزله الله اليهم ، ولو كان ذلك بعد انكار ونفور ، فيؤمنون بهم ويعملون الصالحات، ويعيشون بالخير والصلاح ، كما اتفق لقوم يونس (ع) ، وهم مأة الف أويزيدون قال تعالى :

فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها ، الاقوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين . (۹۸ - يونس)

وقال تعالى : وارسلناه الى مأة الف أويزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين.

(۱۴۷ - الصافات)

ومنهم قوم كانوا ينكرون الدعوات ويكفرون بالمعجزات ، ويستهزئون بالايات ويعاندون الحق كل العناد، ويفسدون فى الارض اشد الفساد، ويقتلون الانبياء ويقتلون الذين يامرون بالقسط من الناس، فلايؤمن منهم الاقليل ، وكان يستمر ذلك منهم بحيث يحصل اليأس للانبياء المبعوثين فيهم ، اذتشهد حالهم بعدم ايمانهم بل وعدم تولد نسل منهم يؤمنون بالله ويعملون الصالحات ولم يكن لانبيائهم والمؤمنين تسلط عليهم ، وتمكن من مجازاتهم . فيأمر الله انبيائه بالخروج من بينهم ليعذبهم

عذابا ويهلكهم اهلاكا .

١- فهذا نوح النبى يقول الله فيه وفى قومه: قال الملاء من قومه انانراك فى ضلال مبين .(٦٠ - الاعراف)

مانراك الابشراً مثلنا وما نراك اتبعك الاالذين هم اراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . (٢٧ - هود)

قالوا انؤمن لك واتبعك الارذلون . (١١١- الشعراء)

قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين .

(٣٢ - هود)

ويقول أيضا : قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الاخساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا الاتذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولاسواعاً ولايغوث ويعوق ونسراً . (٢٣ - نوح)

واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن فلاتبتئس بماكانوا يفعلون(٣٦ - هود)

ثم يقول : فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم اغرقنا بعد الباقين .

(١٢٠ - الشعراء)

٢ - وهذا هود النبى فيما يحكى الله عنه وعن قومه: قال الملا الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين . (٦٦ - الاعراف)

... اجئتنا لنعبدالله وحده ونذر ماكان يعبد آبائنا فأتنا بماتعدنا ان كنت من الصادقين(٧١- الاعراف) قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين. (٥٣هود) اجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بماتعدنا ان كنت من الصادقين. (٢٢الاحقاف) .

ثم يقول تعالى: فأنجيناه والذين معه برحمة مناوقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين (٧٢- الاعراف) .

۳- وهذاصالح النبى يقول الله فيه وفى قومه: قال الذين استكبروا انـا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتواعن امرربهم وقالوا ياصالح ائتنابما تعدنـا ان كنت من المرسلين (۷۷ الاعراف) قالوا انما انت من المسحرين ماانت الابشرمثلنا ءالقى عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب اشر (۲۵- القمر)

ثم يقول تعالى: ولماجاء امرنانجينا صالحا والذين آمنوامعه برحمةمنا واخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين (۶۷-هود)

۴- وهذاشعيب النبى(ع) يقول الله فيه وفى قومه: قال الملاء الذين استكبروامن قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا اولتعودن فى ملتنا...(وقالوا)... لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون. (۹۰ الاعراف) قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مماتقول وانالنراك فيناضعيفا ولولارهطك لرجمناك وماانت علينا بعزيز. (۹۱ هود) فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين. (۱۸۷ الشعراء).

ثم يقول: ولماجاء امرنانجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منـا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين (۹۴هود)

۵- وهذالوط النبى(ع) يقول الله فى حقه وماكان جواب قومه الاان قالوا اخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون. (۸۲ - الاعراف) وماكان جواب قومه الاان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين. (۲۹ - العنكبوت)

ثم يقول: فأسر باهلك بقطع من الليل...فلما جاءامرناجعلناعاليها سافلهاوامطرنا عليها حجارة من سجيل منضودمسومة عندربك وماهى من الظالمين ببعيد (۸۲هود)

۶- وهذا موسى النبى العظيم يقول تعالى فيه وفى قومه؟ فلماجائهم موسى بآياتنا قالوا ماهذا الاسحر مفترى...وقال فرعون ياايها الملاء ماعلمت لكم من اله غيرى...واستكبرهو وجنوده فى الارض بغير الحق. (القصص ۳۶، ۳۸، ۳۹)

ولقد اريناه آياتنا كلها فكذب وابى. (۵۶ طه)

ثم يقول تعالى: وانجينا موسى ومن معه اجمعين ثم اغرقنا الاخرين. (۶۶ الشعراء) فاخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم (۶۰القصص).

ومنهم قوم كانوا لايقبلون الدعوات ولايؤمنون بالايات فى ابتداء الدعوة اوفى برهة من الزمان، ولم يكن لنبيهم تمكن من حربهم والجهاد معهم ، ولم يكن الصلاح ايضا فى انزال العذاب عليهم وابادتهم واهلاكهم رجاء ان يؤمنوا وتخشع قلوبهم لذكر الله ، اورجاء ان تتولد منهم ذرية مؤمنة بالله عاملة صالحة ، فيأمر الله نبيه باعتزالهم مدة والتباعد منهم برهة، لعله تعالى يحدث بعد ذلك امرا.

وقد كان الاعتزال لمراعاة حال النبى المعتزل ليشتغل بعبادة ربه اويجد فى الارض مراغما وسعة ويهدى طائفة آخرين ، الاترى ان النبى العظيم موسى طلب من فرعون وقومه الاعتزال قال تعالى :

وانى عذت بربى وربكم ان ترجمون وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون.(٢١ الدخان)

والظاهر ان المقصود طلب الابتعاد امافى المكان فيسكنوا فى بلد غير بلدهم اوالابتعاد عن المعاشرة والمعاملة والتلافى ونحوها ، لتندفع شرورهم عن موسى وقومه ، فلا يكونوا لهم ولاعليهم هذا، ولكن القوم لم يقبلوا دعوة الاعتزال فكان من امرهم ماكان

٧ ـ وهذا النبى الكريم ابراهيم الخليل لما دعا اباه الى الايمان بالله وترك عبادة الشيطان فأبى عن ذلك ، كما حكاه الله تعالى عنه بقوله (قال اراغب انت عن الهتى ياابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا (٤٦ ـ مريم)

وعلم ابراهيم بعدم نجح دعوته فيهم فيئس من ذلك فأخبر اباه وسائر امته بالاعتزال فقال :

واعتزلكم وماتدعون من دون الله وادعوا ربى عسى الايكون بدعاء ربى شقيا

(٤٨ـ مريم)

فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا

(٣٩ ـ مريم)

وهؤلاء اصحاب الكهف لما آمنوا بالله وربط الله على قلوبهم قاموا بالدعوة اليه تعالى ، الا انه لم يتيسر لهم ابلاغ التوحيد والقيام التام والجهاد حقه فى سبيل التبليغ، فبنوا على الاعتزال والابتعاد من امتهم لعل الله يوفقهم الى مرضاته، فقال بعضهم

لبعض (واذ اعتزلتموهم ومايعبدون الاالله فأوا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من امركم مرفقا) (۱۶ـالكهف)

فترى كيف قبلهم ربهم واعدلهم مضجعا هم فى فجوة منه ، وهيىء لهم من امرهم رشدا ، و سوف يبعثهم الله عن نومتهم او موتهم ، و يلحقهم بـالامام العدل المنتظر ليجاهدوا تحت رايته ويكونوا فى ظل سلطانه ، وهذه العزلة لهم تشبه غيبة الامام(ع) فى الابتعاد عن طواغيت الزمان ، ثم الرجوع الى الناس والظهور فيهم لاصلاح حال المجتمع باحسن اصلاح .

هذا و اما الدليل على انه يجب على الله لطفا و عليهم لطفا او شرعا نصب الخليفة فى زمان اعتزالهم وغيبتهم عن الامة ، فهو بعينه الدليل الذى اقامه الاصحاب على وجوب بعث الرسل وانزال الكتب على الله تعالى ، والدليل الذى اقاموه على لزوم تعيين الخليفة على النبى بعد ارتحاله .

فانه لما علمنا ان الله خلق عباده ليعرفوه ويوحدوه ويعبدوه علمنا انه يجب عليه لطفا وعقلا ان يعرف لهم نفسه ودينه ، ولايكون ذلك الابارسال الرسول واعطاء الكتاب ليتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ولولم يفعل ذلك لكان ناقضا لغرضه وقائلالاغيا، وفاعلا لاهيا، حيث يقول: وماخلقت الجن والانس الاليعبدون. وقال: لو اردنا ان نتخد لهواً ، لاتخذناه من عندنا ان كنا فاعلين ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكذلك نقول فى حق النبى، فانه لولم يعين الخليفة مع كون غرضه بقاء الدين وهداية المجتمع ، وايمانهم وعملهم لكان هادما لاساس الدين الذى بناه فى المجتمع ببذل وتفدية النفوس و خوض اللجج وبذل المهج ، فالخليفة من جانب النبى الاقدس اذا عرضت عليه الامانة الالهية وحمل الكتاب وعلومه، ووكل اليه دين الله، فعليه نصب من يتوكل عنه فى حمل اعباء الخلافة ، وهداية الامة، والعمل بماكان يعمل به ، فالتأمل التام فى الغرض العام الباعث على تشريع الدين وتقنين القوانين يقضى بلزوم نصب النائب على الخليفة بعدغيبته ، كماكان قاضيا بلزوم نصب الخليفة

على النبى ، ولزوم بعث النبى على الله تعالى .

ثم انه لا اشكال فى ان ذاك الغرض امر ذو مراتب ، فانه يكون الغرض تارة بقاء الدين بين الناس بمعنى كونه ميسوراً للاخذ و التعلم لمن اراد الاهتداء والعمل و لازم ذلك تعيين عالم به عارف بأصوله وفروعه على نحو يمكن للطالب الوصول اليه والاخذ منه .

والاقتصار بهذا الحد يكون احيانا لاجل مراعاة الميسور من الامر وعدم الاقتضاء فى حال المجتمع ، كما اذا اتفق طول الامد عن بعث الرسول السابق فتسلط عليهم الهوى وغلبت عليهم الجاهلية العمياء فلا يمكن تبليغ الدين واجراء حدوده الا بحرب وقتال وقلب الوضع الموجود ظهراً لبطن.

ولما تتاهل الامة لذلك ، ومن هذا القبيل ما قد ينقل احيانا من احوال الامم الماضية وغلبة الفساد عليهم وصيرورة الحجة فيهم باطنا مغموراً وخافيا مستوراً كزمان الجاهلية الاولى .

ويكون اخرى بلوغ الدين اليهم وكونه معروضا عليهم بابلاغ تام، واسماع وافهام واقامة الحجة واتمام البرهان ، مع عدم المصلحة فى القيام بالسيف والاكراه على القبول والتسليم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ، ومرتبة هذا فوق سابقه ، ولازمها تعيين فرد اوافراد عالمين به متصدين لابلاغه، صابرين لاتعاب النفس فى سبيل الدعوة اليه

وكذلك كان بعض الانبياء الماضين فاشتغلوا بنشر الدعوة وابلاغ الاحكام واقامة الحجة باظهار الايات والمعاجز ، بل وكان ذلك حال الائمة سوى امير المؤمنين فى اواخر ايام امامته ، والحسن (ع) فى اوائلها .

ويكون ثالثة ابلاغ الدين وتعليم الاحكام ثم اجرائها فى المجتمع رضوا اوكرهوا ، و ذلك بتشكيل الحكومة الالهية والدولة الدينية حتى يدخل الناس تحت راية واحدة ، ويجتمعوا فى نظام خاص الهى ، فيقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة

ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فيظهر دين الله على الدين كله ، و يكون الدين كله لله ، والسلطان سلطان الله ، والحكومة حكومة الله ، فلا يعصى الرحمان ولا يعبد الشيطان ، وقد تحقق هذا الغرض فى الجملة بالنسبة الى شريعة محمد (ص) فى بدء نشرها وفى زمان تصدى النبى الاعظم لابلاغها واجرائها

فقام (ص) بتأسيس الدولة الاسلامية و الحكومة الالهية ، و سيكون الامر كذلك تاما كاملا بعد ظهور القائم (ع) ، فيملاء الارض عدلا باقامة قوانين الدين بين اهلها ، ويحيى من عليها بالعلم والحكمة والعمل بالشريعة المحمدية (ص).

فتحصل مما ذكرنا ان مراتب الغرض بالنسبة الى الدين مختلفة ، و انه يستلزم كون حال الحجج الحاملين للدين الكافلين له ايضا مختلفة ، فمنهم من حكمه حرمة الكتمان ، ومنهم من يجب عليه البيان ، ومنهم من له الحكومة والسلطان.

وظهر ايضا ان اختلاف مراتب الغرض ناش من اختلاف احوال الناس و مقتضيات العصر ، فالخليفة والحجة فى كل عصر يلاحظ حال زمانه واقتضاء عصره فاذا ساعدت الشرائط على الابلاغ فقط قام بانجازه ، واذا امكنت الرتبة الاخيرة ، لزم على الخليفة القيام بها

وعلى اى تقدير فيجب على الامام نصب من ينوب عنه فى تنجيز ما كان عليه كلا او بعضا وابلاغه ، وهذه دلالة عقلية حاكمة بوجوب نصب النائب وافية بنفسها على اثبات الدعوى بنحو الكبرى الكلية ، ويحتاج فى اثبات الوقوع وشرائط الواقع الى دليل غيرها

واذا راجعنا الادلة النقلية وجدناها وافية فى مقام تاييد حكم العقل ، كما انا نجد اخبارا كثيرة واردة فى بيان تعيين النائب و الشرائط اللازمة فيه ، و هذه الطائفة وان كانت مخدوشة سندا ، الا ان القرائن الخارجية ومنها حكم العقل المذكور تؤيدها وتسددها و تورث الاطمينان بها ، ثم انه لا يخفى عليك ان للامام مناصب وشئون لابد من بيانها ولو بنحو الاجمال حتى يتسنى لنا اثباتها كلا او بعضا فى حق نوابه .

اولها ابلاغ الدين للناس وبيان احكامه الاصولية والفروعية ونشره ودعوتهم اليه ، ومن شعب هذا المنصب الامر بالجهاد الابتدائى والتصدى له ، فانه ليس الا للدعوة الى التوحيد وعرض الذين عليهم ليقبلوا .

ثانيها حفظ الدين و قواعده بواسطة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعمدة عد هذا من منصب الامام بلحاظ مرتبته الاخيرة ، وهى حمل الناس على الاتيان بالواجبات وترك المحرمات ولو بالضرب والجرح والقتل ، والا فالمرتبة الاولى والثانية بمعنى الحب والكراهة بالقلب اوالبعث والزجر بالقول ونحوه وظيفة لجميع الناس من آمن منهم بالله واليوم الاخر

ثالثها اجراء الحدود والتعزيرات للمتخلفين عن حدود الله واحكامه، وهذا المنصب ثابت للامام قطعا ، وهو الذى عنونوه فى الفقه واختلفوا فى ثبوته لنواب الامام وعدمه ، والفرق بينه وبين سابقه ان ذلك شرع دفعا لمخالفة الناس للاحكام وصونا عن وقوع العصيان ، وهذا شرع بعد وقوع المخالفة مجازاة وعقوبة وان كان قد يؤثر تاثير الامر والنهى بالنسبة الى المستقبل

ورابعها القضاء بين الناس فى الخصومات ، والحكم فيما بينهم فى منازعاتهم

وخامسها تولى الامور الاقتصادية والمالية بجمع امواله المربوطة بنفسه بعنوان رئاسته ، والاموال المتعلقة بالمسلمين ، وحفظها وصرفها فى مصارفها ، ويدخل فيه التصرف فى الاراضى الخراجية بالتقبيل والاجارة والبيع احيانا ، وجباية خراجها والمقاسمة مع اهلها ، وجمع الزكوات واخذ الاخماس والانفال واخذ الاراضى المحياة بغير اذنه عن ايدى الكفار، واخذ الجزية عن اهل الجزية ، والتصرف فى الاموال المجهول مالكها ، واللقطة ونحوها ، وبالجملة التصدى لجميع امور بيت ماله وبيت مال المسلمين .

سادسها: تولى سياسة الجند من جمع العسكر وتجنيد الجنود وتعيين رؤسائها والاجراء عليها من بيت المال ، والنظر فى ترسيم اوضاع الحرب ، وتولى امرها

بالمباشرة او التسبيب ، ويدخل فيه الصلح مع الكفار ، وتعيين الجزية و شرائطها ، والجهاد مع الكفار ابتداء للدعوة اودفاعا ، او القتال مع المسلمين اذا خالفوا الامام فنكثوا بيعته ، اومرقوا عن طاعته ، اوامتنعوا عن قبول الحق.

سابعها ولايته على النفوس بتعيين العمال والرؤساء للامور العامة ، والمتصدين للاشغال المختلفة الاجتماعية، كنصب القضاة وعزلها، وتعيين عاملى الخراج والمقاسمة والزكاة والاوقاف العامة ، ومن هذا القسم اجبار الممتنعين على اداء حقوقهم ، والتكفل لاصلاح حال الايتام ، ونصب القيم لهم ، وتعيين المتولى على الاوقاف العامة ، اوعزل متوليها عنداحراز الخيانة منهم، والحجر على اهل الافلاس والمجانين وطلاق زوجة الغائب وغيرها

اذا عرفت ذلك فنقول لا اشكال فى عدم تحقق النصب العام بمعنى جواز تصدى كل احد لامر النيابة، بل يختص بافراد معينين مع شرائط خاصة، وهل لواجدى الشرائط تولى جميع تلك الامور اوبعضها ؟ فيه اختلاف بين الاصحاب ، فاللازم التكلم فى مقامات ثلاث.

الاول: فى ذكر الدليل على اصل النصب.

الثانى: فى شرائط المنصوب.

الثالث ـ فى المنصوب لاجله، و انه هل هو جميع المناصب التى يتصداها الامام او بعضها .

اما الاول فقد عرفت دلالة العقل على وجوبه، ويكون ما ورد فى ذلك شاهدا على وقوعه، والوارد فى هذا الباب من الاخبار كثير يورث الاطمينان بصدور عدة منها، مع انه بعد ما استقل العقل بلزوم النصب ، وعدم وجدان دليل عليه غيرها ، نقطع بصدورها فى الجملة ، والالزم صدور القبيح عن الحكيم اوالمعصوم، فعن مولانا الصادق :

العلماء ورثة الانبياء وذاك ان الانبياء لم يورثوا درهما ولادينارا.
(الكافى ج۱ ص۳۲ حديث۲)

العلماء امناء الرسل .

مجاری الامور بید العلماء بالله ، الامناء علی حلاله وحرامه .

علماء امتی کانبیاء بنی اسرائیل .

ان منزلة الفقیه فی هذا الوقت کمنزلة الانبیاء فی بنی اسرائیل .

(نهج) اولی الناس بالانبیاء، اعلمهم بما جائوا به «ان اولی الناس بابراهیم للذین اتبعوه وهذا النبی والذین آمنوا » (۶۸ آل عمران)

اللهم ارحم خلفائی الذین یأتون بعدی ویروون حدیثی وسنتی

(ئل ۱۸ ص ۱۰۰ ج ۷)

مقبولة عمر بن حنظلة: انظروا الی رجل منکم ممن قد روی حدیثنا ، ونظر فی حلالنا وحرامنا، وعرف احکامنا فیرضوا به حکما، فانی قد جعلته علیکم حاکما، فاذا حکم بحکمنا فلم یقبل منه فانما استخف بحکم الله وعلینا رد ، و الراد علینا الراد علی الله، وهو علی حد الشرك بالله (الکافی ج۱ باب اختلاف الحدیث ح۱۰)

(ئل ج ۱۸ ص ۹۹ ح ۱)

ومشهورة ابی خدیجة سالم بن مکرم عن الصادق (ع) : ایاکم ان یحاکم بعضکم بعضا الی اهل الجور، ولکن انظروا الی رجل منکم یعلم شیئا من قضایانا فاجعلوه بینکم ، فانی قد جعلته قاضیا فتحاکموا الیه (ئل ج۱۸ ص ۴ ح ۵)

ومکاتبة الحمیری فی اکمال الدین عن اسحاق بن یعقوب: قال سألت محمد بن عثمان العمری ان یوصل لی کتابا قد سألت فیه عن مسائل اشکلت علی ، فورد التوقیع بخط مولانا صاحب الزمان : اما ما سألت ارشدك الله وثبتك . . . . الی ان قال : واما الحوادث الواقعة فارجعوا فیها الی رواة حدیثنا، فانهم حجتی علیکم، وانا حجة الله . (الوسائل ج۱۸ ابواب صفات القاضی ص ۱۰۱ ح ۹)

هذه مجموع ما ذکروه فی المقام لاثبات الولایة والخلافة للمنصوب من قبل الامام، والظاهر انه لامناص عن القول بکون المنساق منها اومن بعضها نصب الخلیفة

و النائب ولو بقرينة حكم العقل المذكور ، فيتأيد بذلك حكمه ، ولايرد ماقد يستشكل فى دلالتها او ان جميعها او جلها ضعيف سندا او ان وما يمكن القول باعتبار سنده منها مخدوش دلالة ، وبعبارة اخرى ماهو الظاهر منها غير صحيح ، وما هو الصحيح غير ظاهر ، لكون حكم العقل قرينة قطعية على المراد ، فقوله (ع) (مجارى الامور بيد العلماء بالله اه) وقوله (ع) (واما الحوادث الواقعة وقوله (فانى قد جعلته عليكم حاكما) و غيرها لم يرد الالتعيين المرجع العام للمسلمين من امورهم الدينية والاجتماعية والسياسية ، مما يرجع فى ذلك الى زعيم القوم ورئيسهم .

قال الفاضل الهمدانى فى اواخر كتاب الخمس من مصباح الفقيه : ولكن الذى يظهر بالتدبرفى التوقيع المروى عن امام العصر (ع) الذى هو عمدة دليل النصب ، انما هواقامة الفقيه المتمسك برواياتهم مقامه بارجاع عوام الشيعة اليه فى كل مايكون الامام مرجعا فيه، كيلا يبقى شيعته متحيرين فى ازمنة الغيبة .

ثم قال بعد نقل التوقيع المزبور(ومن تدبر فى هذا التوقيع الشريف يرى انه (ع) قد اراد بهذا التوقيع اتمام الحجةعلى شيعته فى زمان غيبته بجعل الرواة حجةعليهم على وجه لايسع لاحدان يتخطى عما فرضه الله معتذراً بغيبة الامام، لامجرد حجية قولهم فى نقل الرواية اوالفتوى .

فان هذا مع انه لايناسبه التعبير بحجتى عليكم ، لايتفرع عليه مرجعيتهم فى الحوادث الواقعة التى هى عبارة عن الجزئيات الخارجية التى من شأنها الايكال الى الامام (ع) ، كفصل الخصومات ، وولاية الاوقاف ، والايتام ، وقبالة الاراضى الخراجية التى قصرت عنها ايدى سلاطين الجور، وغيرذلك من موارد الرجوع الى الامام.

واما الثانى اعنى شرائط المنصوب، فالمستفاد من تلك الاخبار وغيرهاامور، هى العلم ، والعدالة ، والزهد .

اما العلم فلانه قد جعل موضوعا للحكم فى بعضها ، ووصفا للموضوع فى بعضها الاخر ، والمراد بالعلم هنا العلم بالاحكام الشرعية، ويلازمه العلم بعدة فنون مما لايمكن اظهار النظر فى احكامها الابالاطلاع عليها ولو بنحو الاجمال ، فاقسام العلوم الحادثة فى العصور المتأخرة كعلم الاقتصاد وعلم التشريح ونحوهما اذ كانت مورداً لفتوى النائب، لزمه التبصر فيها والاطلاع عليها ولو فى الجملة .

وله ان يستمد فى مقام اصدار الفتوى من انظار اهل تلك العلوم، ويستفيد منهم ماله دخل فى تشخيص موضوع الحكم، ومن اهم مايلزم النائب، العلم والاطلاع ولو اجمالا على احوال المجتمعات المعاصرة له ، وهذا امر واضح عند العقل ولا حاجة فيه الى التنصيص والتصريح، فغير العالم باوضاع الخلق واحوالهم كثيراً مايقع فى طريق خدمة اهل الهوى والرئاسات .

فانه اذا كثر المكر والحيل فيما بين الناس، وشاعت الخدعة والدغل فيهم، ولم يكن النائب العام وخليفة الامام بصيراً بذلك، قادته الشياطين واختلسته الطواغيت، وهو يلقى اليهم القياد من حيث لايشعر، ويقع فى سبيل الخدعة لاهوائهم ، بعلومه وفتاواه ، وكتبه وسائر شئونه ، ولعله لذلك ورد عن مولانا الصادق (ع) فى مقام توصيف طلبة العلم وانهم ثلاثة اصناف .

قال(ع) فى بيان اوصاف الصنف الذى يطلبه للفقه والعقل: (يعمل ويخشى وجلا داعيا مشفقا مقبلا على شانه عارفا باهل زمانه مستوحشا من اوثق اخوانه ، (كا ج١ ص٤٩ ج٥)

فاذا كان المعرفة لاهل الزمان مطلوبا من طلبة علم الدين، فكيف بمن يتصدر للامر، ويتصدى لشئون المسلمين، وهو رئيسهم والحكم فيما بينهم ، وعن مولانا اميرالمؤمنين(ع) .

(ايها الناس ان احق الناس بهذا الامر اقواهم عليه واعلمهم بأمرالله فيه) (نهج خطبة ١٨٣ ص٢٤٧)

ثم اعلم ان بين علم الامام، والخليفة النائب عنه فرقا من جهات.

الاولى كون علم المعصوم علما موهوبا الهيا حاصلامن قبل الله تعالى بواسطة جبرئيل كالنبى الاعظم، اومن المعصوم الذى كان قبله كالائمة عليهم السلام،فالقرآن كله ومعارفه واحكامه وصل الى النبى الاعظم ومنه الى الائمة(ع) مستقلاوبلاتدريس من احد كما قال تعالى:

«نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين .

واما خلفاء الامام فعلمهم بالاحكام اكتسابى تحصيلى من الكتاب والسنة ، مستنبط منهما .

الثانية: انه لايتطرق الخطاء والشبهة فى علومهم، بل هم معصومون عن ذلك كما عرفت ، والخطاء واقع فى علوم خلفائهم حتى فى القطعيات مما استنبطوا ، فضلاعن الاحكام التى افادوها من الامارات الظنية والاصول العملية.

الثالثة: انه لاحكم ظاهرى للنبى والائمة فى الاحكام الكلية، بل كل ما اخبروا به فهو حكم الهى واقعى ، متخذ عن الملك ثم من اللوح و القلم من العلم الازلى الالهى بل لوقلنا بعلم الامام بجميع الموضوعات الخارجية فلاحكم ظاهرى لهم فى الشبهات الموضوعية ايضا، وهذا بخلاف الخليفة فترى ان رسائلهم العملية مملوة من الاحكام الظاهرية .

الرابعة: كون علم الخلفاء محدوداً معدودا قليلا جداً بحيث قدلايكفى لرفع حوائج الامة الاسلامية، خاصة فيما اذاتجددت الحوائج و حدثت امور احوجتهم الى استنباط حكم جديد من الادلة.

و اما العدالة: فيدل على اشتراطها فى النائب امور: و ليعلم اولا ان المراد بالعدالة هنا ليس خصوص ما عرفه الفقهاء فى الفقه فى شرائط امام الجماعة وشاهدى الطلاق وغيرهما بانها فعل الواجبات وترك المحرمات، او انها ملكة راسخة باعثة على ذينك الامرين، فان ذلك تعريف لها بنحو الاجمال .

ولايخلو عن ابهام ونقص ، كمايعلم ذلك من ايقاعها احياناً فى مقابل اشتراط الاسلام والايمان، وعلى اى حال فهى فى اللغة عبارة عن الاستقامة والاستواء، والمراد

بهافى المقام استقامة الانسان من جهات شتى :

الاولى: من جهة عقائده الباطنية .

والثانية: من جهة اخلاقه وصفاته النفسية ،

والثالثة: من جهة اعماله الجوارحية .

والرابعة: من جهة مراعاته حقوق غيره، فانه بعد ما قلنا ان له نوع تسلط على النفوس و الاموال ، فعليه بعدد كل رعية من الرعايا و كل مال من الاموال المتعلقة بهم ، حق ثابت يجب الوفاء به والخروج عن عهدته، وهذه هى العمدة فى الخليفة المنصوبة والمتولى لامور الناس، واكثر ماورد فى المقام من الاحاديث ناظر الى هذه الجهة ، و كيف كان فالمستفاد من الأدلة ان العدالة واجب التحصيل بنفسها واستقلالا على جميع الناس ، مضافا الى كونها شرطا فى امور كثيرة، منها التصدى لمقام النيابة.

اما وجوبها نفسا على الكل فلانه مقتضى وجوب الايمان و العمل الصالح كماهو واضح.

مع انه يدل عليه ايضاً بنحو العموم قوله تعالى :

ولايجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله .

(٨- المائدة)

و قوله تعالى : ان الله يأمر بالعدل و الاحسان و ايتاء ذى القربى .

(٩٠- النحل)

وقوله تعالى : وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين.

(٤٢- المائدة)

و قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله .

(١٣٥ - النساء)

وقوله تعالى: قل امر ربى بالقسط (٢٩-الاعراف)

وقوله تعالى: وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (٢٥-الحديد)

ويدل على الوجوب فى خصوص بعض المواردقوله تعالى:

و اذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل(۵۸ ـ النساء)

وقوله : فان فائت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا. (۹ـ الحجرات)

واما مايدل على اشتراطها فى المقام اعنى فى النائب والخليفة عن الامام ، فالادلة الاربعة.

اما العقل فلحكمه الجازم بان من ولاه الله امور الناس وجعله مسلطا على النفوس والاموال ، لايكون فاسقا فاجرا، ليفسد فى الارض و يهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد .

واما الكتاب فلفحوى مادل على اشراطها فى موارد كثيرة:

۱ـ قال تعالى فى حاكمى كفارة الصيد:

لاتقتلوا الصيد و انتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة.(۹۵ـ المائدة)

۲ـ وقال تعالى : فى شاهدى الوصية:

يا ايها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم (۱۰۶ المائدة)

۳ـ وقال تعالى فى شاهدى الطلاق :

واشهدوا ذوى عدل منكم واقيموا الشهادة (۲ـ الطلاق)

وفى روايات امام الجماعة وشرائطه عن الباقر (ع) قال لاتصل خلف من لاتثق بدينه (ئل ۵ ابواب صلاة الجماعة ب ۱۱ ح۸)

و عن مولانا الجـواد (ع) قال: ان كان الذى يؤم بهم ليس بينه و بين الله طلبة فليفعل (ح۱۲)

فاذا كانت العدالة معتبرة فى شهود كفارة الصيد من الغنم والبقر والابل و فى شهود الايصاء بالمال ولو كان نزراً يسيراً ، و فى شهود طلاق المرأة وامام الجماعة وغيرهما، فكيف لاتعتبر فى امام القوم وزعيم الملة وهويريد التصرف فى

النفوس المحترمة والاموال الجمة الغفيرة؟ فالاولوية ثابتة قطعا.

ولقوله تع: وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم (١٥ الشورى) فالامر المتعلق بالنبى بان يعدل بين الرعية ، امر لكل راع، له رعية كما ورد فى الاثار كلكم راع و كلكم مسؤل عن رعيته ، والاية ظاهرة فى العدل فى الحقوق، و هو القسم الاخير من اقسامه .

و اما السنة فلقول امير المؤمنين لشريح (ثم واس بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك ، حتى لايطمع قريبك فى حيفك ، ولاييأس عدوك من عدلك

(ئل ١٨ ص١٥٥ ح١ - ص٢٥٦ ح٢)

وقوله « ع » : وان افضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد ، وظهور مودة الرعية .(كتابه الى مالك ص٤٣٣)

واما الاجماع فلما هو مسلم عند علماء الشيعة من لزوم العدل فى النائب قاضياً كان او مفتيا اوغيرذلك، ويظهرذلك للمراجع المتتبع.

و اما الزهد فلمامر من كلام على « ع » فى النهج : (ان الله قد فرض لائمة العدل ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره) (نهج خطبة ٢٠٧) والظاهر ان المراد بائمة العدل ليس خصوص الامام المنصوب من قبل الله تعالى ، بل كل من له الرئاسة و الامامة بالحق فى مقابل ائمة الجور والظلم من الجبابرة والطواغيت ، و ربما يشهد له التعليل، وهو قوله كيلا يتبيغ، والتبيغ هو التسلط والغلبة .

ولقوله «ع» ايضا : (وقد علمتم انه لاينبغى ان يكون الوالى على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل ، فتكون فى اموالهم نهمته ، ولاالجاهل فيضلهم بجهله اه) (نهج خطبة ١٣١ ص١٨٩)

ولازم اشتراط عدم البخل والنهمة، بذل اموال المسلمين لهم وزهادته عنها .

وعن مولانا السجاد «ع» فى حديث. اذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديه

فرويداً لا يغرنكم ، فما اكثر من نصب الدين فخا، فان تمكن من حرام اقتحمه ، واذا وجد تموه يعف عن المال الحرام ، فرويداً لا يغرنكم ، فما اكثر من ينبو عن المال الحرام ، و يحمل نفسه على شوهاء قبيحة، واذا وجد تموه يعف عن ذلك، فرويداً لا يغرنكم، حتى تنظروا ماعقله، فما اكثر من ترك ذلك اجمع، ثم لايرجع الى عقل متين ، واذا وجدتم عقله متينا ، فرويداً لا يغرنكم حتى تنظروا مع هواه يكون على عقله ، او يكون مع عقله على هواه ، وكيف محبته للرئاسات الباطلة وزهده فيها .

و لكن الرجل كل الرجل نعم الرجل ، هو الذى جعل هواه تبعا لامر الله، وقواه مبذولة فى رضا الله، فذلكم الرجل نعم الرجل فيه فتمسكوا، وبسنته فاقتدوا قال صاحب الوسائل هذا مخصوص بمن يؤخذ عنه العلم ، ويقتدى به فى الاحكام الدينية ، كما هو الظاهر، لا بامام الجماعة (ئل ۵ ابواب صلاة الجماعة ب۱۱ ح۱۴)

واما المقام الثالث وهو بيان ما لاجله النصب ، فقد قيل ان نيابة الخليفة من الامام تختص ببيان الحلال و الحرام ، والقضاء بين الناس ، اذ لايستفاد من تلك الادلة ازيد من ذلك ، وان كان بيان الاحكام فى الامام يغاير البيان فى نائبه ، من جهة ان الامام يبين الاحكام الواقعية فى كل مورد على ما هو عليه بلا تطرق اى شك وشبهة فى ذلك كما مر، واما النائب عنه فله فى بيان الاحكام طريقان .

الاول ـ نقل الرواية والحديث بالفاظ الامام او بنحو النقل بالمعنى ، فالامام ينقل الحكم عن الله . والراوى ينقل عن الامام ، ويجب على المنقول اليه تصديقه والعمل على وفق ما اخبر به ، سواء افاد العلم بالواقع ام لا ، وقد سموا هذا فى علم الاصول بالخبر والسنة ، وقسموه الى الواحد والمستفيض والمتواتر ،واستدلوا على حجية القسمين الاولين ولزوم الاخذ بها بمفهوم آية النبأ وبآية الكتمان وغيرهما من الادلة .

الثانى ـ الافتاء وهو الاخبار عن الحكم الذى استظهره من الادلة الموجودة

عنده ، واستفاده من نصوصها او ظواهرها فيما لم يتيسر له تحصيل العلم بالاحكام الواقعية ، وهو بهذا العنوان فقيه و مفت ، و هو الذى استدلوا لحجيته على الجاهل بآية السؤال ، وما دل على لزوم رجوع الجاهل الى العالم وغيرهما و بهذا البيان ظهر لك اندفاع اشكالين .

الاول ما يستشكله بعض الجهلة بان الحكم المنزل من السماء الى النبى و المودع بيده عند الامام واحد ، فكيف وقع الاختلاف بين نوابه ، فيحكم هذا بحكم وذاك بخلافه ، وثالث بخلافهما .

وقد يؤيد ذلك بقول مولانا امير المؤمنين (ع) : (ترد على احدهم القضية فى حكم من الاحكام ، فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره ، فيحكم فيها بخلاف قوله ، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الامام الذى استقضاهم ، فيصوب آرائهم جميعا ، والههم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد ، افأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه ، ام نهاهم عنه فعصوه ام انزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على اتمامه ، ام كانوا شركاء له ، فلهم ان يقولوا وعليه ان يرضى ، ام انزل الله دينا تاما فقصر الرسول (ص) عن تبليغه وادائه والله سبحانه يقول : (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) وفيه تبيان لكل شئ ، وذكر ان الكتاب يصدق بعضه بعضا ، وانه لا اختلاف فيه ، فقال سبحانه : ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا اه (خطبة ١٨ من النهج ص ٦٠)

واما الثانى فهو ما استشكله الاخباريون على الفقهاء الاصوليين من تقبيحهم صدور الفتوى منهم ، وقولهم ان اظهار الرأى والاعتقاد فى مسئلة من المسائل جرأة على الله تعالى ، وليس لغير النبى والامام المنصوب من قبله اظهار الرأى ، بان يقول هذا رأيى ، وهذا مما افتى به ، ثم يأمر الناس باتباعه وتقليده ، وكل ذلك باطل و خلاف ما انزله الله على رسوله ، فهو بدعة والبدعة فى النار

والجواب عن الاشكالين انه قد ظهر لك ان بيان الاحكام فى ناحية الامام ،

عبارة عن اخباراته عن الله تعالى وعن احكامه الواقعية المكتوبة فى اللوح المحفوظ
و اما النائب المفتى فحيث ان الامام المنصوب غائب ، ولايمكنه الوصول الى
جميع الاحكام الواقعية بنحو القطع ، فان اتفق له الوصول الى الحكم الواقعى بعد
الفحص والاجتهاد فهو مصيب

وان لم يتفق له ذلك كما يقع كثيرا ، فيفتى بما استفاده من ظواهر الادلة بظن
انه حكم الهى واقعى ، مع احتمال الخطاء ايضا ويطلق عليه الحكم الظاهرى ،
فالمجتهد الذى اخبر بالحكم الظاهرى لايدعى انه حكم واقعى الهى مطابق لما عند الله
وعند وليه .

بل هو يعترف بانه لايستطيع ادراك الواقع ، والجأته الحاجة الى تلك الاستفادة
والعمل به لنفسه ومراجعيه ، اذ لايجوز عقلا ترك الاحكام الواقعية بالكلية اعتذاراً
بعدم العلم بها ، كما انه لايمكن اولا يجب الاحتياط التام فى اطراف محتملاتها
لعدم القدرة اوللزوم العسر والحرج المنفيين قطعا .

وح فيمكن ان يستفيد المفتى الاخر من ظواهر الادلة خلاف مااستفاده الاول
وهكذا النائب الثالث والرابع ، فيقع الاختلاف فى الفتاوى و الجميع معترفون
بوحدة الحكم الواقعى ، وكون الاختلاف فى الحكم الظاهرى وهوما استفادوه من
الادلة و زعموه حكما واقعيا ، و نتيجة الكلام ح انه ليس فى كل واقعة من اعمال
العباد الاحكم الهى واحد

فان ادركه الجميع وو صلوا اليه قطعا فهو ، والا كان غيره حكما ظاهريا
لامناص لهم عن الاخذ به والعمل على طبقه ، حفظا للواقع عن الانطماس والاندراس
اذااهملوه رأسا ، وللنفوس عن الوقوع فى العسر والحرج المنفيين شرعا والموجبين
لنفور الناس عن الدين اذا عملوا بالاحتياط التام لادراكه ومثل المقام كمثل المريض
الذى اجتمع عليه الاطباء لمعالجته .

فتارة يظهر لهم الحال ويطلعون على المرض ويتوافقون على مداواه ويعلمون
دوائه ، واخرى لم يتفقوا على قول ويزعم كل واحد له مرضا خاصا ودواء مخصوصا

وثالثة يعترف الجميع بعدم العلم بالمرض فيداوى كل بمايكون مسكنا فعليا للالام مع اختلافهم فى الدواء المسكن ، او وفاقهم ، فهنا للاطباء تكليف ، و للمريض تكليف آخر .

اما الأطباء فلا اشكال فى ان وظيفتهم اذالم يحصل لهم الوفاق ان يظهر كل منهم مافهمه من المرض والدواء ، واما المريض فان حكم عقله فى صورة الاختلاف بلزوم ترجيح الاعلم والافضل ، والاكان مخيرا فى العمل بقول من شاء واراد، فعلم بذلك جواب الاشكال الاول وانه ليس لله فى كل حادثة احكام مختلفة بل حكم واحد والاختلاف نشأ من عدم القدرة على الوصول اليه .

واما كلام مولانا اميرالمؤمنين ، فليس المراد به نفى الاختلاف وذمه مطلقا ، وبيانه ان الاحكام الشرعية التى يستفيدها المجتهد من الادلة على اقسام ثلاثة.

الاول القطعيات المتخذة من نصوص الكتاب الحكيم والروايات والمتواترة او المحفوفة بالقرائن القطعية ، وهذا القسم لا اختلاف فيه غالبا بين المجتهدين

والثانى ـ الاحكام المستنبطة من الامارات وظواهر الكتاب والسنة كما عرفت

الثالث: الاحكام المستفادة من الاصول العملية الجارية فى موارد عدم الامارات كالاباحة المدلول عليها بالبرائة والا ستصحاب وغيرها ، والاختلاف بين الفقهاء لايكون الافى هذين القسمين فترى ان فقيها استظهر من امارة اواجراء اصل من الاصول حكما خاصا ،واستظهر الاخر حكما مخالفاله ، فعلم ان منشأ اختلاف الفتيا على الغالب هو العمل بالامارات والاصول العملية، ورفع الاختلاف لايكون الابترك العمل بهما والرجوع الى النصوص القطعية ، وحيث انها غير وافية ببيان جميع الاحكام الواقعة وما يبتلى به الناس منها ، فلامناص عن الرجوع الى الامارات والاصول

مع انه وردت اخبار متواترة آمرة بالرجوع اليها فى مقام تشخيص الوظائف واستفادة الاحكام، فراجع ادلة حجية خبر الواحد والاصول العملية من الاستصحاب والبرائة وقاعدة الطهارة وغيرها ، وعليهذا فهل يمكن توجه الذم و التوبيخ الوارد

فی کلام علی(ع) الی هذا النوع من الاختلاف ، مع انه من اللوازم الحسية للعمل بتلك الامارات والاصول کلا ، ولایکون ذلك قطعا .

نعم وهيهنا اختلاف فی الفتيا بطريق آخر وقع بين طائفة كثيرة من علماء الاسلام وهو الاختلاف الناشی عن العمل بالقياس و الاستحسان ، وهما المنشأ لاغلب الاختلافات الواقعة فيما بينهم ، وانت خبير بانهم عاملون بهما فيما اذا لم یکن فی المسئلة دليل من الكتاب والسنة النبوية، ولايعتنون باقوال الائمة اهل البيت ، کما انهم لایعتقدون بامامتهم ، فهم مع اعترافهم بحديث الثقلين قد تركوا العمل برواياتهم ، وعملوا بالقياس والاستحسان .

فالاختلاف الواقع بینهم کالعمل بمنشائه ، امر مبغوض عندالله ورسوله ، ولااشکال فی کون کلام علی (ع) راجع الى ذلك وتوبيخا عليه ، وذما لاعراضهم عن التمسك بما امر به النبی بقوله : ما ان تمسکتم بهما لن تضلوا .

ففی موثقة سماعة بن مهران عن الكاظم (ع) مالکم وللقیاس ، انما اهلك من هلك من قبلكم بالقياس ، لعن الله فلانا کان یقول قال علی وقلت انا وقالت الصحابة وقلت انا ، ثم قال اکنت تجلس اليه فقلت لاولکن هذا کلامه .

(ئل۱۸ ابواب صفات القاضی ب۶ ح۳)

وفی صحيحة ابان عن الصادق (ع)قال ان السنة لاتقاس الاترى ان المرأة تقضی صومها ولاتقضی صلاتها یاابان ان السنة اذاقيست محق الدين(ئل۱۸ ب۶ح۱۰)

وفی رواية مسعدة بن صدقة عن الباقر «ع» عن علی «ع» قال من نصب نفسه للقياس لم یزل دهره فی التباس ، ومن دان الله بالرأی لم یزل دهره فی ارتماس (ب۶ ح ۱۱) فعلم بما ذكرنا ان الاختلاف بين فقهائنا الامامية لم يقع غالبا الافی مؤدى الامارات والاصول ، وان الحكم الواقعی الالهی فی تلك الموارد واحد ليس بمتعدد ولا مختلف ، والاختلاف انما نشأ عن الجهل بها، وكيفية اتخاذ الطريق فی الوصول اليها من العمل بالظواهر واجراء الاصول ونحوهما ، وذلك من لوازم عدم وجود الحجة العالم بجميع الاحكام ، و من نتائج غيبته عنا فيرجع الامر بالاخرة الى

قصورنا وتقصيرناوعدم جدارتناللقائه والكون تحت رايتهواكتساب سعادة الدارين بشريف وجوده

ويعلم مما ذكرنا جواب اشكال الاخباريين، فان المجتهدالمستنبط للاحكام عن الامارات والاصول فى الموضوعات التى لايمكنه الوصول اليها علما، لايدعى كونه حكما واقعيا الهيا، ولاكونه نفسه مشرعا للاحكام ولاجاعلا لها ، بل هويقول ان المستفاد منهذا الكلام الصادر من الله تعالى، أو من المعصوم مثلاهذا المعنى وان ظاهرهذا اللفظ يعطى هذا الحكم الايجابى أو التحريمى ، وحيث انه مأمور شرعا بالاخذ بتلك الامارات والاصول والعمل على وفقها كما هو مقتضى حجية الأخبار ، فلاجرم يتخذ ما استفاده وظيفة الهية لازم الاتباع وبرنامجا عمليا واجب الجرى على طبقه .

وأما عوام الناس وبسطائهم فمقتضى القانون العقلائى أو الفطرى العقلى ، هورجوع كل جاهل فى كل موضوع وحادثة الى العالم بحكمه والعارف بالوظيفة فيه، فعليهم ان يقلدوا فى المقام المجتهد المستنبط للاحكاموهذا أمرغيرقابل للخدشة والانكار .

وأماثبوت منصب القضاء للنائب فلماعرفت من دلالة المقبولة والمشهورة .

هذا والظاهر قيام النائب مقام الامام فىجميع ماله منالمناصب الاماشذ من الاحكام كما لعلك تعرف .

والدليل عليه امور .

الاول مانقلناه آنفا من قوله (ع) مجارى الامور بيد العلماء بالله الامناء على حلاله وحرامه .

الثانى مكاتبة الحميرى وقد ذكرناها أيضا عند بيان الدليل على اصلوجوب النصب .

الثالث: ان اللازم مقايسة المنصوب بالنصب العام فى هذه الازمنة على المنصوب بالخصوص فىزمان حضور الامام (ع) ، فالنائب فى هذا العصر حكمه حكم محمد

ابن أبى بكر وابن عباس ومالك الاشتروغيرهم (ره)، وانت اذا لاحظت الكتب التى كتبها الامام (ع) اليهم وأورد فيها مايدل على حكمهم ووظائفهم، اذعنت كل الاذعان واعتقدت جازما باتا على ان له جميع ماللامام ، فهاك قطعات من كلامه (ع) فى كتاب له الى الاشتر النخعى (رض) حين ولاه على مصر وأعمالها بعد ماضطرب أمر محمد بن أبى بكر. قال (ع) : (نهج خ ۵۳ ص ۴۲۶)

و اعلم انه ليس شيىء بأدعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم و تخفيف المؤنة عنهم . (ص ۴۳۱)

وقال (ع) : وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ماصلح عليه أمر بلادك ، واقامة مااستقام به الناس قبلك (ص ۴۳۱)

وقال (ع) : وأعلم ان الرعية طبقات لايصلح بعضها الا ببعض ، الجنود ، كتاب العامة ـ قضاة العدل ـ عمال الانصاف ـ أهل الجزية ـ التجار و أهل الصناعات ـ الطبقة السفلى ـ ثم قال ولكن على الوالى حق بقدر مايصلحه. (ص ۴۳۱)

وقال (ع) : وليكن آثر رؤس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل عليهم من جدته . (ص ۴۳۳)

وقال (ع): وان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد وظهور مودة الرعية . (ص ۴۳۳)

وقال (ع) : ولاتصح نصيحتهم الا بحيتطهم على ولاة الامور وقلة اشتقال دولهم

وقال (ع) : ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك . (ص ۴۳۴)

وقـال (ع) : ثم انظر فى امور عمالك فاستعملهم اختباراً ، ولا تولهم محاباة واثرة .

وقال (ع) ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم (ص ۴۳۵)

وقال (ع): وتفقد أمر الخراج بمايصلح أهله فأن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم (ص ۴۳۶)

وقال (ع) : ثم انظر فى حال كتابك ، فول على امورك خيرهم واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك وأسرارك باجمعهم لوجوه صالحى الاخلاق (ص٤٣٧)

وقال (ع) : وأجعل لرأس كل أمر من امورك رأسا منهم (٤٣٧)

وقال (ع) : ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم، والمضطرب بماله ، والمترفق ببدنه ، وان فى كثير منهم، ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكاراً للمنافع وتحكما فى البياعات ، وذلك مضر للعامة ، وعيب للولاة ، فامنع من الاحتكار ، فان رسول الله منع منه ، وليكن البيع سمحاً بموازين العدل، فمن قارف حكرة بعد نهيك أياه ، فنكل به وعاقبه فى غير اسراف . (ص٤٣٨)

وقال (ع) ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم من المساكين والمحتاجين ، وأجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافى الاسلام فى كل بلد . (٤٣٨)

فترى انه قد فرض مالكاً الاشتر أممن له رعية يجب ان يحسن ظنه بهم وله بلاد يلزمه العدل فيها، واصلاح أمرها واقامة أهلها ، وان رعاياه طبقات شتى ، ولكل عليه حق وان له جنوداً وؤساء الجنود .

وان من اللازم نصح الرعايا له وعدم استثقالهم دولته ، وان له انتخاب القضاة واختيار العمال ، وبعث العيون اليهم، وتفقد أمر الخراج والمقاسمة ، واصلاح امور الناس ، والنظر فى حال الكتاب ، ومراعاة حال التجار، وذوى الصناعات ، والمنع عن الاحتكار، وعقاب المحتكرين، والتوجه الى الطبقة السفلى ، وتقسيم بيت المال فيهم ، الى غير ذلك من الامور التى ليست الا من وظائف نفس الامام (ع) ، فهو (ع) قد رتب الجميع على من عينه لتصدى امور ناحية معينة ، مما كان تحت سلطنته.

قال تعالى : **ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم (۶۲) فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين** (۶۳ آل عمران) .

التفسير

مرجع الاشارة اما الى جميع القصص والحالات التى حكاها الله عن عيسى من لدن بشارة مريم بولادته الى توفيه ورفعه اليه ، كما سردت من الاية ۴۵ الى الاية ۵۵، او الى خصوص قصة المباهلة، وعلى اى تقدير، فالقصص بالفتح بمعنى التحديث والنقل ، والمعنى ان ذاك التحديث حق ثابت، مطابق للواقع لايتطرق اليه كذب ولاخطاء واشتباه ، اذ قد نزل به الروح الامين على قلب النبى الكريم من عند رب العالمين .

ثم انه حيث كان المستفاد من ذاك القصص تولد عيسى من بشر مثله، واعترافه بعبوديته لربه ، وعدم كونه الها وربا ، بين تعالى انه مامن اله الا الله ، والاله مصدر بمعنى العبادة اوالتحير ، والمراد به هنا المعبود ، او المتحير فيه ، ومقتضى نفى الجنس ح انه ليس غير ذات الله تعالى موجودا اخر، يليق بخضوع جميع اصناف الموجودات لجنابه ، وعبادة جميع ذوى العقول من الملائكة والاناس والاجنة والشياطين له ، اوليس ذات لاتدركه العقول ولاتحوم حوله الافهام بحقيقته ولابكيفية صفاته و سائر جهاته الا الله تعالى، فالمراد انه لاينطبق هذان العنوانان الا على الله، وقد ذكر الله تعالى لنفسه بعد اثبات وحدانيته، وصفين: العزة والحكمة، ولابد ان يعلم قبل ذكر معنى الوصفين ان صفات الله تعالى على قسمين: صفات الذات وصفات الفعل .

فالاولى : مالم يقع تحت ارادته تعالى ولم يكن محكوماً بها ، كالعلم والقدرة .

والثانية : مايقع محكوما بالارادة ، كالخلق والرزق ، فانه تعالى يريد تارة فيخلق ويرزق ، ولايريد اخرى فلايخلق ولايرزق .

والفرق بينه تعالى وبين خلقه كالانسان مثلا فى صفات الذات، انها فيه غير حادثة ، والالزم سبق عدمها واتصافه بالجهل والعجز فى بعض الاوقات وتعالى ربنا عن ذلك ، فهى قديمة بقدم الذات ، وايضا انها متحدة مع ذاته تعالى ، والالزم تركبه من صفة وذات وليس الله كذلك، وهذا بخلاف صفاتنا فانها حادثة فينا مسبوقة بالعدم ، وهى غير ذاتنا ، ولذا نتصف بها تارة وبعدمها اخرى ·

وهنا فرق ثالث بين صفات الله تعالى مطلقا وصفات مخلوقه ، انها بالاضافة اليه تعالى مطلقة غير مقيدة بقيد فى صفات الذات ، او بقيد فى الجملة فى صفات الفعل ، و هى فينا مقيدة بقيود كثيرة و محدودة بحدود ، فهو تعالى عالم بكل شيىء و قادر على كل شيىء ، وكذلك سميع و بصير بكل مايحق ان يسمع ويبصر، و تلك الصفات فى الخلق محدودة بزمان خاص و مكان معين و متعلق محدود ونحو ذلك .

واما صفات الفعل فهو تعالى وان لم يكن خالقا ورازقا مثلا فى بعض الاحيان، الا انه متى كان خالقا فهو خالق كل شيىء ورازق كل حى، بخلاف الخلق والرزق مثلا فى غيره .

وعلى هذا فالعزيز اما ان يلاحظ بمعنى كونه غالبا بالقوة ، فهو صفة ذات، واما بمعنى فعلية غلبته على الاعداء واهلاك الكفار وتدميرهم فى مامضى وفيما يأتى، فهو صفة فعل ، وعلى اى تقدير فهو ملحوظ بنحو الاطلاق ولذا فسروه بالغالب غير المغلوب .

واما الحكيم فهو بمعنى ذى الحكمة، وهى اصابة الحق بالعلم والعقل كما فى مفردات الراغب، فالله تعالى حكيم فى جميع افعاله بمعنى كونها على وفق الحق، وكونها كما ينبغى ويليق عقلا لانقص فيها ولاعيب ، وليس شيىء منها بحيث يدرك العقل نقصانه ، ووقوع الغلط والعوج فى خلقه وتدبيره .

ولحاظ كل شيىء من اجزاء العالم بنفسه والدقة فى كيفيته وكمه ولونه واعراضه

وحالاته ،كثمرة من شجر مثلا ثم لحاظه مع نسبته الى سائراجزاء العالم، واضافته الى مايقارن وجوده منها، من جهة كمال ربطه بها وربطها به ،كملاحظة ارتباط الثمر بالشجر ، والخواص الموجودة فيه فى انتفاع الحيوان به، والتقوى باكله واستفادة البدن منه ، وسائر مايشاهد ويعاين او يعلم بالدقة والتجربة، يورث القطع واليقين باتقان الصنع فى جميع اجزاء العالم ، وهو معنى الحكمة ، وكون خالقه ومدبره عليما حكيما .

قال تعالى : الذى احسن كل شيىء خلقه .

وقال تعالى : ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير (۴ الملك)

فالله تعالى اوجد الاشياء على اتقان الصنع فى اصل الايجاد، وعلى تدبير تام بعد الايجاد ، وعلى ترتب النفع العام الملحوظ من خلقتها وتدبيرها ، وكل ذلك من الحسن والاعجاب بمكان لوتأملته لم تجدفيه فطورا وفتورا ، ورجع اليك بصرك خائبا .

وقوله تعالى: فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين ، ظاهر الكلام ان الله تعالى جعل اعراضهم افساداً ، ثم حكم بانه عليم بذلك ، المقصود منه التهديد بالعذاب وحيث ان المخاطب فى هذه الايات علماء النصارى وعدة من اعيانهم ومتبوعيهم ، و خلافهم فى اصول الدين التى تتبعها اصول الاخلاق وفروع الشريعة ، فلااشكال فى كون توليهم عن النبى وكتابه سبباً لتولى التابعين وسائر عوام النصارى فى جميع احكام الدين عن رسول الله (ص) ويكون ذلك ايضا سبباً لتولى اعقابهم متسلسلين الى مايعلم الله من الازمنة ، فلاجرم كان اعراضهم افساداً لامة كبيرة وجيل بعدجيل ،وهو امر عظيم .

قال تعالى: قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد الا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون (٦٤ - آل عمران)

التفسير

كان توجه الخطاب فى الايات السابقة الى طائفة النصارى و اتباع الانجيل والخطاب هنا لاهل الكتاب جميعا من اليهود والنصارى ، والمقصود دعوتهم الى ترك الانداد و رفض الاشراك والاجتماع على التوحيد، والمراد بالكلمة هنا معناها وهوالذى فسر بامور ثلاثة عدمية ، لازمة الوجود لامر واحد ، وهو التوحيد اعتقادا وعملا، والفرق بين تلك الامور.

ان المراد بالاول التوحيد عملا وهو العبادة له تعالى والخضوع لجنابه دون غيره من خلقه.

وبالثانى التوحيد اعتقادا وعدم الاشراك له تعالى قلبا،وهذان الامران نهى عن الاشراك وحث على التوحيد على النحو الكلى ، فالمراد بالثالث النهى عن المصداق المتخذ الها ، والمجعول شريكا ، فقوله ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا ، اشارة الى ماقالته الطائفتان فى حق عزير والمسيح وغيرهما

ان قلت ما هو معنى تساوى تلك الكلمة بين المسلمين وأهل الكتاب ، وكيف يصدق هذا التساوى مع ابتعاد الطائفتين عن الاسلام ، وتفرق كل طائفة الى فرق كثيرة .

قلت معناه تساويها بينهم فى حكم العقل وقضاء الفطرة السليمة ، وفى مقتضى أصل دينهم وحقيقة شرعهم ، اذلااشكال فى ان العقل السليم و كل شريعة من الشرايع داعيان الى التوحيد، وقدنشأ جميع الاختلافات والتفرق الى أحزاب وفرق والتشعب الى شعوب وقبائل، لاجل الانحراف عن الطريق القويم وما شرعه الله من الشرايع

وما وصاه للناس بلسان الانبياء ، فالغرض من الاية دعوة أهل الكتاب الى مقتضى حقيقة الدين وروح جميع الشرائع وهو التوحيد اعتقاداً وعملا ، ولو أجابوا هذه الدعوة كان مفادها الاذعان بجميع الرسل وجميع الكتب السماوية ، ومنها القرآن وكانت النتيجة اسلامهم وترك اشراكهم .

وقوله تعالى: ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، والظاهر ان قول بعضهم بربوبية بعض واتخاذه ربا على قسمين ، اتخاذه ربا فى العبادة ، وربا فى الطاعة ، والاول هو القول بالوهيته حقيقة بمعنى كونه فى مرتبة فوق رتبة الممكن ، ومن اوصافه وجوب ذاته وقدمها وخلقه الاشياء ورزقه وغير ذلك .

والثانى هو القول بكونه مخلوقا ممكنا مع القول بقداسته ، وبلوغه الى مرتبة من الكمال بحيث يجب الخضوع له وطاعته فى جميع ماصدر منه بلامطالبة دليل ، كاعتقادنا بالنسبة الى الانبياء والائمة (ع) ، ويشهد بما ذكرناه قوله تعالى فى سورة التوبة (٣١) : اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا الله الها واحدا لااله الاهو، فان التفصيل فى الاية الشريفة بين الاحبار والرهبان وبين المسيح فى اتخاذهم ربا يعطى اختلاف عقائدهم فى المسيح وغيره .

اما فى الاحبار والرهبان ، فالظاهر انهم كانوا يطيعونهم فى كل ماقالوه طاعة مطلقة ، حتى مع العلم بفسقهم ومشاهدة مايصدر منهم من اتباع الهوى والميل الى الرئاسات وتحريف الكتاب وارتكاب المآثم .

ففى صحيحة ابى بصير قال سألت اباعبدالله عن قول الله عزوجل (اتخذوا احبارهم اه) فقال اماوالله مادعوهم الى عبادة انفسهم، ولو دعوهم الى عبادة انفسهم ماجابوهم ، ولكن احلوالهم حراما ، وحرموا عليهم حلالا ، فعبدوهم من حيث لايشعرون (كا ـ نور الثقلين ج ٢ ص ٢٠٩ ح ١١١) .

وعنه عن ابيعبدالله (ع) فى الاية، قال اماوالله ماصاموا لهم ولاصلوا، ولكنهم

احلوالهم حراما وحرموا عليهم حلالا فاتبعوهم، وفى رواية اخرى فكانوا اربابهم من دون الله . (ح ١١٤ و ١١٥)

واما فى المسيح فاقوالهم فيه مختلفة، وقد نقل عدة من المتصدين لنقل كلماتهم ان اصول اقوالهم ترجع الى ثلاثة، قال الاستاذ الطباطبائى فى كتابه الميزان ماخلاصته: ان محصل ماقالوه ان الذات جوهر واحد له اقانيم ثلاثة ، اقنوم الوجود ، واقنوم العلم ، وهو الكلمة ، واقنوم الحياة، وهو الروح ، وهذه الاقانيم الثلاث هى الاب والابن وروح القدس، فالابن وهو اقنوم العلم نزل الى الناس من عند ابيه ، وهو اقنوم الوجود بمصاحبة روح القدس ، وهو اقنوم الحياة التى بها يستنير الاشياء انتهى .

ثم انهم لم يتعرضوا فى الغالب لحال اقنوم الحياة، وعمدة الكلام فى ابحاثهم واقعة فى كيفية ارتباط الاقنومين الاولين اعنى الاب والابن، فقال الملكانية ان بنوة عيسى للاب بنوة حقيقية، (وانا لسنا ندرى هل يلتزمون بسائر لوازم ذلك من وجود الزوجة المناسبة لمقام الربوبية والزواج والمواقعة ، وانه هل انحصر عيسى بالولادة من الالهين ، اوان لهما اولاد أخر بنون وبنات الى غير ذلك من اللوازم الفاسدة وغير الممكنة فى الواجب) ، وقالت النسطورية : ان الاب قد حل فى الابن كحلول ضوء الشمس فى البلور والزجاج الضخيم مثلا ، وقالت اليعقوبية : ان الاب قد تنزل وتجسد وتجسم فصار لحما ودما فتصور بصورة الابن وهو عيسى .

ثم ان فى الآيات ايضا اشارة الى بعض تلك الاقوال قال تعالى :
لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة (٧٣ المائدة)

والظاهر ان هذا الكلام اشارة الى الاقانيم الثلاث التى منها الاب وهو الله فى اعتقادهم وقال تعالى: وقالت النصارى المسيح ابن الله (٣٠ التوبة) وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، (٢٦ الانبياء) ، وفى الايتين اشارة الى مذهب الملكانية .

وقال تعالى : لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم (٧٢ المائدة)

وهذا اشارة الى مذهب النسطورية، ويمكن ارادة مذهب اليعقوبية بارادته الانقلاب،
هذا : واما الاناجيل الموجودة بالفعل، فهى مختلفة فى المرمى، فيستفاد من بعضها
اصل التثليث ، ويصرح بعضها بالحلول والاتحاد ومايدل عليه من عباراتها اكثر ،
ففى انجيل متى الاصحاح الثامن والعشرون العدد ١٩

قوله لتلامذته (اذهبوا وتلمذوا كل الامم وعزوهم باسم الاب والابن وروح القدس، وفى انجيل يوحنا الاصحاح الرابع عشر العدد السابع وما بعده : (لو كنتم تعرفوننى لعرفتم أبى أيضاً ومن الان تعرفونه وقد رأيتموه أيضاً .

قال له فيلبس : ياسيدنا أرنا الاب وحسبنا ، قال له يسوع ، أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفنى يافيلبس: من رآنى فقد رأى الاب ، فكيف تقول انت أرنا الاب؟ أما تؤمن انى فى أبى وأبى فى ، وهذا الكلام الذى أقوله لكم ليس هو من ذاتى وحدى ، بل أبى الحال فى، هو يفعل هذه الافعال آمنوا أبى أنا فى أبى وأبى فى.

وفى الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا العدد العشرين .

(تكلم اليسوع بهذا ورفع عينيه الى السماء فقال : ياابت قد حضرت الساعة فمجد ابنك ليمجدك ابنك ، ثم ذكر دعاء لرسله من تلامذته ، ثم قال ولست اسأل فى هؤلاء فقط بل وفى الذين يؤمنون بى بقولهم ليكونوا باجمعهم واحداً ، كما انت ياابت ثابت فى وأنا أيضاً فيك .

وفى انجيل يوحنا فى الاصحاح الاول العدد الاول (فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله والله كان الكلمة مذ البدء ، كان هذا عند الله كل به كان وبغيره لم يكن شيىء مما كان ، به كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس .

وفى الانجيل الاصحاح الثامن العدد (٤٢)

لكنى خرجت من الله وجئت ولم آت من عندى بل هو أرسلنى . وبالجملة منشأ اختلافهم هذه العبارات ونظائرها من الاناجيل، وكثر الاختلاف بينهم والتشتت والتشعب ، وينقل ان مذاهبهم تبلغ سبعين أو أكثر .

قال‌الله تعالى : **ياأهل الكتاب لم‌تحاجون فى‌ابراهيم وماانزلت التوراة والانجيل‌الامن بعده افلاتعقلون . هاانتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم‌تحاجون فيماليس‌لكم به علم والله يعلم وانتم لاتعلمون. ماكان‌ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن‌كان حنيفا مسلما وماكان من‌المشركين ان‌اولى الناس بابراهيم ...** المؤمنين ۶۵ - ۶۸ آل‌عمران .

التفسير

ابراهيم هو النبى العظيم والرسول الكريم خليل‌الرحمن ، الذى ذكره الله تعالى فى مواردكثيرة من‌كتابه واثنى‌عليه فيه ثناء جميلا ، وذكره ذكراً حسنا فمن الامور المربوطة به .

١ - ايتائه الرشد وكمال العقل والدراية ، (ولقدآتينا ابراهيم رشده من‌قبل ۵١ الانبياء) .

٢ - تبريه من أبيه وقومه ونسبتهم الى الضلالة لاجل‌عبادة الاصنام ، وجعله تلك البرائة كلمة باقية فى‌عقبه واذ قال ابراهيم لابيه وقومه : اننى براء مما تعبدون الى يرجعون . (٢۶ - الزخرف)

٣ - اعطائه الحجة ورفعه درجات (وتلك حجتناآتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) ٨٣ الانعام .

۴- احتجاجه على قومه للتوحيد بافول الكواكب و القمر و الشمس ، و احتجاجه على‌ملك زمانه وجعله محجوجا .

قال‌تعالى : فلماجن عليه الليل رأى كوكبا قال‌هذا ربى‌فلما افل قال‌لا احب الافلين ٧۶ فلمارأى القمربازغا قال هذا ربى‌فلما افل قال‌لئن لم‌يهدنى ربى‌لاكونن من القوم الضالين ٧٧ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر فلما افلت

قال ياقوم انى برىء مما تشركون . (٧٨ الانعام)

وقال تعالى : الـم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان اتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا احيى واميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر . (٢٥٨ البقرة)

٥ ـ كونه صديقا نبيا : واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبيا . (٤١ مريم)

٦ ـ كيده للاصنام وجعلها جذاذة واقحامه القوم فى الكلام (فجعلهم جذاذا الاكبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون .... قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ماهولاء ينطقون (٥٧ ـ ٦٥)

٧ ـ كيد قومه لـه بالقائه فى النار وانجاء الله لـه ، (قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين) .

٨ ـ قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ٦٩ وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين) ٧٠ الصافات .

٩ ـ مجيىء الرسل اليه واحضاره العجل الحنيذ لهم وجداله فى استخلاص قوم لوط (ولقد جائت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ .... قالوا لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط ... فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجائته البشرى يجادلنا فى قوم لوط (٧٤ هود)

١٠ ـ بشارة الرسل له ولزوجه بالاولاد (فبشرناها باسحق و من وراء اسحق يعقوب ٧١ هود)

١١ ـ اعتزاله عن امته وخروجه ولوطا الى الارض المقدسة (ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين (٧١ـانبياء)، وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين (٩٩ صافات) .

١٢ ـ طلبه الولد من الله وقبول دعائه .

(رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم) (١٠٠ صافات)

١٣ - حمده لربه على ان وهبه اولادا .

(الحمدلله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى سميع الدعاء).
(٣٩ ابراهيم)

١٤ - امره بذبح ولده فى الرؤيا وتصديقه ذلك ومجيىء الفداء .

(فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال ياابت افعل ماتؤمر ستجدنى انشاء الله من الصابرين . فلما اسلما وتله للجبين وناديناه ان ياابراهيم قد صدقت الرؤيا ... وفديناه بذبح عظيم . (١٠٧ صافات)

١٥ - ابقاء الثناء عليه بعده .

(وتركنا عليه فى الاخرين) (١٠٨ الصافات)

١٦ - جعلهم ائمة داعين الى الخيرات عاملين بالصالحات .

(وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) (٧٣ انبياء)

١٧ - اختباره بكلمات واتمامه اياهن وانتخابه بالامامة . (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى جاعلك للناس اماما . (١٢٤ البقرة)

١٨ - دعائه لمكة المكرمة بالامن ولاهلها بالرزق .

(واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق اهله من الثمرات قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير . (١٢٦ البقرة)

١٩ - رفعه واسماعيل قواعد البيت ودعائه .

(واذ يرفع ابراهيم القواعد واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم
(١٢١ البقرة)

٢٠ - عهد الله اليه والى ابنه ان يطهرا بيته

(وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفتين والعاكفين والركع السجود . (١٢٥ البقرة)

۲۱ - طلبه من الله بعث الرسول من اهل مكة .

(ربناوابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم . (۱۲۹ البقرة)

۲۲ - اصفطائه فی الدنيا وصلاحه فی الاخرة وايمانه .

ولقد اصطفيناه فی الدنيا وانه فی الآخرة لمن الصالحين. (۱۳۰ البقره)

وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار . (۴۷ ص)

انه من عبادنا المؤمنين . (۱۱۱ الصافات)

۲۳ - تسليمهلله تعالى .

(اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين . (۱۳۱ البقرة)

۲۴ - كونه امةقانتا لله حنيفا شاكرا وفيا .

(ان ابراهيم كان امة قانتالله حنيفاولم يك من المشركين شاكرا لانعمهاجتباه وهداه الى صراط مستقيم . (۱۲۱ النحل)

وابراهيم الذی وفی . (۳۷ النجم)

۲۵ - امر الله محمدا (ص) باتباع ملته واعلامه الناس ذلك .

ثم اوحينا اليك اناتبع ملة ابراهيم حنيفا۱۲۳ النحل قل اننی هدانی ربی الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا . (۱۶۱ الانعام)

۲۶ - امر الناس بالتأسی به وباتباعه .

(قدكانت لكم اسوة حسنة فی ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انابرءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله . (۴ ممتحنة)

وقوله تعالى : ياأهل الكتاب لم تحاجون فی ابراهيم اه .

ليست محاجةاليهود والنصارى فی ابراهيم بدعوى كل طائفة منهماانابراهيم كان من امة نبيها عاملا بشريعته ، حتى يحمل قولـه تعالى : وما انزلت التوراة والانجيل اه على الجواب عن خطائهم وان ابراهيم كان قبل موسى وعيسى ، فان ذلك غير محتمل فی حقهم ، اذلااشكال فی انهم كانوا عالمين بتقدم عصر ابراهيم

وكون بعثته قبل موسى وعيسى .

بل الظاهر بعد التامل فيما اجاب الله عنهم بقوله تعالى: ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا ، وقوله : وما انزلت التوراة والانجيل الامن بعده ، ان كل طائفة منهم كانت تدعى ان ابراهيم كان عاملا بشرعها ، بمعنى كون شرع ابراهيم متحدا متوافقا مع شرعها ، فاليهود تدعى انه كان يهوديا اى آخذا بشريعة مطابقة لشريعتها.

والنصارى ايضا تدعى مثل ذلك . و هذا كما ينقل عن المسلمين ايضا ان شريعة ابراهيم مطابقة لشريعة الاسلام ولو فى الجملة ، ومنشأ التوهم فى كلا الفريقين اما كان مزعمة غير مدعومة بحجة ، او حسبان ، ان حقية ابراهيم و موسى مثلا تستلزم وحدة شريعتهما ، او كان ذلك فى اليهود لاجل قولهم بعدم امكان النسخ فى الاحكام الشرعية ، فيلزمهم القول بوحدة الشريعتين ، و على اى تقدير يكون محصل الجواب عن دعواهم ، ان بعث الرسول وانزال الكتاب كالتوراة والانجيل مثلا ، معناه انزال شريعة مستقلة ناسخة لسابقتها ، فنزول التوراة و الانجيل بعد ابراهيم ، معناه عدم كونه يهوديا ولانصرانيا ، وما لعله زعموه من استلزام حقية المبعوثين وحدة الشريعتين ، منشائه جهل الطائفتين بالفرق بين الدين والشريعة و عدم تعقلهم ذلك ، فانه لاشكال فى ان الدين واحد فى جميع الازمنة والاعصار كما قال تعالى : ان الدين عند الله الاسلام . (١٧ - آل عمران) وقال : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى اه فقد شرع الله للجميع دينا واحدا (١١- شورى)

واما الشريعة فهى متعددة بتعدد اولى العزم من الانبياء ، قال تعالى:

لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا (٤٨ - المائدة)

لكل امة جعلنا منسكاهم ناسكوه (٦٧- الحج)

وقوله تعالى : ها انتم هؤلاء حاججتم اه ظاهر الاية ان للطائفتين احتجاجا فى بعض الامور ، صادرا عن علمهم بمتعلق الحجة وانه ليس بمنكر ولامذموم ، و

انما الذم يتعلق بهم فيما ادعوه فى حق ابراهيم كما ذكر فى الاية السابقة ، واحسن ما يقال فى توجيه احتجاجهم على ما علموه ، هودعوى النصارى نبوة عيسى وحقية كتابه وشريعته ، فهم يدعون ذلك عن علم به ويستدلون له ويحتجون على اثباته بحجج ، وهم فيه مصيبون ، ودعوى اليهود عدم بنوة عيسى لله ، او عدم اتحاده مع الرب ، اوعدم كونه احد الثلاثة، هذا وقيل فى ذلك مطالب اخر اغمضنا عن ذكرها .

وقوله : ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين

الحنيف المائل الى الحق ، ويضاده الجنيف وهو المائل الى الباطل ، و يلاحظ ذلك فى العقائد والاخلاق والاعمال الجوارحية . والميل الى الصواب فى كل مرحلة منها حنفية . والظاهران اطلاق هذا الوصف على ابراهيم لاجل كون مقتضى عصره واهل زمانه طرأ الفسادوالانحراف .والدعوة الى الباطل ،والجذب الى الخرافات فى شتى مراتبها وجهاتها ، فهو(ع) كان (بمااتاه الله تعالى من الرشد حيث قال: وآتيناه رشده من قبل) يتخلص من كل جاذبة فى اى موضوع الـى الحق والصواب فى ذلك المورد ، وقد وقع نظيرذلك للنبى الاعظم محمد (ص) فقد نشأ وبرع بين جذبات واقتضائات متنوعة من دعوة قومه الى الاشراك والوثنية وعبادة الاصنام ، و دعوة العادات و الرسوم الفاسدة الى الرذائل الخلقية والـى الاعمال المنكرة والفواحش ، فاتصف بالحنفية فى جميع ذلك بتوفيق من الله ، قال تعالى : (الم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك) .

(الم يجدك يتيما فاوى ووجدك ضالا فهدى) . ولعل المراد بالوزر الذى ينقض الظهر هوتلك الاقتضائات والجذبات .

و قد استعملت كلمة حنيف مفردا فى القرآن الكريم فى عشرة موارد ، ثمانية منها فى وصف ابراهيم الخليل اوتوصيف دينه وملته ، ووقعت فى موردين وصفا لنبينا محمد (ص) اولدينه ، وهومشعرالى ماذكرنا ، قال :ان ابراهيم كان امة

قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين (١٢٠- النحل)

ولافرق فيما ذكرنا بين وقوعها وصفا للشخص اولدينه وطريقته ، وقال(ع) بعد ما انكر ربوبية الكواكب والقمر والشمس : انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا (٧٩-الانعام) .

و قوله مسلما . الاسلام قد يطلق على الاقرار باللسان ، سواء حصل معه الاعتقاد فى القلب ، ام لم يحصل ، فهوفى المرتبة دون الايمان و به يحصل حقن دم المسلم ، و قد يطلق على مرتبة فوق الايمان ، فان الايمان و الاعتقاد قلبا قد لايوجب العمل، فاذا قوى ذلك بحيث صارت النفس خاضعة لربها منقادة لاوامره سلما لله تعالى اطلق عليه الاسلام ، فالاسلام هوالمرتبة القوية الكاملة من الايمان بحيث يستلزم العمل بالاركان ، ولعل هذا هوالمراد بقوله تعالى : (ان الدين عند الله الاسلام) . فالدين عبارة عن الايمان والعمل كليهما اوالايمان الملازم له

وقوله تعالى : وماكان من المشركين ، لعله رد لدعوى مشركى مكة حيث يدعون ان ابراهيم الخليل كان منهم، وهم ابنائه وعلى دينه ، ويمكن كون ذكره اشعارا ببطلان دعوى الطائفتين من وجه آخر ، والمراد انكم ان تدعون ان ابراهيم كان يهوديا متشرعا بالتوراة الحقيقية المنزلة من السماء و كذا الانجيل، فهى باطلة، لنزول الكتابين بعده ، وان ادعيتم انه كان على ماهوالموجود عندكم و على طريقتكم الفعلية الجارية فيكم ، فلازمه ان يكون ابراهيم ايضا مشركا فى الطاعة اوفى العبادة كما انتم كذلك ، لكن ابراهيم كان حنيفا مسلما ولم يكن منكم

وقوله : ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين .

ليس المراد بالاولوية هنا التسلط والولاية فى التصرف والتدبير كماهوواضح بل المراد بها القرب من الشيىء من ولى يلى فلانا دنا منه وقرب ، وليس المراد بالقرب ايضاً القرب المعنوى من جهة كمال الايمان ، فانه لواريد ذلك لكان موسى

وعيسى ايضاً اوليين به ، بل الظاهر ان المراد القرب من حيث العمل بشريعته ، فان ابراهيم كان جائيا بشريعة خاصة عاملا بها ، والاقرب اليه من جهة العمل بهاهو اتباعه المؤمنين فى عصره ومايليه من الاعصار ، والنبى الاعظم محمدصلى الله عليه وآله واتباعه والمؤمنون به ، من اجل ان شريعته (ص) اقرب الشرايع الى شريعة ابراهيم ، فان شرع موسى كان يغاير شرع ابراهيم لاجل شموله لبعض الاحكام الخاصة المرتبطة ببنى اسرائيل، كتحريم صيد السموك يوم السبت. (وقلنالهم لاتعدوا فى السبت واخذنا منهم ميثاقا غليظا (۱۵۴-النساء)

(ولقدعلمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت (۶۵ - البقرة)

وكتحريم الطيبات التى كانت لهم حلالا (فبظلم من الذين هادوا حرمناعليهم طيبات احلت لهم) (۱۶۰ - النساء)

وكتحريم بعض الانعام (وعلى الذين هادوا حرمنا عليهم كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما اه) (۱۴۶ - الانعام)

وكذلك شريعة عيسى كانت تغاير شريعة ابراهيم من جهات كتشريع الرهبانية فيها (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ماكتبناهاعليهم الاابتغاء رضوان الله (۲۷ - الحديد)

ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لايستكبرون . (۸۲-المائده).

وكتشريع الزهد الشديد عن الدنيا كمايحكيه فعل عيسى (ع)

وتشريع وجوب الحصر او استحبابه ، بمعنى ترك التزويج الى آخرالعمر وغيرذلك ، وكان اقرب الشرايع الى شريعة ابراهيم هوالاسلام ، بل يمكن ان يقال ان بين شريعة ابراهيم والاسلام عموم وخصوص مطلق، وكل ماكان من شرعه فهوفى الاسلام ولا عكس ، ويشير اليه قوله تعالى :

ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا (۱۲۶ - النحل)

وقال ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله واتبع ملة ابراهيم حنيفا.

(۱۲۵ - النساء)

ولعل ذلك لاجل ان ابراهيم (ع) كان داعيا للناس الى الاصول الاعتقادية وامهات الفروع العملية مما تستقل به العقول ، اذ لم يمكن لـه تشكيل الحكومة والولاية على المجتمعات التى تقضى تشريع فروع متشعبةمن‌الشرايع ، ثم‌اضيف اليها فى الاسلام احكام يقرب من‌ذلك فى كونها فطرية عقلانية ، منطبقة على حال الملاء البشرى فى كل عصر وزمان كما قال :

(فاقم‌وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها):

قال تعالى : **ودت طائفة من اهل الكتاب لويضلونكم و ما يضلون الا انفسهم وما يشعرون (٦٩) يااهل الكتاب لم‌تكفرون‌بايات‌الله وانتم‌تشهدون (٧٠) يااهل‌الكتاب لم‌تلبسون الحق بالباطل وتكتمون‌الحق وانتم‌تعلمون**

(٧١-آل‌عمران)

التفسير

الود حب الشيىء وتمنى وجوده ، والمراد به هنا ليس هو الحالة القلبية محضا بل الود والحب عملا ، فحبهم اضلال المسلمين هـو سعيهم فى ذلك وايجادهم مقدمات الاضلال ليتحقق منهم ذلك ، وحيث ان المراد بالاضلال هنا هوماكان ذات‌الجهات والابعاد اى الاضلال فى الاعتقادات الجوانحية والصفات والملكات الروحية والاعمال الجوارحية و ان الحكم المذكور لايختص بزمان خاص كزمان نزول الاية الشريفة ، بل الكلام يقتضى عموم المعنى لكل عصر ومصر و كل زمان ومكان ، كما يشهد به العيان ، فكل ما صدر منهم مما كان سبباً لتحريف العقائد والاعمال عن مسيرها الشرعى الالهى ، فهو مصداق للاضلال كنشرهم للكتابين المحرفين فى بلاد المسلمين وتبليغهم عقائدهم الباطلة فى بلاد المسلمين ، ودخالتهم فى امور المسلمين من نشر الكتب المشتملة على عقائدهم ، ونشر الجرائد اليومية والاسبوعية والسنوية المشتملة على الخرافات فى المجتمعات

الاسلامية ، وبناء الكنائس والمدارس والامكنة المعدة للفحشاء والمنكر فى البلاد الاسلامية ، وادخال سائر وسائل الفحشاء فى الممالك الاسلامية، وغيرذلك من كثير الخيانات والمنكرات التى ملاءت بلاد المسلمين،فكل ذلك من الاضلال الذى ودوه واحبوه وداً عمليا وحباً خارجيا .

وقوله: ومايضلون الا انفسهم . اى أنهم أضلوا انفسهم وماضلوا المسلمين، وهذا اشارة الى قانون عام عالمى وسنة تكوينية اجراها الله فى عباده من رجوع نتائج اعمال الناس الى انفسهم ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً .

وحيث ان هذا العالم ، اعنى الحياة العاجلة الدنيوية متصل بعالم الأخرة والحياة الدائمة الابدية ، فقد يكون الرجوع فى هذا العالم ، وقد يبقى الى عالم الاخرة ، وح فيتضاعف الجزاء ويزداد، ويصير اضعافا مضاعفة على حسب اختلاف النشأتين فى جميع خصوصيات الحياة و كمال النشأة الاخروية فى كل الجهات ، فان الاخرة لهى الحيوان ، فالادراكات الروحية فيها اقوى بمراتب ، والتلذذ والتألم الجسمانية فيها كذلك :

وتشهد على تلك السنة الالهية آيات. قال تعالى:

لهاما كسبت وعليها ما اكتسبت (۲۸۶- البقرة)

ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس (۴۱ - الروم)

ان قلت ان قوله تعالى: ومايضلون يشتمل على جملتين ايجابية وسلبية والمعنى انهم يضلون انفسهم ومايضلون المسلمين .

اما الجملة الاولى فهى التى تؤيدها الكبرى الكلية المذكورة ، فهم قداضلوا انفسهم وجعلوها شقية ضالة تستوجب النار وتنتهى بالاخرة الى الجحيم، وهوالمراد بضلالة النفس ، الا ان الكلام فى الجملة السلبية ، فكيف يصح ذلك اذا فرضنا انهم اضلوا عدة من المسلمين فاخرجوهم من الايمان واوردوهم الكفر والعصيان ؟ بل لازم هذا الامر كون الجملتين ايجابيتين بان يقال انهم اضلوا المسلمين فاضلوا انفسهم

قلت حصول الضلالة فى المسلمين باضلال الكفار على قسمين

احدهما اختيارهم الضلالة عن علم وعمد ، ولو كان ذلك بعد دعوة الكفار ووسوستهم واغوائهم .

والثانى ضلالتهم عن جهل وغفلة بحيث كانوا معذورين فى ذلك.

اما الاول فلا اشكال فى ان للفعل الحاصل هناك اعنى الضلالة نسبتين ، نسبة الى الضال بالاصالة ، و نسبة الى المضل بالتبع ، كما فى سائر موارد نسبة الفعل الواحد الى المباشر والسبب ، وحيث ان المباشر هنا فاعل مريد مختار فى فعله ، ويترتب عليه عقاب فعله ، سوغ ذلك نفى النسبة عن السبب لضعفها فيه وقوتها فى المباشر .

وهذا كما فى نسبة الاعمال القبيحة الى الانسان المرتكب لها والى الشيطان، وفى نسبة الاعمال الصالحة الى فاعليها والى الله تعالى ، الاتلاحظ قوله تعالى فيما يحكى عن الشيطان ، مما يقوله فى جهنم لاتباعه (وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلاتلومونى ولوموا انفسكم (٢٢ - ابراهيم)

فترى ان الشيطان ينفى اللوم الناشى عن العقائد الفاسدة و الافعال القبيحة عن نفسه الملازم لنفى نسبة تلك الافعال عن نفسه ، ويظهر ايضا انه لو كان هناك تسلط عليهم باكراه اواجبار لتوجه اللوم الى الشيطان كلا او بعضا

هذا كله فى اثبات النسبة ونفيها ، و اما العقاب الاخروى المترتب على الضلالة المذكورة فى الاية وعلى كل فعل قبيح صدر عن المباشر المختار، اذا كان ذلك بامر من الغير ودعوة و اغواء منه ، فلا اشكال فى انه كما يترتب على الفاعل المختار فى مباشرته العقاب المجعول لذلك الفعل يترتب نظيره على الامر المشير اليه، والداعى المتسبب لحصوله

فلاحظ قوله تعالى فى حكاية حال اهل النار: (وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبرائنا فاضلونا السبيل ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا.

(٦٨-الاحزاب)

والمراد بضعفين عذاب عمل السادة بالمباشرة وعذابهم بالامروالاغواء

وقوله تعالى: (كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت اخريهم لاولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون (۳۸ ـ الاعراف)

فان الاية الشريفة تدل على كون عذاب الامة الاولى ضعفا، لضلالهم بانفسهم واضلالهم المتأخرين منهم رتبة او زمانا ، التابعين لضلالهم والمقتدين بفعالهم ، وعذاب الامة المتأخرة فهو ضعف ايضا لضلالهم وعونهم المتبوعين فى اضلالهم

ويشهد بما ذكرنا ايضا ما ورد من ان من سن سنة حسنة فله اجر من عمل بها ومن سن سنة سيئة فله وزر من عمل بها

وما ورد من ان الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم اه .

و هذا يدل على عقاب الامر بالعصيان ، و الداعى الى مخالفة الرحمن بـالاولوية .

فتحصل مما ذكرنا ان نفى نسبة الضلالة الصادرة من المسلمين الى الكفار انما هو لاجل ضعف تلك النسبة وقوة اسناد الفعل الى المباشر المختار، وهو لاينافى توجه العقاب على الكافر المضل ، فان العقاب قد يتوجه بدون تحقق الانتساب ايضا كما عرفت هذا .

واما فى صورة حصول الضلالة فى المسلمين باغواء الكفار مع كونهم معذورين فتوجه الاضلال اليهم اوضح ، اذ الظاهر ان المراد برجوع الاضلال الى الكفار رجوع عقابه وهو النار وعذاب الاخرة ، ولااشكال فى انه اذا كان ضلال المسلمين عن جهل وغفلة بحيث كانوا معذورين على ما قاله تعالى : (و ماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) فلا عقاب عليهم ، والعقاب المترتب على تلك الضلالة مترتب على الكفار ، فهم قد أضلوا انفسهم بالقائها فى الهلكة والعذاب ، ولم يوقعوا المسلمين فى العذاب .

نعم لو كان المراد بالاضلال جعلهم محرومين عن الفوز والنعم الاخروية لم تكن السابقة صادقة ، اذ الكفار المضلين كماحرموا بانفسهم عن النعم والبركات حرموا الضالين ايضاً منها ، فان العذر فى الضلالة يكون سبباً لعدم ترتب العقاب لالترتب الثواب ايضا.

هذا . ولك ان تقول فى جواب الاشكال المذكور ان المراد بالود ، الحب القلبى لاالعملى وان الاخبار عن وجود صفة من الصفات الباطنيةفى الكفار ، فالمراد ان فى قلبهم حب ضلالة الناس وود ايقاعهم فى الكفروالعصيان ، و حيث ان نفس هذا الحب رذيلة اخلاقية وعائبة شيطانية وخبث فى السريرةالانسانية ، فهم قداضلوا انفسهم بتحصيل هذه الرذيلة ، والفرض انهلاتأثيرله فى حال المسلمين . فلم يضلوا الاانفسهم ولم يشعروا بمرضهم هذالحبهم انفسهم وحب الشيىء يعمى ويصم.

وقوله : يا اهل الكتاب لم تكفرون بايات الله وانتم تشهدون) الكفر اصله السترويستعمل فى الانكاروالجحد، حيث ان الجاحدلامر كأنه يستره وهوالمراد هنا والاية فى اللغة العلامةالظاهرة الحاكيةعن شيىء غيرظاهربحيث اذا ادرك الاولفهم الثانى ، وقداستعملت فى الكتاب الكريم فى موارد :

الاول فيماجعله الله وعينه لفرض كونه آيةوعلامة لتوحيدهوقدرته وسائراوصافه اونبوة نبيه اونحوذلك ، ولتسم بالاية الخاصة . وذلك كمعجزات الانبياء وسائر الامور الخارقة لناموس الطبيعة .

قال تعالى : فى قصة صالح النبى عليه السلام (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جائتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى ارض الله

(٧٣- الاعراف)

وقال تعالى فى قصة عيسى (قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدةمن السماء تكون لنا عيداًلاولنا وآخرنا وآيةمنك) (١١٤-المائدة)

وقال فى قصة عزير: اوكالذى مرعلى قرية وهى خاوية على عروشها قال انى

يحيى هذه‌الله بعدموتها فأماته‌الله مأة عام ثم بعثه ... ولنجعلك آية‌للناس (۲۵۹ ـ البقرة)

وقال‌تعالى‌فى‌قصة نوح«ع» فانجيناه واصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين (۱۵ العنكبوت) اى جعلنا الحادثة المذكورة اونجاة اولئك القوم آية للناس.

وقال فى‌قصة موسى (ع) وفرعون: فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم‌آيات مفصلات . (۱۳۳ الاعراف) .

وقال تعالى : وجعلنا ابن‌مريم وامه‌آيةو آويناهما الى‌ربوة ذات قرار ومعين (۵۰ المؤمنون) .

وقال‌تعالى : فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن‌خلفك آية. (۹۲ يونس)

المورد الثانى فى مطلق ماخلقه وانشأه ممايستدل به‌العاقل على توحيد الله و سائر اوصافه اوعلى المعاد والبعث .

قال تعالى ومن‌آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم و الوانكم (۲۲ الروم) .

وقال تعالى : ومن آياته الجوارفى‌البحر كالاعلام . ان‌يشأيسكن‌الريح‌فيظللن رواكد على ظهره (۳۲ الشورى) .

وقال: ومن آياته‌ان خلقكم من تراب ثم‌اذا انتم‌بشرتنتشرون (۲۰ الروم)

وقال تعالى : ومن‌آياته ان تقوم السماء بامره‌ثم اذادعاكم دعوة من الارض اذاانتم تخرجون (۲۵ الروم)

المورد الثالث فى خصوص الكلمات القرآنية والقطعات منها، وقديقال ان استعمالها فيهاليس لاجل خصوص وضع تخصيصى او تخصصى شرعى فى ذلك وان‌كان لايبعد حصوله عند المتشرعة ، بل لكون الايات المصطلحة والقطعات كنفس الكتاب الكريم آية‌الهية ومعجزة مثبته لتوحيده ونبوة نبيه .

قال تعالى : هوالذى انزل عليك الكتاب منه‌آيات محكمات هن أم‌الكتاب واخرمتشابهات (۷ آل‌عمران) .

وقال تعالى : ذلك نتلوه عليك من الايات والذكر الحكيم (٥٨ آل‌عمران) الرتلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١-الحجر) الركتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير«١-هود» كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته(٢٩ص)

اذا عرفت ذلك فيمكن ان يكون المراد بالاية فى آيتنا المبحوث عنها هو ـ المعنى الاعم الشامل لجميع تلك المصاديق فان اهل الكتاب كانوا منكرين للقرآن الكريم ، وهو من الآيات الخاصة الالهية انزله الله تعالى بعنوان الاعجاز و تحدى فيه جميع الناس بقوله :

قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً «٨٨ ألاسراء» .

وقوله : وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله و ادعوا شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين (٢٢ البقرة)

وقوله : ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . «١٣ هود» فمن ادعى النبى الاعظم لم يأت بمعجزة تجبه بها المنكرين وتقحمهم كما اتى موسى بن عمران «ع» بالعصا واليد البيضاء و عيسى بن مريم باحياء الموتى وغيرهما من الانبياء بغيرها من المعاجز ، فقد اخطأ و خبط وأنكر ما هو اوضح من الامس نعم ليس الكتاب الكريم مثل تلك المعجزات مما يناسب حال العوام والبسطاء من الناس بل مما يدركه اهل النهى وذووا الالباب وكذا قصة المعراج ومجيء الملائكة فى غزوة بدر وشق القمر ونحو ذلك .

وبالجملة فالانكار من الكفار كفر بهامع الشهادة والحضور .

وكذلك انكارهم للايات العامة فان ادلة التوحيد وادلة صفات الله تعالى الجلالية والجمالية هى التى ملاءت الافاق لمن كان له قلب اوألقى السمع وهو شهيد، فالقول بالتثليث ونحو ذلك انكار لها وهم حاضرون عند الايات شاهدون لها ومثله انكارهم للايات القرآنية بما هى كلمات الله .

فظهر ان معنى قوله تعالى : وانتم تشهدون اى تحضرون تلك الايات وهى بمرئى منكم ومنظر ومدرك .

وقوله: ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون خطاب ايضا لاهل الكتاب من اليهود والنصارى ، واللبس الخلط ، ولبس الحق بالباطل يكون تارة فى الاصول الاعتقادية واخرى فى الاعمال ،فالاول كما فى القول بالتثليث ونحوه فالقول بأن الله هو الذى له ابن اوله شريك كروح القدس خلط للحق بالباطل ، ويلازمه كتمانهم الحق وعدم معرفتهم ربهم من حيث الذات و الصفات بما يتيسر للانسان معرفته ، ونظير هذا اشراك عبدة الأوثان ، فانهم وان كانوا قائلين بالله تعالى كما يشهد بذلك قوله تعالى :

ولئن سئلتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله (۲۵ لقمان)

وقوله تعالى : واقسموا بالله جهد ايمانهم (۱۰۹ الانعام) الاان القول بان الاصنام هم الشفعاء عندالله ، اوانهم يقربون الطالب الى الله زلفى، يكون سببا لكتمان الحق وهو الله، فان الاله الذى يكون اقرب الخلق اليه والشفعاء لديه احجار واشجار نحتها الانسان، ليس هو الله تعالى، فقد صار الحق ح مكتوما. واما الخلط فى الفروع فكعبادات اهل الكتاب ، اذ الخضوع والعبادة للابن وروح القدس مثلا عصيان فى الحقيقة وليس عبادة ، مضافا الى ما يصدر منهم من المنكرات باسم العبادة من اكل العجين المعهود وشرب الخمر واللعب والرقص الخاص ، فالعبادة التى هى الحق الجدير بالاتيان به مكتومة، فهى كصلوة المشركين عندالبيت حيث يقول تعالى وماكان صلوتهم عندالبيت الا مكاء وتصدية .

وقوله تعالى : وانتم تعلمون . اى تعلمون خلط الحق بالباطل و تعرفون الحق من الباطل لقيام الحجج عليهم بواسطة دعوة النبى الاعظم صلى الله عليه وآله وآيات الكتاب الكريم ، فلم يكن اعراضهم عنها الا لاتباع الهوى وحب الرئاسة والشهوات.

ولوقيل انه لم يكن يعرف ذلك جميع اهل الكتاب فكيف اطلاق الكلام وعمومه ؟

قلنا الظاهران الخطاب المتوجه الى الطوائف كأهل الكتاب والمشركين و غيرهم فى غالب الايات لولا جميعها ليس الالخصوص المتبوعين من الناس العارفين بالحق المميزين بينه وبين الباطل ، واما التابعون المقتدون المتعصبون فى اتباعهم ، فغير مخاطبين ، ولعلهم معذورون فى عدة من موارد التكليف لجهلهم قصوراً واعتقادهم جزماً بما القاه اليهم علمائهم وكبرائهم .

قال تعالى : **وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم - قل ان الهدى هدى الله - ان يؤتى احد مثل ما اوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم -العظيم -(٧٢ -٧٤ آل عمران)**

التفسير

قد يوجه معنى الايات على نحو يرتبط بعضها ببعض ويكون الجميع مسوقة لبيان غرض واحد ، وحاصله ان الظرف الأول : و هو قوله تعالى : وجه النهار اى اوله متعلق بصلة الموصول اعنى قوله انزل المذكور لفظا ، و كذا الظرف الثانى متعلق بفعل مقدر يفسره الموصول السابق وصلته ، اى واكفروا بما انزل عليهم آخر النهار ، والمراد بالذى انزل حكم خاص لامطلق ، فيعلم من مفاد الاية الشريفة ان هنا حكما انزله الله على المسلمين اول النهار ، وحكما انزله آخره ، فاوصت طائفة من اهل الكتاب بعضهم بعضا بالايمان بالحكم الاول و اظهار ذاك الايمان على المسلمين ، وبالكفر والاعراض عن الحكم

الثانى ، هذا كله رجاء ان يرجع المسلمون عما اعتقدوا به من الاصول و الفروع وعلى هذا فيكون قوله : ولاتؤمنوا الالمن تبع دينكم ، تتمة للكلام السابق وتأكيد للزوم الكفر بالحكم اللاحق، وعدم الاعتراف بكونه حقا الا لاتباع دينهم ولشياطينهم.

ثم ان هذا القائل ادعى ان الحكم الاول عبارة عن وجوب استقبال المسلمين القبلة الاولى وهى بيت المقدس فى صلاتهم فى المدينة ، والحكم الثانى استقبالهم القبلة الثانية و هى الكعبة حيث نسخ الله الاولى بعد بضعة عشر شهرا من هجرة النبى الى المدينة وامر الناس باستقبال الثانية ، و كان زمان نزول النسخ صلوة الظهر اوالعصر بعد ما صلى النبى ركعتين ، فجاء جبرئيل الى النبى الاعظم وهو مشتغل بصلوة الجماعة فى المسجد ، فحول وجهه الشريف من المسجد الاقصى الى المسجد الحرام ، ثم تحول المأمومون ، فصار الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال . بمعنى تقدم صفوفهن على صفوفهم ، وكان هذا الامراعنى تحويل القبلة مذكورا فى التوراة وصفا للنبى الاعظم ، وعلى هذا فقوله : ان يؤتى احد متل ما اوتيتم فى محل النصب على اضمار مخافة او كراهة.

وقوله : اويحاجوكم عند ربكم عطف عليه

وقوله : ان الهدى هدى الله ، جواب عن امرهم بالكفر بالحكم الثانى وترك الاعتراف بحقيته .

كما ان قوله : قل ان الفضل اه جواب عن قولهم ان يؤتى احد مثل ما اوتيتم، فحاصل مفاد الاية ح ان الطائفة قال بعضهم لبعض آمنوا بحكم الاستقبال فى الصلاة نحو المسجد الاقصى واكفروا به نحو الكعبة، ولاتقروا بكون الحكم المذكور ثابتا فى التوراة الالاتباع دينكم حذرا من ان يؤتى المسلمون قبلة مثل ما اوتيتم، وحذرا من ان يحتجوا عليكم بذاك الاقرار يوم القيامة : فاجاب الله تعالى عن سترهم الحكم واخفائه عن المسلمين بأنه لم يكن جحدكم حكم الله تعالى وثبوته فى كتابكم الا لمنعكم عن هداية الله ، مع ان الهداية النافذة التى لايمنع عنها هى هداية الله ،

وعن حصرهم بعث النبى ونزول الكتاب بانفسهم بان رحمة الله بيده يختص بها من يشاء من المسلمين وغيرهم هذا ما ذهب اليه بعض فى معنى الاية و اختاره صاحب الميزان دام ظله لكن فيه :

اولا انه ليس ههنا حكم شرعى خاص نزل فى اول النهار ثم نسخ ونزل خلافه فى آخره ، فان امر القبلة ولزوم استقبال النبى والمسلمين الى بيت المقدس كان من اول بعثة النبى الاعظم فى مكة ، و قد صلى هو والمؤمنون الى القدس ثلثة عشر عاماً فى مكة ، وما يقرب من سبعة عشر شهرا فى المدينة ، نعم قد كان (ص) يراعى احيانا فى مكة استقبال القبلتين القدس والمسجد الحرام ، وبالجملة لانعرف هنا حكما نازلا فى اول النهار ولم نعرف وقت نزول الحكم الاول عند ابتداء بعثة الرسول (ص).

وثانيا انه لم يكن الحكم الناسخ اى استقبال مكة فى آخر النهار، بل فى وسطه اذ المروى ان جبرئيل اتاه فى صلاة الظهر بعدما صلى منها ركعتين فحول وجهه الى الكعبة.

وثالثا جعل الظرف الثانى اعنى قوله آخره متعلقا بفعل مقدر بتقدير واكفروا بالذى انزل عليهم آخره خلاف الظاهر بل ظاهره انه متعلق باكفروا، فيكون مؤيدا لتعلق الظرف الاول بكلمة آمنوا ، وليس فيه خلاف الظاهر.

و رابعاً ان قوله تعالى : لعلهم يرجعون فى مقام تعليل ما حكموا به من الايمان اول النهار والكفر آخره، فجعل قوله ان يؤتى احد وأو يحاجوكم ايضاً تعليلا غير ظاهر.

فالاولى ان يقال فى معنى الايات ان الاية الاولى مسوقة لافادة امر، والثانية لبيان امر آخر، وكلاهما من الامور الخفية التى كانت بين علماء اليهود وكبرائهم، اخبر عنهما القرآن بنحو الاعجاز ، اظهار الفساد امرهم وحسدهم وكتمانهم الحق المعلوم عندهم.

اما الاول فهو نوع من التخطط والحيل التى رسموها لتضعيف عقائد المسلمين وارجاعهم عن دينهم بأن يدخل عدة منهم فى الاسلام ويؤمنوا فى الظاهر اول النهار ثم يكفروا آخره ، قائلين بانا آمنا ودخلنا فى الدين و قربنا من الاسلام و احكامه و قوانينه ، فلم نر فيها صدقا وحقا ، ولا مايليق ويجدر بالقبول ، فخرجنا الى ماكنا فيه وقد فعلوا ذلك راجين ان يؤثر فى رجوع من آمن بذاك الدين من المسلمين.

و اما الاية الثانية . فالايمان فيها بمعنى التصديق والاعتراف لسانا كما فى قوله تعالى : قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين اى يصدق المؤمنين ويقر بصدقهم ، ويؤيد تعديته باللام كما فى المقام ، فالغرض من الاية بيان امر آخر من اقوالهم فيما بينهم والكشف عن مكرهم عندما خلوا الى شياطينهم وهو استيصاء بعضهم الى بعض ان لايعترفوا للمسلمين بامرين مع كونهما معلوما عندهم مذكوراً فى كتابهم .

الاول: بعث نبى منهم ونزول كتاب ودين عليهم ، مثل ماوتى اليهود.

والثانى: احتجاجهم يوم القيامة على اليهود بكتابهم ودينهم ، حيث اخبر الله تعالى فيه بمجيىء النبى وحقية كتابه ودينه : فقوله تعالى : ولاتؤمنوا عطف على قوله آمنوا اى قالت طائفة منهم لاتؤمنوا الخ.

وقوله : ان يؤتى اه متعلق بقوله لاتؤمنوا وجملة قل ان الهدى معترضة واقعة موقع الجواب عن قولهم ، كما ان قوله قل ان الفضل اه ايضاً جواب عن كلامهم ، فان الثابت فيهم امران كتمانهم الحق والعلة الحقيقية الباطنية فى ذلك هو الحسد ، فاجاب عن كتمانهم بان الهداية النافذة المؤثرة ليست الا هداية الله ، فكتمانهم لايدفع مشية الله ولايؤثر شيئاً ، واجاب عن حسدهم للمسلمين ولما آتاهم الله تعالى من النبى والكتاب بقوله قل ان الفضل بيد الله فقولوا ماشئتم واحسدوا ما اردتم ، فلاتمنعون فضل الله عمن اراده الله بالاحسان ولارحمته عمن اراده بالرحمة والامتنان.

ثم ان تقديم التعليل الاول وجعله بنحو الجملة المعترضة لعله لبيان شدة قبح

كتمانهم او لامر اخر لانعلمه ، والاية الشريفة مما اعترف عدة من المفسرين بانها اصعب آيةفى القرآن من حيث اللفظ والمعنى والله العالم بحقائق تنزيله .

وقوله قل ان الفضل - العظيم - الفضل عبارة عن الزيادة على قدر الاقتصار كفضل العلم والمال والجسم والعمل وغيرذلك ، ويكثراستعماله فى مطلق النعمة والرحمة عبارة عن الصفة القلبية الخاصة ، وتستعمل اذا جعلت وصفاًلله تعالى فى ترتيب آثار ذلك ، فترجع الى انعامه تعالى فى الدنيا او فى الاخرة اوفيهما ،

وقوله : يؤتيه من يشاء ، وكذا قوله يختص برحمته من يشاء ، فقد يتوهم منه ان تعليق ايتاء الفضل وتخصيص الرحمة بمشية الله يدل على عدم ملاك وميزان فى ذلك بحسب الواقع وعند العقل ، بل له ان يؤتى من لااستحقاق له عند العقل فيغفر للكافر المسيىء ويدخله الجنة ، ويحرم المؤمن العامل ويورده النار ، فان الله لايسئل عمايفعل وهم يسئلون ، لكن قدمرنا ما يوضح حقيقة الامر فى نظائرالمقام.

ففى الايتين ان ارجعنا الضمير المستتر فى كلمة يشاء الى الموصول كان المعنى ان الله يؤتى الفضل ويختص بالرحمة من يشائهما فلا فضل ولارحمة لمن لميشأهما ، وهذا معنى مرجوح ، بل ظاهر الكلام رجوعه الىالله تعالى .

ولايرد ماذكرناه من الاشكال ، اذتعليق الاعطاء على المشية لايقتضى لغوية المشية وعدم وجود الحكمة فى ذلك ، فقد ثبت بالعقل والنقل امتناع صدور اللغو واللهوعنه تعالىوكون جميع افعاله صادرةعن حكمةوصلاح ، وقدعرفت اناصول نعمه تعالى التى اليها يرجع معنى الفضل والرحمة ستة :

١ - نعمة الوجود ، و نعمة وسائل البقاء ٢ - وحفظ الوجود ٣ - و نعمة العقل ٤ - ونعمة الدين، ٥ - ونعمة التوفيقللعمل به، ٦ - ونعمةالثواب والجزاء لمن عمل به ، وقد اقتضت حكمته تعالى اعطاء الاوليين لكل ما اوجده و ابقاه ، والوسطيين لجميع ذوى العقول والمكلفين من الانس والجن بل الملكوالشيطان فهى اخص من الاولى ، والاخيرتين لمن آمن وعمل صالحا من المكلفين، فدائرتها

اضيق من سابقتها ايضا ، وليس اعطائها فى جميع درجاتها الالحكمة ومصلحة وان لم ندركها احيانا اوفى غالب مواردها.

قال تعالى : **ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينارلايؤده اليك الامادمت عليه قائما ذلك بانهم قالواليس علينا فى الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (۷۵) بلى من اوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين (۷۶) ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم فى الاخرة ولايكلمهم الله ولاينظر اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب اليم (۷۵-۷۷ ـ آل عمران)**

التفسير

القنطار هو المال الكثير ، او اربعة آلاف دينار ، اوملاء مسك الثور ذهبا وقيل فيه غير ذلك ، والدينار هوالذهب المسكوك اذاكان وزنه ۱۸ حمصا، ويطلق عليه الدينار الشرعى ، والدينار المعمول فى زماننا هو ماكان وزنه ۲۴ حمصا ، ويطلق عليه الدينار الصيرفى فاذا نقصت عن وزن الدينار الصيرفى ربعه ساوى الدينار الشرعى ، واذا زدت على الشرعى ثلثه ساوى الدينار الصيرفى .

ثم ان ظاهر الاية انها مسوقة لبيان اختلاف فى حال اهل الكتاب وان بعضهم عاملون بمقتضى شريعتهم مؤتمنون صادقون ، وبعضهم خائنون للمسلمين كاذبون، فالاية كاشفة عن حقيقة الامر فى حق كل طائفة ، وفيها تعليم لزوم الجرى على وفق الانصاف فى نقل الحديث عن احد او القضاء فى حق شخص او ملة وامة ، فان الغالب علينا فى تلك الموارد الجرى على خلاف الانصاف فنحكم فى فرد بما تقتضيه صفاته اوفعاله الغالبة بلاملاحظة غيرها ، وفى الامة على طبق حال الاكثرين من دون ملاحظة حال الاقلين ، مع ان مقتضى النصفة فى كل مورد بيان الواقع على

ما هو عليه والكشف عن حقيقة الامر وواقعه ، ثم انه هل المراد بالاية ان بعض اهل الكتاب من اليهود والنصارى حافظون على الامانة ، وبعضا من الطائفتن غير حافظين اوان المراد بالبعض الحافظ هو النصارى ، وبالبعض غير الحافظ هو اليهود، ارجحها الثانى .

ويؤيده قوله تعالى : لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون. (٨٢-المائدة)

وقوله تعالى : ذلك بانهم قالوا اه بيان لعلة عدم التأدية فيمن اوتمن على الدنيا وان ذلك لمزعمتهم الكاذبة ودعويهم الفاسدة ، و هى ان الله تعالى لم يجعل للاميين سبيلا عليهم وذكر الاميين فى كلامهم يشعر بان العلة فى تلك الدعوى كونهم اميين ، فلهم فى المقام دعويان هما كمقدمتين انتجتا جواز أكلهم مال المسلمين وعدم التزامهم برد اماناتهم .

الاولى ان المسلمين اوغير اهل الكتاب اميون

الثانية ان الله لم يجعل للاميين على أهل الكتاب سبيلا ، فصارت النتيجة عدم تأديتهم ما ائتمنوا عليه . هذا ، ومرادهم بالامى:

اما المنسوب الى الام ، فغرضهم كون المسلمين جاهلين بالكتاب و الدين وسائر العلوم ، فكأنهم باقون على الحالة التى ولدتهم امهم ، واليهود هم العالمون بالكتب المنزلة على الانبياء وبالقصص والتواريخ والانساب و غير ذلك من العلوم المتداولة فى ذاك العصر ، وهذه ترجع الى دعوى وجود امتياز لهم على غيرهم امتيازا كسبيا ، فصار سبباً لعدم السبيل عليهم.

واما المنسوب الى ام القرى وهى مكة ، وغرضهم ان اهل مكة و هم النبى الاعظم و سائر المهاجرين عنها الى مكة وهم اعيان المسلمين و ركنهم و اسس قواعدهم ومؤسس قوانينهم من اولاد اسماعيل النبى ، واليهود من اولاد اسحق ،

و قد جعل الله السؤدد والشرف والرفعة فى اولاد اسحاق ، و ليس لغيرهم سبيل عليهم ، وكم لليهود من هذه الدعاوى فقدحكى الله عنهم فى كتابه قولهم:

وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحبائه. (۱۸- المائدة)

وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة(۸ ـ البقرة) (۲۴- آل عمران)

قد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء . (۱۸۱ -- آل عمران)

الذين قالوا ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار (۱۸۳- آل عمران)

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا . (۶۴-- آل عمران)

وهذه الدعوى ترجع الى دعوى التفاضل بالامتياز الذاتى والاصالى .

ثم ان قوله تعالى: ويقولون على الله الكذب اما تكذيب للدعوى الاولى لو كان المراد فضلهم الاكتسابى ، و اما للدعوى الثانية ، فان الظاهر انهم كانوا يسندونها الى الله، وكانت جزء من عقائدهم الدينية، ويمكن رجوع التكذيب الى ما استنتجوه من المقدمتين وهو جواز اكلهم وديعة المسلم والامتناع عن ردها ، اذ لو فرضت صحة المقدمتين ايضاً لم تنتجا تلك النتيجة ، اذ الظاهر ان وجوبها مطلق غير مقيد بالتسلط وعدمه بل وبالايمان والكفر وغيرذلك ، و قد ورد فى عدة من الروايات التعرض له فراجع .

ثم انه قد يستشكل فى المقام بان الله تعالى ذم اهل الكتاب و وبخهم على دعويهم عدم السبيل للاميين عليهم المساوقة مع دعوى فضلهم على المسلمين بل مع دعويهم التسلط على انفس المسلمين واموالهم ،فان عدم ثبوت حق القصاص عليهم مثلا اذا قتلوا وعدم مطالبتهم بالمال اذا اتلفوه يستلزم تلك السلطنة بلا ترديد ، فالذم والتوبيخ راجع فى الحقيقة الى دعويهم السلطنة على الاميين ،فكيف ثبت نظير هذا الحكم للمسلمين بالنسبة الى الكفار غير الذميين فى شريعة الاسلام ؟ الاترى ان الاصحاب قد افتوا بجواز قتل الحربى واخذ ماله وانه لاسبيل للحربى عليه بقصاص فى النفس او مقاصة فى مال.

والجواب ان رد الله دعوى تسلط اهل الكتاب علـى غيرهم لايستلزم عدم تشريعه تسلط احدعلى احداوطائفة على طائفة اخرى مطلقا ، بل قدتقتضى المصلحة العامة فى المجتمع جعل السلطنة كذلك واهدار دماء عدة وهتك احترام المال لعدة آخرين.

ان قلت من هوالحاكم فى هذا المضمارولمن القضاء فيه وماهوالملاك فى تشخيص احترام النفوس وحرمة الاموال .

قلت: لابدمن انيكون الحاكم فيه هوالله تعالى وهل ذلك الاموضوع كسائر الموضوعات التى يجب ان يجعل له حكم ويشرع له قانون ، وح نقول انمقتضى الادلة والقواعد هواصالة الاستقلال فى الانسان واصالة عدم سلطنة احدعلى احد ، بمعنى ان الاصل ان يكون كل انسان حرا بذاته مستقلا بنفسه ، له ان يفعل مايشاء ولا يكون لاحد مـن مثله عليه سبيل بالغلبة والاستخدام والاستعباد فـى بدنه ، والاستحمار فى فكرته والاستثمار فى اعماله ، والجامع للكل منع كل انسان عن استضعاف مثله فى شتى شئونه واموره .

وهذه القاعدة هى التىأمضتها المجتمعات الدولية وجعلتها من اس قوانينها الاصلية فىمنشورها، واليها أشار المحقق الانصارى قده فى كتابه المكاسب فىمقام تعرضه لبيان مناصب الفقيه وانها ثلاثة ، الافتاء والقضاء بين الناس وولاية التصرف فى الاموال والانفس ، بمعنى استقلاله بنفسه فىالتصرف اوتوقف تصرف غيره على اذنه واناطته باجازته ، قال وهذا القسم هوالمقصود بالتفصيل هنا .

ثم قال : مقتضى الاصل عدم ثبوت الولاية لاحدبشىء من الامور المذكورة خرجنا عنهذا الاصل فىخصوص النبى والائمة عليهم السلام بالادلة الاربعة، وعلى هذا فيمكن ان يقال انهذا الاصل يلازم اصلا آخر، وهواصالة الاشتراك والمساواة فى التكليف بمعنى تساوى جميع افراد الانسان فى مرتبة التشريع ، فهم شرع سواء فى التكليف بالاصول وهم متساوون فى خطاب الفروع ، ولاتفاضل بينهم

الافيما اخرجه الدليل كماسيجيء .

و هذا الاصل يقابل اصالة المساواة التكوينية المردودة بالادلة والوجدان ، فانه لاتساوى بين افراد الانسان فى مراحل التكوين ، فهم مختلفون فى العقول وجميع الحواس الباطنة ، و مختلفون فى الصفات والملكات ، و مختلفون فى الحواس الظاهرة ومختلفون فى خصوصيات الاجسام والهيئات ، كما انهم مختلفون فى الجملة فيما هو خارج عن حيطة الجسم والروح كالاولاد والاموال مثلا.

وماقد يترائى فى كلمات بعض المستحدثين من دعوى تساوى الانسان بالفطرة والذات فى جميع الحواس الباطنية والاوصاف النفسانية ، و انما نشأ الاختلاف من العوارض الخارجية، واختلاف اقتضاء محيط حياته من الاباء والاقربين والخلطاء والمعاشرين وغيرهم، ولو فرض فى مكان تساوى جميع تلك الجهات، من بدء نشأ الانسان لكانوا متساوين فى جميع تلك الجهات ، لم يقم عليه دليل من حكم عقل وشهادة تجربة واختبار.

ان قلت كيف تدعى الاشتراك والمساواة فى التشريع مع ان الناس مختلفون فى غالب الاحكام الشرعية المجعولة من جانب الشارع كالصلاة والحج والزكوة و غيرها ، فان عدة منها لم تشرع فى حق الصبيان والمجانين والمرضى والفقراء ونحوهم .

قلت ليس المراد باصل الاشتراك والمساواة كونها مجعولة فى حق جميع الناس من غير استثناء ، والا لزم خلاف المصلحة والحكمة فى جعلها و تشريعها ، كماستعرف ، فانه لماكان اللازم لمشرع القوانين ملاحظة المصلحة فى تشريعها، سواء فى ذلك الشارع الحكيم او غيره ممن يتصدى لتقنين القانون على ملة وامة، فيلاحظ الحكم والموضوع اولا والصلاح والفساد المترتب على المتعلق والموضوع ثانيا : ثم ينشأ الحكم ويرتبه على الموضوع ، فاذا اراد المشرع ايجاب الحج

مثلا لابد له من ملاحظة المصلحة الملزمة فى تشريعه . فيرى ان المصلحة مترتبة على عنوان المستطيع من جهة المال والبدن والسرب، لاعلى جميع الناس فيجعل الحكم وينشأه على ذلك العنوان ، ولازم ذلك خروج عدة كثيرة عن موضوع التشريع ،

ولا بأس بذلك فان المدعى فى المقام هوأن اصالة الا شتراك و المساواة ملحوظة فى العنوان بعد ترتب الحكم ،فلافرق فى وجوبه على المستطيع بين افراده ولاامتياز فيه بالمكان او الزمان او القبائل والطوائف ، فهيهنا اختلاف فى شمول الاحكام من جهة، واتحاد وتساو فيه من جهة اخرى، والاول عبارة عن كون الناس مختلفين فى انطباق العناوين ذات المصلحة وعدمه ، ومنشائه اختلافهم فى مراحل التكوين كما عرفت ، و الثانى عبارة عن تساوى الواجدين للعنوان الواقع فى موضوع الحكم .

والظاهر ان القاعدة المعروفة فى علم اصول الفقه بقاعدة الاشتراك يراد بها هذا المعنى ، فترى ان المدعين لكون الخطابات القرآنية مختصة بالحاضرين فى زمن الخطاب، تمسكوا فى تسرية الحكم الى الغائبين او الموجودين بعد ذلك الزمان ، بأن جميع المكلفين مشتركون فى الحكم متساوون فيه ، فاذا ثبت حكم فى حق الحاضر المخاطب ثبت فى حق من سواه ، ثم اتموا الدليل بان المراد اشتراكهم فيما اذا ساووا فى الملاك اى العنوان المتخذ فى لسان الدليل وظواهر الخطابات ، وهذه هى قاعدة المساواة المذكورة .

هذا فى نفس الاصل المذكور اعنى اصالة عدم السلطنة واما موارد التخصيص والاستثناء فهى كثيرة .

منها موارد تسلط الانبياء والائمة و نوابهم على النفوس والاموال على اختلاف فى سعته وضيقه كما عرفت .

ومنها موارد تسلط المسلم على الكافر الحربى نفسا ومالا

ومنها تسلط المولى على عبده

ومنها تسلط الاب والجد على الاولاد واموالهم فى الجملة .

ومنها تسلط الزوج على زوجته كذلك وغيرذلك من الموارد .

اما سلطنة الانبياء والائمة فقد عرفت ثبوتها لهم بالادلة الاربعة . فلابد من تخصيص القاعدة بذلك و سيتضح لك ملاك التخصيص واما سلطنة المسلم على الكافرفهى ايضا مقتضى الادلة الشرعية مع انها توافق حكم العقل والاصول العقلائية ايضا ، فان حكمهم فى نظام الدول و الحكومات هو ان المتمرد المعرض عن القوانين الموضوعة لصلاح حال الملة ان كان من عقلاء القوم و من اهل الرأى و النظرفى الاحكام والقوانين ،وكانت مخالفته لاجل تخطئة اهل التقنين وابطال آرائهم وما وضعوه من القانون ، فالواجب عطف النظرالى دعواه وقبولها لو كان حقا ، و ابطالها بالدليل ان كان باطلا

وان كانت المخالفة للقوانين و التمرد عنها لمجرد كونها مخالفة لاهوائهم الباطلة وميولهم الفاسدة ورئاساتهم وشهواتهم ولم يمكن اصلاحهم بالدعوة الى الحق والنصح والموعظة ، فاللازم مقاتلتهم واهدار دمائهم واباحة اموالهم ونحو ذلك ، وهذا ليس يستنكرعند العقل والعقلاء ، وقد حكم الشارع بما حكموا به

ثم ان كلا التخصيصين قد وقعا فى الحقيقة فى طريق حفظ تلك القوانين والتمكين من اجرائها فى المجتمعات البشرية ، الا ان الاول واقع فى سلسلة العلل بايجاد المقتضى ، والثانى برفع الموانع، فتلخص مما ذكرنا ان هنا قواعد ثلاثا وعدة مخصصات .

القاعدة الاولى اصالة عدم سلطنة احد على احد

والثانية اصالة الاشتراك فى التكليف والمساواة فى التشريع

والثالثة اصالة الاختلاف فى التكوين فى ابعاده الخمسة. واما موارد التخصيص فهى كولاية الانبياء والائمة (ع) وتسلط المؤمن على الكافر وغيرهما مما عرفت ، هذا كله فى الاصل الجارى فى النفوس واحترامها ، واما الاموال فتوضيح الحال فيها يستدعى بيان امور:

الاول ذكر الآيات الدالة على انتساب كل شيء الى الله تعالى ملكا ، كما انه كذلك خلقا وتدبيرا.

الثاني: ذكر ما دل منها على ان الارض ومافيها للناس ومسخرة لهم.

الثالث: ذكر ما دل منها على تحديد تصرفه بالاباحة .

الرابع: ذكر ما دل منها على مالكية الناس لبعض الاشياء ملكا اضافيا.

الخامس: ذكر ما دل على ان الارض وما عليها يرثها المتقون وعباد الله الصالحون.

اما الامر الاول: فيظهر من الكتاب الكريم ان الله تعالى هو المالك للاشياء ، كما انه الخالق لها والمدبر لامورها ، فالسماء والارض والجماد والنبات والحيوان كلها ملكه و جميع ذوى العقول عبيده وارقائه وقد انزل الله تعالى سورة ذكر فى اولها عموم ملكه تعالى فسماها سورة الملك.

تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الملك)

١ - ذلكم الله ربكم له الملك (١٢ - فاطر)

٢ - قل اللهم مالك الملك (٢٧ - آل عمران)

٣ - وله ملك السموات والارض (١٨٩ - آل عمران)

٤ - الا ان له ما فى السموات والارض (٥٥ - يونس)

٥ - قل من رب السموات والارض قل الله (١٦ - الرعد)

٦ - ولله خزائن السموات والارض (٧ - المنافقون)

٧ - ولم يكن له شريك فى الملك (٢ - الفرقان)

٨ - ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا (٩٣ - مريم)

٩ - قل اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس (١ - الناس)

١٠ - ثم استوى على العرش يدبر الامر (٣ - يونس)

واما الامر الثانى فتدل آيات من الكتاب على اختلاف السنتها من حيث العموم والخصوص على ان الارض وما عليها كلها للناس ، وانها خلقت لاجلهم ، ويقرب ما دل على انها مسخرة للانسان قال تعالى :

والارض وضعهاللانام (۱۰ـ الرحمن)

الذی جعل لکم الارض مهداوسلك لکم فیها سبلا (۵۳ ـطه)

الذیجعل لکم الارض قرارا (۶۵ـ غافر)

هوالذی جعل لکم الارض ذلولا(۱۵ـ الملك)

والله جعل لکم الارض بساطا (۱۹ـ نوح)

هوالذی خلق لکم ما فیالارض جمیعا (۱۹ ـ البقره)

و الانعام خلقها لکم فیهادفء ومنافع و منها تأکلون ... والخیل والبغالو الحمیرلترکبوها وزینة ... هوالذی انزل من السماء ماء لکم منه شراب ومنهشجر فیه تسیمون ینبت لکم به الزرع والزیتون والنخیل والاعناب ومن کل الثمرات... وما ذرأ لکم فیالارض مختلفا الوانه (۵ـ ۱۳ ـ النحل)

انفقوا من طیبات ماکسبتم ومما اخرجنا لکم من الارض(۲۶۷ ـالبقرة)

وانزلنا من السماء ماء بقدرفاسکناه فی الارض وانا علی ذهاب به لقادرون فانشانا لکم به جنات من نخیل واعناب لکم فیها فواکهکثیرة ومنها تاکلون ... و ان لکم فیالانعام لعبرة نسقیکم مما فی بطونها و لکم فیها منافع ومنها تأکلون و علیها وعلی الفلك تحملون (۱۸ـ ۲۲) ویقرب منها الایة (۷۹ من غافر)

وآیة لهم الارض المیتة احییناها واخرجنا منها حبا فمنه یأکلون وجعلنافیها جنات من نخیل واعناب وفجرنا فیها من العیون لیأکلوا من ثمره (۳۵ـیس).

اولم یروا انا خلقنا لهم مما عملت ایدینا انعاما فهم لها مالکون ، وذللناها لهم فمنها رکوبهم ومنها یأکلون ولهم فیها منافع ومشارب (۷۱ـ۷۳ـیس)

وسخرلکم مافیالسموات والارض (۲۰ـ لقمان)

الم تران الله سخرلکم مافیالارض والفلك تجریفیالبحربامره(۶۵ـالحج)

الله الذی سخرلکم البحرلتجری الفلكفیه بامرهولتبتغوا من فضله ...وسخر لکم ما فیالسموات وما فیالارض جمیعا منه (۱۳ـ الجاثیة)

وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها .
(١٤- النحل)

الله الذى خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره وسخر لكم الانهار (٣٢-ابراهيم)

والمستفاد من هذه الطائفة هو تسلط الانسان على الارض تسلطا خارجيا ، واستيلائه عليها استيلاء تكوينيا ، وان مجموع الارض وما عليها لمجموع ساكنيها وانها اموال عامة لعامة هذا النوع ، وحيث انها سيقت مساق الامتنان دلت بالالتزام على جواز تصرفهم فيها كيف شائوا وارادوا ، فكانت النتيجة ان كل تسلط وتصرف تعلق بها وقدر عليها الانسان فهو سائغ له وله الرخصة فيه

واما الامر الثالث فآيات دلت على تحديد اباحة التصرف بعدم اتباع خطوات الشيطان او بالتقوى او بعدم الاسراف او بعدم الطغيان او نحو ذلك .

١- قال تعالى: يا ايها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان (١٦٨-البقرة)

٢- وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون (٨٨-المائدة)

٣- وهو الذى انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا اكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ومن الانعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (١٤١-١٤٢-الانعام)

٤ - يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ... قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق (٣٢-٣٣-الاعراف)

فالحلال هو غير الممنوع من قبل الشرع والطيب هو غير الممنوع من ناحية

العقل والطبع ، والظاهر كونهما مفعولا مطلقا ، فالمراد تصرفوا تصرفا مطلقا غير ممنوع منه ، فهذه الايات دالة بالمطابقة على قاعدة جواز التصرف التشريعى المدلول عليها بالالتزام فى الايات السابقة ، والمقرونة بها حدود وشرائط تحدد ذاك الجواز وتقيده ، كقوله تعالى : (ولاتتبعوا خطوات الشيطان) .

فان اتباع الشيطان اى الطاغى المتمرد عن الطاعة فى الاصول او الفروع يوجب دخول الانسان فيما لايليق شرعاً ولايحق عقلا.

فيرجع مفاد الاية الى تجويز كل تصرف سوى ماورد فيه منع من الشرع ، ونظير ذلك كلمة التقوى فى الاية الثانية: فان ذكرها بمنزله تقييد الجواز بها، ومعناها الاجتناب عن موارد التحريم، ويقرب منهما قوله: (واتوا حقه) وقوله:(ولاتسرفوا) فهما والاسراف هو تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الانسان كما فى المفردات.

والظاهر ان المراد تحديد التصرفات بعدم خروجها عن الموازين الشرعية والعقلية، فيقرب من القيود السابقة فى المرمى، وكذا قوله قل انما حرم ربى الفواحش اه. فان ذكره بعد الحكم باباحة كل زينة من زينة الدنيا ، كتحديد الاباحة بعدم وقوع استعمال الزينة فى مسير الحرام والفواحش ، ويتحصل من هذه الايات تحديد التصرف وتقييده، وانه كما ان قدرة الانسان تكوينا وتسلطه خارجا محدودة غير مطلقة وان كانت تتزايد وتتكامل كما يعرف من مقايسة حاله فى اوائل عصر تكونه مع قدرته الفعلية، فكذلك اباحة تصرف كل فرد من المجتمع الانسانى فى الارض وماعليها من الاموال العامة محدودة بحدود ، فلم يسوغ له كلما شاء و اراد ، من الاكل والشرب واللبس والنكاح وغيرها.

بل انما تتعلق بالتصرف الواقع فى السبيل المشروع له من ناحية خالقها و واهبها ، او بعدم كونه على نحو ينطبق عليه عنوان اتباع الشيطان ، او وصف الطغيان، او الاسراف او ترك التقوى، ويرجع بعض هذه القيود الى لحاظ المصالح

المتعلقة بالمتصرف مع قطع النظر عن غيره، وبعضها الاخر الى ملاحظة حال الغير من جهة عدم وقوع التزاحم بين المتصرفين ومراعاة حقوق سائر افراد المجتمع، وبعضها الثالث الى ملاحظة كلا الامرين، وليس جميع الحدود الواردة فى حق كل فرد مربوطا بحال غيره ومجعولا لاجل دفع مزاحمته عنه كما يتوهم.

واما الامر الرابع فآيات يستفاد منها الملك الاضافى للناس وان لهم التملك منها فى الجملة، والتسلط على الاراضى و غيرها مما عليها سلطنة اعتبارية، اضافية وليعلم قبل ذلك:

اولا ان انتزاع الملكية الاعتبارية يكون فى الغالب بعد تحقق ثلاث مراحل: التسلط التكوينى، والاباحة التشريعية، والاقدام من الانسان على حيازة شيء وتخصيصه لنفسه، فاذا امضاه الشارع تحقق ح عنوان المال المضاف الى الشخص المساوق للملكية الاصطلاحية والاضافة الاعتبارية التى ذكرناها، و هى آيات كثيرة تدل على المقصود بالالتزام بمعنى دلالتها على احكام تكشف عن كون اصل ملكية الاشخاص للاموال فى الجملة مفروغاً عنه، و مفروض الثبوت بحيث لاشبهة فيه ولاارتياب.

كتحريم القرب من مال اليتيم، واكل اموال الناس بالباطل، وادلاء الاموال الى الحكام، واخذ اموال الناس بالاثم، واكل اموال اليتيم ظلما، واخذ الاموال بالربا وانفاقه رئاء وحسبان تأثير المال فى خلود الانسان واعطائه السفهاء، وابطال الصدقة منها بالمن.

و كتجويز القرب من مال اليتيم بالطريق الاحسن والامر بايتاء شيء منها العبيد، وتجويز اخذ رأس المال فى باب الربا، وايجاب الجهاد بها وبالانفس، ودفع مال اليتيم اليهم بعد ايناس الرشد، واخذ الصدقة منها للتطهير و مدح جعل الحق فيها للسائل.

وكالاخبار عن كونها سبب للافتنان، وعن ايراث اموال الكفار للمسلمين، وان

اعطائها لبعض ليس مسارعة فى الخيرات ، ومدح ايتائها تزكية للنفس و تطهيراً لها وغير ذلك من الاحكام المترتبة على الاموال المضافة الى الاشخاص ، وهى المعبرعنها بالملك الاعتبارى الاضافى ، الكاشفة كشفا قطعيا عن امضاء الشارع تلك الملكية.

ويستفاد ذلك من مواردكثيرة من الكتاب الكريم.

منها موارد الحث على الصدقات والانفاقات الواجبة والمندوبة قال تعالى :

خذمن اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها (۱۰۳ - التوبة)

وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى مالهتزكى (۱۸- الليل)

الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار (۲۷۴- البقرة)

مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل‌الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل (۲۶۱- البقرة)

وفى اموالهم حق للسائل والمحروم (۱۹- الذاريات)

لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس (۲۶۴- البقرة)

قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا ممارزقناهم سرا وعلانية من قبل انيأتى يوم لابيع فيه ولاخلال (۳-ابراهيم)

ومنها موارد بيان حكم مال اليتيم قال تعالى:

ولاتقربوا مال اليتيم الابالتىهى احسن. (۱۵۲- الانعام)

الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فـى بطونهم ناراً . (۱۰-النساء)

:وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب ولاتأكلوا اموالهم الى اموالكم(۲/۶-النساء)

فان آنستم منهم رشداً فادفعواالیهم أموالهم (۶ - النساء)

ومنها موارد الجهاد بالمال قال تعالى:

:انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل‌الله (۴۱-التوبة)

ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم و اموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى فى سبيل‌الله (١١١- التوبة)

ومنها موارد الأرث قال تعالى

للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون. (٧ النساء)

واذا حضر القسمة اولوالقربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه (٨-النساء)

ولكم نصف ما ترك ازواجكم ... ولهن الربع مماتركتم (النساء ـ ١٢)

ومنها موارد الوصية قال تعالى

كتب عليكم اذاحضر احدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين (١٨٠- البقرة)

فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها اودين (١١ النساء)

ولكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها او دين (١٢ النساء)

ومنها موارد مختلفة قال تعالى:

ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدوداً (١٣ ـ المدثر)

ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً (١٢-نوح)

واحل لكم ماوراء ذلكم ان تبتغوا باموالكم محصنين غير مسافحين . (٢٤- النساء)

وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم ولايسئلكم اموالكم (٣٦ - محمدص)

لاتلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله (٩ ـ المنافقون)

وآتوهم من مال‌الله الذى آتاكم (٣٣ النور)

ومنها موارد الربا قال تعالى

واحل‌الله البيع وحرم الربا (٢٧٥- البقرة)

يمحق‌الله الربا ويربى الصدقات (٢٧٦-البقرة)

اتقوا الله وذروا مابقى من الربا ان كنتم مؤمنين (٢٧ ـ البقرة)

وما آتيتم من ربى ليربوا فى اموال الناس فلا يربوا عندالله (٣٩-الروم)

وان تبتم فلكم رؤس اموالكم لاتظلمون ولاتظلمون (۳۷۹ ـ البقرة)

ومنها موارد المعاملات قال تعالى:

واحل الله البيع وحرم الربوا (البقرة ۲۷۵)

انفقوا من طيبات ماكسبتم (۲۶۷ البقرة)

اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه (۲۸۲ البقرة)

الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم (۲۸۲ البقرة)

الاان تكون تجارة عن تراض منكم (۲۹ النساء)

قل ان كان آبائكم ... وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا (۲۴ـ التوبة)

انى اريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى ثمانى حجج (۲۷ القصص)

ياابت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين . (۲۶ القصص)

قال تعالى : **بلى من اوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين . ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لاخلاق لهم فى الاخرة ولاينظر اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب اليم .** (۷۷/۷۶ آل عمران)

التفسير

الايفاء الاداء والاعطاء تماما وكملا، كما ان الاستيفاء الاخذ كذلك ولم يستعمل فى القرآن الا متعديا بباب الافعال او التفعيل ، والعهد هو الايصاء والشرط وعهد الى زيد اوصاه وشرط عليه ، و المراد بالعهد هنا الاعم من اقسامه الثلاثة ، فالاول هو العهود الالهية الحاصلة بينه تعالى وبين عبده ، وهى الاحكام الشرعية الاصولية والفروعية ، فلها نسبة الى الله ونسبة الى العبد، وقد اطلق العهد على الاحكام الصادرة

من الله فى مواضع من الكتاب الكريم قال تعالى :

وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . (١٢٥ البقرة)

الم اعهد اليكم يابنى آدم الاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين . (٦٠يس)
ولقد عهدنا الى ادم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . (١١٥ طه)
واوفوا بعهدى اوف بعهدكم واياى فارهبون . (٤٠ البقرة)

ثم ان ايصال ذلك الايصاء والشرط اما بالحجة الظاهرة كالرسل والاوصياء وانزال الكتب كما هو الثابت المحقق فى اغلب الاحكام الشرعية ، واما بالحجة الباطنة اعنى العقل الذى يوافق النقل فى موارد كثيرة ،كما انه ينفرد بالحكم احيانا، فبين قيام الحجتين ومؤداهما عموم من وجه .

فقد تقوم الحجة الظاهرة بحكم ولم يدركه العقل ولم يحكم فى مورده بشىء كأغلب التعبديات، وقد تقوم الحجة الباطنة ولادليل شرعى كموارد التخيير والاحتياط فى المسائل الفرعية ، وقد تقوم الحجتان ويحكم العقل والنقل بحكم كقبح الظلم والكذب وحسن الاحسان والصدق وغيرهما، وايفاء هذه العهود عبارة عن امتثال احكام الله تعالى جميعا باتيان الواجبات الاعتقادية والعملية وترك المحرمات كذلك وعدم مخالفة شىء منها .

(كما قال تعالى: وابراهيم الذى وفى) فان الظاهر ان المراد توفيته فى اداء ما عليه من احكام الله وحقوقه .

والثانى العهود المتحققة بين العبد ونفسه كالزام الانسان شيئا على نفسه بالعهد والنذر واليمين ونحوها، فهى عهد والزام منسوب الى العبد، وتوفيتها العمل بمقتضاها تاما ، وعدم الحنث بمخالفتهما لئلا يدخل فى قوله تعالى : (وكانوا يصرون على الحنث العظيم) ولعله قد استعمل فى هذا القسم قوله تعالى : (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتهم) كما عن ابن عباس وقوله تعالى : (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا. (١٧٧

البقرة) وبعض العمومات شامل ايضا كقوله: والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون. (٨ ـ المؤمنون)

والثالث العهود الواقعة بين العباد بعضهم مع بعض ، وهى العقود اللازمة والجائزة كالبيع والاجارة والنكـاح والمزارعة والمساقاة ونحوهـا ، فهى عهود والتزامات منسوبة الى العباد ، فان من يملك مالـه بثمن فانما يلتزم باخراج المال عن ملكه ويلزم صاحبه باعطاء بدله. والايفاء بها العمل بمقتضاها وعدم نقضها وفسخها، ولعل بعض الايات وارد فى هذا القسم قال تعالى :

الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة. (٥٦ـ الانفال)

الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا . (٤ ـ التوبة)

وقد ذكر عدة من اصحابنـا هذه الاقسام فى ذيل الاية الاولى من المائدة ، وحملوا العقد فى قوله تعالى: اوفوا بالعقود بعد بيان ان المراد به العهد على العهود الثلاثة المذكورة .

وقولـه تعالى : (واتقى فان الله يحب المتقين) المراد بالتقوى الاتقاء عن المخالفة فى جميع الاقسام المذكورة للعهد، فان اريد بها التقوى عملا كان عنوان التقوى معلولا للايفاء ، وان اريد بها التقوى قلبا بمعنى الخوف من الله الباعث على الحركة نحو طاعته ، كان ذلك علة للايفاء ، وحب الله عبارة عن انعامه وتفضله ، لانك قد عرفت ان حبه تعالى صفة ترجع الى فعله، لمقتضى الحب وترتيب آثاره.

فيكون المراد بالاثار هنا هى الاثار المترتبة بعد حصول صفة التقوى للعبد لانه الموضوع للحب، فاعطاء الوجود وسائر النعم الدنيوية وبذل نعمة الدين وتوفيق قبوله من آثار الحب الحاصلة قبل عنوان التقوى، وابقاء تلك النعم وكذا اعطاء الثواب فى الاخرة من آثار الحب بعد حصول التقوى ، فهى المرادة بهذه الجملة .

قوله تعالى : (ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا) ليس المراد بالاشتراء هنا البيع ، ولا الشراء لعدم تعلقه بالثمن بكل واحد من المعنيين ، اذ الثمن لايباع

ولايشترى ، والقول بان الباء فى قوله بعهدالله زائدة ، و قوله ثمنا منصوب بنزع الخافض، والمعنى ان الذين يبيعون عهدالله بثمن قليل اه حمل للاية على خلاف ظاهره من جهتين ، فالاولى ذهب اليه بعض المفسرين من كون الاشتراء بمعنى الاستبدال فالاية تنهى عن استبدال عهود الله بالثمن القليل بمعنى مخالفتها طلبا للمال والجاه وحبا لمتاع الدنيا .

ثم ان العهد فى هذه الاية منسوب الى الله ،فيشمل الاحكام الالهية بلااشكال وكذا يشمل ما يوجبه الانسان على نفسه ، فانه ينسب الى الله ايضا كما فى قولك عاهدت الله اوالله على ان افعل كذا ، واما العهود الواقعة بين الناس بعضهم ببعض ففى شموله الاية لها خفاء ، بل الظاهر ان الاية مسوقة لبيان خصوص القسم الاول من العهود .

وذلك لما يترائى من كلمات القوم من حصر مصداق الاية فى علماء اليهود والنصارى حيث حرفوا التوراة والانجيل ، ونقضوا عهدالله اليهم فى العمل بهما وابلاغهما وبيانهما للناس ، وعدم كتمان احكامهما حفظا للرئاسة و حبا و طمعا فى متاع الدنيا .

لكن الظاهر مع فرض كون المراد بالعهد خصوص القسم الاول ، ان الاية غيرمنحصرة فى اولئك القوم ، فكل من خالف حكما من احكامه تعالى و تركه حبا للمال اوطلبا للجاه ونحو ذلك فهوقد استبدل عهدالله فى كتابه وسنة نبيه بثمن بخس ودخل فى معنى الاية ، وكم لهولاء من نظائر فى زماننا هذا ، وحيث ان المراد باستبدال العهد الاعم من تغيير احكام الله تعالى وتحريفها وكتمانها عن اهلها ، و مخالفتها عملا ولو مع الاعتقاد بثبوتها، والمراد بالثمن القليل مطلق الانتفاع بشىء من حظوظ الدنيا من الجاه والمال ونحوهما ، فيمكن ان يعد من مصاديق الاية الطوائف التالية

١ - علماء التوراة والانجيل الذين كتموا عن الناس ما انزل الله فى الكتابين من نبوة محمد(ص) واوصاف النبى وكتابه ، حفظا لجاههم وحباً لمتاع الدنيا، فقد تركوا العهد ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوه بثمن قليل .

۲ - الذين حرفوا احكام التوراة من اصولها اوفروعها ووضعوا مكانها احكاما اخر وهولاء ايضاً من اهل الكتاب وعلمائهم .

۳- الذين حرفوا احكام القرآن ونسخوها ووضعوا امكانها قوانين عصرية اخرى فانهم لم يفعلوا ذلك الاطلبا لمقام اومال فهم من مصاديق الاية.

۴ - الذين انكروا الوصاية وامامة اهل البيت وحرفوها عن مسيرها وازالوها عن مراتبها التى رتبها الله . وجعلوها لانفسهم وتقمصوابها، اواعانوا الغاصبين على ذلك ونصروهم واتبعوا اهوائهم .

۵ - الذين تركوا ماأوجبه الله اوأخذوا بماحرمه تعالى ، فخالفوا احكام الله عملا طمعا فى حطام الدنيا ولومع الأذعان بحقيقتها ، وهؤلاء كثيرون ، فمنهم العالم غير الناطق بحق والصامت عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حفظا لجاهه ومقامه وحظوظه ، اوطلبا لتحصيل ذلك .

۶ - ومنهم الظلمة واعوانهم يخالفون احكام الله بالعصيان والظلم ويتمتعون بذلك من الدنيا ومتاعها .

۷ - العلماء المتصدون لمقام ومرتبة ليسوا لها اهلا ، فنفس التصدى لذلك المنصب ومايستتبعه ذلك من تغيير الاحكام ومخالفتها واتلاف اموال العامة والخاصة و غيرها . استبدال للعهود ، و ما يصل اليهم من الحظوط الدنيوية ثمن قليل فى قبال ذلك .

۸ - اصحاب التجارات والاجارات المحرمة كبيع الخمر والمسكر والميتة وآلات اللهو وغيرها ، الذين ينتفعون بذلك فى امرار معايشهم فهم يستبدلون العهود بالمخالفة ويأخذون ثمنا قليلا .

۹ - ارباب الاعمال المحرمة الذين يأخذون بـذلك اجراً من صناع ذلك وعمالها ، والمعاونين عليها كصانع الخمر وآلات اللهو والطرب وامكنة الفحشاء والمنكرات والبنوك الربوية والعامل فى صنعتها والمعين عليها .

١٠ـ المتصدون لكتابة الضلالة وطبع كتبها ونشرها، والاخذون فى ذلك اجراً وثمنا قليلا وغير ماذكر من موارد كثيرة كما قال تعالى فى جميع ذلك : (اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) .

ثم ان استبدال العهد بالثمن القليل قد يستلزم كفر الفاعل كالاقسام الاربعة الاول، وقد يكون سببا لفسقه كباقى الأقسام ، فعلى الاول يكون اطلاق قوله: لاخلاق لهم فى الاخرة محفوظا محكما ، فانه لانصيب للكافر من رحمة الله فى الاخرة، وعلى الثانى فعدم الخلاق امر نسبى بالاضافة اليه .

فان الاعمال المحرمة التى يرتكبها الانسان فى الدنيا يكون نصيب الفاعل منها هو حظوظها الدنيوية، ولانصيب له من رحمة الله بالنسبة الى تلك الاعمال فى الاخرة، وهذا لاينافى تحقق عمل صالح منه يستحق به نصيبا فيها كايمانه وبعض الصالحات من اعماله.

ثم ان القول بعموم الايتين للموارد المذكورة وغيرها لاينافى ورودهما فى اهل الكتاب وعلماء اليهود والنصارى كمايشهد بذلك ماقبلهما من الايات ومابعدهما لانه لابأس ببيان حكم كلى يكون مورد الكلام ايضا من مصاديقه ، وهذا المقدار من الربط كاف فى كون الاية مذكورة فى ضمن آيات اهل الكتاب .

قوله وايمانهم ، المراد بها الايمان المقرون باخذ الكتاب وقبوله. والالتزام ببيان مافيه ونصرة النبى الاعظم ، وهذا ثابت فى علماء اليهود والنصارى قال تعالى

الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الايقولوا على الله الا الحق (١٦٩ـ الاعراف)

واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس (١٨٧ ـ آل‌عمران)

فان الغالب ان اخذ الميثاق لايكون الابيمين مع انه يفهم من آيتنا المبحوث عنها ان هناك يمينا ثابتا خولف طلبا للثمن القليل والقدر المتيقن منه ذلك .

ويمكن ان يكون المراد بالاية انهم يشترون اى يأخذون لسبب ترك العهد وفعل اليمين ثمنا قليلا ، فيشمل اليمين كل يمين كاذبة يكون سببا للوصول الى شىء

من‌متاع الدنيا ، وبالجملة ان‌كان المراد بالايمان الصادقة فمصداقها ماقارن التزام اهل الكتاب باخذه وتبليغه وعدم‌كتمانه وان‌كان المراد الكاذبة شملت كل يمين كاذبة‌كان فيهاجلبا لنفع واخذ الثمن ، الاان ذلك لايناسب تعلق الاستبدال به.

قوله تعالى : ولايكلمهم ولاينظر اليهم اه‌قدعرفت فيماسبق ان كلام الله‌تعالى يرجع الى خلق الصوت، فكونه متكلما يرجع الى كونه خالقا، ويظهر من‌الاية ان الله يكلم المؤمنين يوم القيامة تشريفا لهم وحبا وانعاما اليهم فلا يكلم الله هؤلاء الطائفة ، ويمكن أن‌يكون التكلم كناية عن شمول انعامه واحسانه الاخروى لهم كما ان‌النظر اليهم كناية عن ذلك فان من كان حاضرا عند عظيم من العظماء اذالم ينظر اليه‌ولم يكلمه يكشف عن عدم حبه‌اليه واحسانه ، بل‌عن بغضه وسخطه فالكلامان سيقا بعنوان الكناية عن السخط عليهم، ولايصغى الى‌ماقيل ان‌الكناية لاتكون‌الافيما تيسرفيه الاستعمال الحقيقى ولايعقل فى حق‌الله تعالى النظر بالعين .

قوله تعالى: **وان‌منهم لفريقا يلون السنتهم بالكتاب‌لتحسبوه من‌الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هومن عندالله وماهو من عندالله و يقولون على‌الله الكذب وهم يعلمون** (۷۸ آل‌عمران)

التفسير

اللى اجوف واوى وناقص يائى بمعنى الفتل، يقال لويت يد زيد اى‌فتلتها، والظاهر ان علماء الكتابين وقرائهما كانوا يقرؤنهما بلحن خاص ،واذاحرفوا شيئا منهما ووضعوا مكانه كلاما آخرمظهرا انه من‌الكتاب قرؤه‌بلحنه ليكتموا الامرعلى السامعين ويشبهوه عليهم .

فقال تعالى : وان فريقا منهم‌اه والمراد بالكتاب الاول ماكتبوه بايديهم من مخترعاتهم وبالثانى والثالث هوالكتاب الواقعى ، و اطلاق الكتاب على التوراة والانجيل كاطلاقه على القرآن الكريم بلحاظ‌كونها مكتوبة فى اللوح المحفوظ

كماقال تعالى : انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون .

وقال بل هوقرآن مجيد فى لوح محفوظ ، وهذا بناء على ارادة المكتوب بالفعل من الكتاب ، ويمكن فى خصوص القرآن ان‌يراد الكتاب‌بلحاظ الاستعداد وكونه كتابا بالقوة ، فان اطلاقه على القرآن خاصة فى‌السور المكية ، انماهو بهذا اللحاظ . قال تعالى :

وهذاكتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين‌يديه (۹۲- الانعام)

وهذاكتاب انزلناه مبارك فاتبعوه (۱۵۵ -الانعام)

ثم‌ان الله حكى عنهم انهم كذبوا مرتين ، احدهما فى ليهم‌الالسنة بالكتاب والثانى فى تصريحهم انه‌من عندالله فرد الاول بقوله وماهو من‌الكتاب‌والثانى‌بقوله وماهو من‌عندالله ، ثم‌بين ان كذبهم مطلقا يصدر منهم عن علم .

ثم‌ان الاية فى مقام الذم و التوبيخ الملازم للسخط و الغضب ، و الحكم لا يختص بمورده ، وهوالكلام الباطل الصادر من‌اهل الكتابين الواقع موقع كلام‌الله تعالى و المتلبس بلباسه من حيث لى الالسنة و الصوت الخاص ، فتشمل الاية كل باطل البست عليه ثياب الحق واخرج للناس باسمه وبعنوانه .

۱ ـ كما فى الروايات المجعولة المفترأة على النبى والاوصياء فـانها باطلة البست لباس الحق .

۲ ـ وكما فى‌الكتب الضالة التى تنشر بعنوان الحق ، كالتوراة والانجيل و كتب الاديان والمذاهب الفاسدة .

۳ـ وكمااذا ابرز الانسان غيراللائق بمقام ومكانة فى لباس الحق ، كخلفاء الجوروعلماء المذاهب الباطلة والرهبانيين وعبادالفئة المنحرفة ونحوهم .

۴ـ وكمافى الأزمنة التى تعرف للناس بالشرف و القداسة كيوم النيروز و المهرجان .

۵ـوكما فى‌الامكنة التى تعرف بالفضيلة والقدس كالبيع والكنائس‌والمقابر

المنسوبة الى اولاد الائمة والسادة اذا كانت كذبا لاحقيقة لها ، وعلى هـذا فالاية تقارب فی المروی قوله تعالی: (یااهل الکتاب لم‌تلبسون الحق بالباطل وتکتمون الحق وانتم تعلمون (۷۲ـالبقره) وقدذکرنا فی‌ذیلها ماینا سب مانحن فيه

وقوله وهم يعلمون بيان ان الافتراء والكذب على الله مذموم موبخ عليه اذا صدر ذلك عن‌علم ، فان الجهل رافع للعقاب سواءكان فی‌الاصول ام فی الفروع ، نعم‌هو كذلك فيمااذا كان عن قصور لاعن تقصير .

قال‌تعالی: **ماكان لبشران يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لی من دون الله ولكن كونوا ربانيين بماكنتم تعلمون الكتاب وبماكنتم تدرسون ۷۹ ولايأمركم ان تتخذوا الملائكة و النبيين اربابا أيامركم بالكفربعداذ انتم مسلمون(۸۰)**

التفسير

البشر كالانسان جنس يطلق على الواحد والكثير ، والربانی المنسوب الى‌ـ الرب واضيف اليه‌الالف والنون لتأكيد النسبة فالمراد من‌له شدةارتباط بالله‌تعالی والمراد بالحكم هناالدين والشريعة والنبوة وصول الوحی الى الانسان فی‌المنام .

وتوضيح ذلك ان هنا عنوانين أولهما النبوة والرسالة وثانيهما الامامة ، فان مجرد تعلق الوحی‌الى الانسان وأمره بالتبليغ محقق لعنوان النبوة والرسالة ، اذهو منبأ عن الله ومرسل من‌قبله الى‌الناس ، والفارق بينهما هوفی كيفية الايحاء ، فالنبی يطلق على من أوحی اليه فی المنام وحصل له اليقين والعلم بكونه من عندالله بعد الاستيقاظ ، والرسول هو الذی ينزل عليه الملك بالوحی‌فيراه ويكلمه ، ومن‌شئون هذه الدرجة لزوم ابلاغ الاحكام الى من أرسل اليهم : فقوام العنوانين بالوحی واختلافهما فی كيفيته ، والوحی هو الاشارة السريعة الخفية ، وتعلقه من الله تعالی

الى أحد لايلازم نبوة الموحى اليه ، اذ منه مايكون بوساطة أعداد القوى التكوينية كما في قوله تعالى :

وأوحينا الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر اه .

وهذا موجود فى جميع الحيوانات كما قال تعالى : (الذى أعطى كل شيىء خلقه ثم هدى) وقوله تعالى: (والذى قدر فهدى) ، ومنه مايكون الهاما منه تعالى أو من الملك فى القلب من غير حصول العلم بانه من عند الله تعالى ، كما فى قوله (واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه) ويكثر نظيره فى سائر الناس خاصة فى المؤمنين منهم ، فالفارق بين وحى النبوة وغيرها حصول العلم بان الالقاء من الله فى الاول دون الثانى .

وأما الامامة فهى مرتبة زعامة الامة والولاية على انفسهم وأموالهم ، ولاملازمة بينها وبين النبوة والرسالة ، فان قوامهما كما عرفت باخذ الاحكام من الله تعالى ثم ابلاغه الى الناس ، ولايستلزم ذلك الولاية المذكورة ، فقد قال تعالى : (وماعلى الرسول الا البلاغ المبين) ويظهر من تواريخ الانبياء وما ورد فيهم ان عدة كثيرة منهم لم يقوموا الا بامر التبليغ كهود وصالح وشعيب ولوط ، وهم أنبياء ورسل .

نعم من تصدى منهم لزعامة الامة وشئون الامامة فهو امام أيضا، كما قال تعالى: (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين . (١٢٤ - البقرة)

وهذه الرتبة قد أعطاها الله ابراهيم بعد نبوته بل بعد كبر سنه وفى اخريات أيام عمره، اذ الظاهر من الاية ان الامامة عرضت عليه حال وجود ذريته وانما حصلت الذرية له بعد كبره ، حيث يقول : (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق) وسائر الايات التى يستفاد ذلك منه ، وعلى ما ذكرنا فبين عنوان النبى والرسول عموم من وجه ، ويشتركان فى كونهما مامورين بالابلاغ ، وما يذكر من الفرق بينهما من ان النبى من أوحى اليه الشرع وان لم يؤمر بتبليغه فان أمر بالتبليغ فهو رسول أيضا ، غير سديد بالنظر الى مايستفاد من قوله تعالى : (وما أرسلنا من

قبلك من رسول ولانبى الاذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته . (٥٢ ـ الحج)

فانه أطلق فيها عنوان الارسال على النبى وانه اذا أراد ابلاغ شرعه الى الناس زاحمه الشيطان ثم نصره الرحمان ، وهذا لايكون فى النبى بالمعنى المذكور.

وعلى هذا فبين عنوان النبى والرسول وبين الامام عموم من وجه ، فان بعض الانبياء والرسل ليس بامام كما عرفت ، وبعض الائمة ليس برسول ولانبى كأئمتنا عليهم السلام ، وقد يجتمع العنوانان كما فى عدة من الانبياء كأبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) ، والظاهر ان الامامة منصب أعلى درجة من النبوة والرسالة ، فكل امام رسولا كان أم لا أفضل ممن ليس بامام وان كان رسولا نبيا ، ولم يثبت افضيلة الامام المتصف بالرسالة من امام غير متصف بها مطلقا ، ثم انه يشترط فى كلا العنوانين امور :

أولها العصمة من ارتكاب المعاصى فلا يرتكب المنتخب بهما معصية أبداً صغيرة أو كبيرة قبل الانتخاب والاصطفاء وبعده .

ثانيها العلم بالاحكام فلابد من علمه بجميع مايحتاج اليه المرسل اليهم من الاصول والفروع وما يلازمها من العلم بالموضوعات وغيرها .

وأما اشتراط كون المعصوم أعلم بكل الفنون والعلوم من جميع أهل عصره فلم يثبت ذلك فى الانبياء والرسل، نعم دلت عليه الادلة فى ائمتنا (ع)، ويمكن استظهار كونه من آثار الامامة قارنت النبوة أم لا .

ثالثها الكمالات النفسية والفضائل الخلقية ، فان الظاهر لزوم اتصاف المعصوم بذلك بان يكون بالغا فى مراحل الفضيلة أقصاها ومن درجات الكمال اسماها بحيث لم يمكن عادة سقوطه عنها، ولذلك لم يسمع عزل نبى عن نبوته وسقوط امام عن امامته، وهذا هو اللائق بحال سفراء الله ومن اختاره رسولا نبيا واماما هاديا.

ولنرجع الى معنى الاية فنقول ان الاية الشريفة وان كانت فى مقام ابراء ساحة المسيح المقدسة عما نسبوا اليه من مقام الربوبية بالانحاء المختلفة من كونه الها

اوابن اله أوأحد الالهة الثلاثة ، ففى هذا الكلام عود الى بدء من حكاية حال عيسى والتعرض لشرح ولادته وحياته ومانسب اليه من الامور غيراللائقة بشأنه .

الا انهالاتخلومن الاشارة الى أمرهام وحقيقة راهنة خليقة بالتوجه اليهاوالفات النظر نحوها ، وهو مقايسة حال المنسوبين اليه تعالى والمنصوبين من قبله مع حال مخلوقاته وعباده المتصدين للرئاسات ونصب الامراء والولاة من الملوك والسلاطين حيث يختارون لامورهم والتصدى لمناصبهم يوما ويعزلون المنتخب فى يوم آخرلانكشاف عدم الجدارة فيه أو لارتكابه ما ليس له فعله ، فالمقصود انه لايسع ولايمكن امكانا وقوعيا صدوردعوى الربوبية لنفسه ممن آتاه‌الله الكتاب والحكم والنبوة .

وقوله ولايامركم عطف على قوله ، ثم يقول ، زيد كلمة النفى فيه للتأكيد ، والمعنى ماكان لبشرهذا شأنه ان يأمركم باتخاذ الملائكة والانبياء اربابا.

والحاصل انه لايصدر منه دعوى الربوبية لنفسه ولاالدعوة الى ربوبية غيره كائناًمن كان ولو كان افضل من خلقه الله واكرم من برئه كالملائكة ، وجعل المتعلق فى مسئلة دعوى الربوبية الناس بنحو الغيبة ، وفى مورد الدعوة الى ربوبية الغير المخاطبين فى عصرالقرآن لاجل ان ينطبق الكلام على ماكان ماصدر منهم ، حيث انهم ادعوا ان عيسى دعا الناس الى عبادة نفسه ، وكانوا يطلبون من النبى الاعظم تصديق ذاك الامر ودعوة امته اليه .

و قوله تعالى : (ولكن كونوا ربانيين بماكنتم تعلمون الكتاب و بماكنتم تدرسون) اى بل يقول البشر الذى آتيناه الكتاب والحكم والنبوة كونوا ربانيين

وقدذكرنا ان الربانى من له شدة ربط بالله تعالى وكمال قرب منه ، وحصول ذلك يستلزم كمال الانسان فى ابعاده الثلاثة الروحية : العقائد والاخلاق ، والاعمال وذلك غيرحاصل الابالسعى البليغ والجهد الجهيد فى اصلاح تلك الجهات فيزيل به كل جهل وريب فى عقائده ليصل الى مرحلة اليقين فى جميع مدركاته الدينية ،

اصولية كانت ام فروعية و يطهر من نفسه من كل رذيلة خلقية ويجعل مكانها فضيلة نفسية حتى لايبقى له عاتبة يؤنب بها ولا اكرومة ناقصة الااتمها ، ويصلح كل عمل ويجعل اعماله واوراده وردا واحدا ، وقد ورد فى الحديث انه تعالى قال : (لم يزل يتقرب الى عبدى بالنوافل فكنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به اه)

والحاصل ان البشر الذى اتاه الله النبوة من شأنه ان يأمر بالتعالى والتكامل من تلك الجهات حتى يحصل نتيجة ذلك . وهى القرب الشديد الى الله تعالى

ثم ان امره الناس وحثهم على الانتساب والارتباط الى الله قد يكون لفظيا حاصلا بالقول ومجرد الدعوة ، وقد يكون فعليا عمليا بان يرى الناس منه صالح العقائد والاخلاق ، فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من جذواته ويروا منه صالح الاعمال فيتبعوه ويهتدوا بهداه فيكون ذلك بعثا حقيقيا وامراً تكوينيا وقد يتحقق كلا الامرين ، وهذا هو الواقع من الانبياء والائمة عليهم السلام.

ثم ان ظاهر الاية ان النبى الامر بذاك يصرح لهم بعلة مايأمر ، وانه لاجل كونهم منتسبين بكتاب الله ومرتبطين به بالتعليم والتعلم ، فالمامور يشمل جميع المؤمنين بالكتاب من علماء الامة وعوامهم ، فان العلماء معلمون للكتاب وعامة الناس متعلمون متدرسون ، فالاية توضح ان كل نبى كان يأمر فى عصره جميع امته بالارتباط بالله المدرسين للكتاب والمتدرسين له ، وهذا حكم كلى ثابت للانبياء واوصيائهم والعلماء العاملين الذين اتبعوهم باحسان ، فعليهم ان يكونوا كذلك ، ويعلم من لحن الكلام ان ذلك الكتاب كتاب لو وقع موردا للتعليم والتدريس حصل الرقاء فى الفرد او المجتمع العامل ، فيكونون ربانيين و ح فلو لم يحصل ذاك الكمال والربانية فى مجمعنا الاسلامية مع انهم معتقدون بالكتاب وهو يدرس فيما بينهم ويتدرس ، فلابد أن نستكشف عدم وقوع التعليم والتعلم كما هو المطلوب لله والمرضى لجنابه ، ومن المعلوم ان الامر كذلك كيف وقد رفضوا اغلب احكام الكتاب رفضا وتركوه وراء ظهورهم تركا ، فمن تارك لكله ، و من متعرض عن بعضه ، ومن مأول لمحكمه ، ومن متمسك لمتشابه ، فآل امرهم الى ماترى .

قال تعالى : **واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم واخذتم على ذلكم اصرى قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين ۸۱ فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون ۸۲ أفغير دين الله يبغون وله اسلم من فى السموات والارض طوعاً وكرها و اليه يرجعون ۸۳ قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ۸۴ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين .** (۸۱ - ۸۵ آل عمران)

التفسير

يستفاد من الايات الشريفة الفات العقول الى وحدة الدين الالهى ووحدة الرسل الذين جائوا به ، كل ذلك فى ضوء توحيد الله المنزل للدين والمرسل للانبياء ، وينتج الاذعان الصحيح بهما وحدة رابعة، وهى وحدة مجتمع المؤمنين، فان المؤمنين والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، والمؤمنون اخوة وهم يد على من سواهم ، ففى الايات تذكير لوحدات لابأس بالقول بكونها الغرض الاصيل من سوقها ، وهى ان الله واحد ، والدين واحد ، والرسل كلهم كنفس واحدة ، وهذه اصول مانستنبطه من كلامه تعالى فى ضمن الامور التالية المستفادة منه :

الاول بيان اخذ الميثاق من الناس بايدى الانبياء ووساطتهم على قبول الكتاب والحكمة اعنى الدين النازل الى الناس من عنده تعالى .

الثانى اخذ الميثاق من الناس على نصرهم كل رسول جائهم ، وصدق ماعندهم من الدين والكتاب ، ويلازم ذلك اخذ الميثاق من الانبياء انفسهم على الامرين ، و ح فقد اخذ ميثاق السابقين على الايمان باللاحقين .

الثالث: اشهاد الانبياء على ميثاق الامم مع كونه تعالى شاهدا ايضا .

الرابع : توبيخ المعرضين عن قبول الدين الذى كشف عنه الكتاب وشملته الحكمة.

الخامس: امر النبى الاعظم بقبول دين السابقين من الانبياء ، ويلازمه استفادة اخذ الميثاق من كل لاحق على الايمان بما انزل على كل سابق وتصديقهم .

السادس: امير المؤمنين بمحمد (ص) بالايمان بما انزل على الانبياء وتصديقهم.

السابع: امر النبى والمؤمنين بالاذعان بوحدة الرسل من حيث الرب المرسل والدين المرسل به .

الثامن: بيان حقيقة الدين وانها التسليم وانه لايقبل من احد غيره .

فقوله تعالى: (واذ اخذ الله ميثاق النبيين الى قوله لتنصرنه، يدل على الامرين الاولين ، وتقريب الدلالة انه ليس المراد باخذ الميثاق اخذه فى عالم الذر كما قد يقال، فانه لاشاهد عليه فى الاية الشريفة، فالمراد اخذه فى الدنيا، والظاهر ان اضافة الميثاق الى النبيين من الاضافة الى الفاعل اى الميثاق الذى اخذه الانبياء من الامم بامر الله، واللام فى قوله لما ، توطئة للقسم، وكلمة ماموصولة، وهى مبتدء، خبرها قوله لتؤمنن ، والضمير المجرور فى قوله ، لتؤمنن به ، راجع اليها ، والضمير المنصوب فى لتنصرنه ، راجع الى الرسول، فالمعنى ان الله اخذ الميثاق من الامم بيد الانبياء على امرين .

اولهما: ان تؤمن بالدين النازل اليهم الذى يحكى عنه الكتاب وتشمله الحكمة.

وثانيهما: ان تنصر الرسول الذى جاء بعد ذلك فصدق دينهم وماجاء به النبى السابق. ثم ان لازم اخذ هذا الميثاق من الامم اخذه من الانبياء ايضا بلاريب واشكال، فان النبى احق بالاذعان بماجاء به من ربه، ونصرة الرسول الذى يأتى بعده من عند ربه

ان قلت: كيف ينصر النبى السابق الرسول اللاحق مع ان الفرض عدم ادراكه زماناوحصول برهة بين عصريهما، وهذا غير نصرة الامة لبقائهم متناسلين حتى يدركوا النبى اللاحق قلت: تكون نصرته باخبار عن مجيئه وحالاته وزمانه وخصوصيات شريعته، فيكون ذلك كاعداد المكان لنزوله وتهية القلوب لقبوله، واية نصرة اتم من هذه واكمل.

ان قلت : ماهو المراد بالرسول فى الاية وهل هو كل رسول لاحق بالنسبة الى سابقه ، اوخصوص الرسول الاعظم محمد بن عبدالله (ص) ؟

قلت: الظاهر ان المراد كل رسول لاحق ، ولوورد مايدل على كون المراد به محمد بن عبدالله (ص) ، فهو بيان لافضل المصاديق اذ انه اخذ الميثاق من كل نبى لمن بعده مع محمد (ص) فالنبى الاعظم مورد لميثاق الجميع .

ثم ان الذى ذكرنا من معنى الاية هو الذى يساعده مابعدها كما ستعرف ، ويعينه ايضا مانقل عن مولانا الصادق (ع) من قوله (اى واذ اخذ الله ميثاق امم النبيين) وقد اضطرالى تحسين كلام الامام (ع) فى معنى الاية بعض مفسرى اهل السنة مع اعراضه فى الاغلب عن احاديث اهل البيت (ع) .

قوله : (قال اقررتم واخذتم على ذلكم اصرى) ، الظاهر ان هذه المخاطبة الى اخر الاية واقعة بين الله وبين الانبياء ، وهى تبين اخذ الميثاق من الانبياء ايضا على مااخذوه من الامم ، والاستفهام بمعنى الامر ، والمعنى اقروا انتم انفسكم ايضا بالميثاق الذى اخذتم من الناس واقبلوا على ذلك عهدى الاكيد .

ثم قال تعالى لهم فاشهدوا على انفسكم أو على العهد المأخوذ من الناس وأنا من الشاهدين له ، هذا ولو فرضنا ان المخاطبة بين الله وبين الامم أشكل الامر فى معنى الاية بعدم قبول جميع الامم عهدالله ، وعدم اقرارهم على ذلك الاان يقال بكون الاية بيانا لحال المؤمنين المقرين بالكتب والانبياء ، وهذه الاية تشير الى الامر الثالث والرابع من الامور السابقة .

وقوله تعالى فمن تولى بعد ذلك اه اى فمن اعرض من الامم بعد تحقق امر الميثاق فهم خارجون عن طاعة الله ، وهو كفر لكون الحكم من الاصول الاعتقادية ، والاية من الشواهد على ان الميثاق المذكور لم يكن بين الله وانبيائه فقط ، بل بينه تعالى وبين خلقه كما حملنا الاية السابقة عليه ، اذ يبعد وقوع هذا التعبير بالنسبة اليهم خاصة مع كون الاية التالية ايضا من تتمة هذا الكلام .

قوله تعالى : (افغير دين الله يبغون وله اسلم اه) يظهر من الاية الشريفة ان المتولى عما آتاه الله من الكتاب والحكمة للانبياء المقصود بها الدين الالهى ، باغ

لغير دين الله وان دينه تعالى هو الاسلام ، فمعنى الاية انه كيف لم يطلب هؤلاء القوم دين الله الذى هو التسليم له ، ويبغون غير ذلك ، وقد اسلم له تعالى جميع ذوى العقول طوعا اوكرها .

ان قلت ماهو المراد بالاسلام فى الاية الشريفة وهل هو دين الاسلام اومعناه اللغوى ؟

قلت الاسلام هو التسليم وهو اما جبرى فى مقابل التكوين ، اواختيارى فى مقابل التشريع .

والاول عبارة عن خضوع الاشياء وانقيادها على وفق جريان عالم الكون ، وسيرها فى المجرى الذى تقتضيه العلل والاسباب التكوينية الجارية تحت ارادة الله وامره ، كحركة السيارات واختلاف الليل والنهار وجريان الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض ونمو النباتات وغير ذلك ، ولافرق فى القسم من التسليم بين الجماد والنبات والحيوان .

والثانى عبارة عن انقياد الموجود المدرك الشاعر فى مقابل أوامر الله عن ارادة منه واختيار، وهذا على قسمين طوعى وكرهى .

والاول: هو الانقياد عن شوق الى الطاعة ورغبة .

والثانى: الانقياد عن خوف العذاب والعقوبة هذا . والمراد بالاسلام فيما نحن فيه هو التسليم الاختيارى فى مقابل التكليف ، بقرينة ان الكلام مسوق لتوبيخ الذين تولوا عن الكتاب والحكمة وبغوا دينا آخر، فالكلام فى مخالفة التكليف والتسليم فى مقابله دون التسليم فى مقابل التكوين، مع ان جعل موضوع التسليم ذوى العقول كما هو مقتضى كلمة من الموصولة يشهد بذلك ،كما ان قوله واليه يرجعون يفيد كون الاخبار بالرجوع لبيان محل الجزاء وان الباغى عن الدين والمسلم له طوعا اوكرها مجزيون باعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر، فالكلام فى الاسلام التشريعى والاية اشارة الى الامر الخامس .

قوله قل آمنا بالله وماانزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى اه .

الاية الشريفة تعطى أمر النبى الاعظم بالايمان بالدين الواحد المنزل على الانبياء الملازم لتصديق نفس الانبياء ، ولكون الحكم ثابتا لكل لاحق من الانبياء بالنسبة الى الماضين منهم ، وتفيد أيضاً الامر بالاذعان بوحدة الرسل ، فهى بيان للامر السادس الى التاسع مما ذكرنا ، والظاهر ان المراد بالاسباط اولاد يعقوب ، فتشمل انبياء بنى اسرائيل كيوسف و داود وسليمان ويونس وأيوب وزكريا ويحيى و الياس وغيرهم .

قوله تعالى: (ومن يبتغ غير الاسلام دينا اه) الاسلام لغة هو التسليم لامر باطنا وقلبا أو ظاهرا ، وقد يطلق على مجموع الاحكام الاصلية والفرعية المنزلة من قبل الله تعالى ، والدين يستعمل بمعنى الجزاء كما فى قوله ، مالك يوم الدين ، وبمعنى الطاعة ، كقوله فاعبدوا الله مخلصين له الدين ، وبمعنى مجموع الاحكام الالهية بالمعنى المذكور ، كقوله يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن الا وانتم مسلمون. وقوله هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله اه.

ثم انه يمكن ان يكون المراد بالاسلام والدين هنا معناهما المصدرى بمعنى الاسلام والطاعة ، فالمعنى من يطلب طاعة غير طاعة الله فلن يقبل منه ، لكن الظاهر ان المراد بالكلمتين هو المجموعة من القوانين الالهية ، والمعنى من يطلب دينا ودستورات اجتماعية غير ما انشأ به الله وانزله من القوانين فلن يقبل منه .

وقوله من الخاسرين استعمال كلمة الخسران يعطى وقوع معاملة يطرء عليها الربح تارة والخسران اخرى ، والامر فيما نحن فيه كذلك ، فان العمل بالدين عبارة عن عمل الجوانح والجوارح ، وكل العمل سلعة ومتاع يبيعها المؤمن من ربه والثمن هو الجنة ، كما قال تعالى (هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيله اه) .

وقوله تعالى: (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة اه) فالمؤمنون ربحت تجارتهم والكافرون ابطلوا بكفرهم المبيع كله ، فحبطت اعمالهم وخسروا خسراناً مبينا فلا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا .

قوله تعالى: **كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجائهم البينات ، والله لا يهدى القوم الظالمين . اولئك جزائهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون . الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفوررحيم (٨٦-٨٩)**

التفسير

الاستفهام انكارى والغرض النفى واياس النبى الاعظم من هدايتهم ، والمراد بالايمان هنا الاذعان قلباً، وبالشهادة الاقرار لسانا ، وفعل شهدوا معطوف على الايمان بتأويل الفعل مصدراً او المصدر فعلا ، والمعنى بعد ايمانهم وشهادتهم او بعد ان آمنوا وشهدوا ، وذكر مجيىء البينات لبيان كون ايمانهم وشهادتهم ناشئين عن حجة وبرهان لا عن غفلة وجهالة ، والمراد بالبينات الحجج العقلية القائمة على التوحيد وسائر الاصول العقلية ، كالايات الانفسية والافاقية الحاكية عن التوحيد والمعاد والحجج النقلية كالكتب النازلة على الانبياء والمعجزات الصادرة منهم.

ثم انه يمكن ان يتوهم انه كيف نفى الله الهداية عن القوم مع العلم بثبوتها فى حقهم فان الكتاب الهادى والمعجزات المثبتة لمؤداها لم ينقطعا عنهم ، لكن نقول ان الهداية على ما عرفت سابقا على اقسام : عامة تكوينية وعامة تشريعية ، وخاصة تكوينية وخاصة تشريعية .

والاولى هى هداية الله تعالى كل حيوان هى او كل موجود هى الى ما هو صلاحه

فی‌بقائه وادامة وجوده ، کماقال موسی (ربنا الذی اعطی کل شیء خلقه‌ثم هدی) وقوله تعالی : (الذی خلق فسوی والذی قدر فهدی) .

والثانیة: هی‌انزال الکتب هادیة الی الحق وارسال الرسل داعین الی الصدق والهدایتان عامتان شاملتان لافرق فیهما بین‌المؤمن والکافروالصغیر والکبیروهما لا تنقطعان عن الحی حتی‌یهلك وینعدم .

والثالثة:هی توفیق الله الشامل لحال عباده وتهیئة اسباب الخیر وصالحات العقائد والاعمال .

والرابعة الالهامات الغیبیة والالقائات الملکیة فی قلوب المؤمنین لارائة طریق السعادة والخیرات ، وهاتان الهدایتان تنقطعان عن المرتد بعد ارتداده ، فلا یوفقهم الله للخیرات ولایلهمهم طریق الوصول الیها .

قوله والله لایهدی اه‌الجملة مسوقة لبیان کون الکافر ظالما غیرجدیر للهدایة والمراد انه‌ظالم لربه ولرسوله وظالم لدینه وللحجج الواقعة فی‌طریق‌اثبات‌الدین.

قوله تعالی اولئك جزائهم ان علیهم اه اللعنة قدیرادبها السخط و الغضب ، فتکون من الصفات وقدیراد بهاالطرد والابعاد ، فتکون من‌الافعال ، وقدتستعمل فی الانشاء ، فمعناه انشاء السخط او الطرد نظیر الامر والنهی والتمنی والترجی الانشائیات،وعلی هذا فقدینشأ القائل‌لعن احد من‌ناحیة نفسه فیقول‌مثلا لعنةالله علی زید ، وقدینشأ اللعن من‌نفسه وغیره ، فیقول لعنةالله والملائکة علی‌زید ، وهذا کما فی‌انشاء الصلاة والسلام علی احد.

قال تعالی : (اولئك علیهم صلوات من ربهم ورحمة) و(سلام علی نوح‌فی العالمین)(سلام علی ابراهیم) (سلام علی المرسلین) (سلام‌قولامن رب‌رحیم) وقد یقال‌ان اللعن من المخلوق بمعنی الدعاء وطلب اللعنة من‌الله‌فی‌حق من‌یلعنه ، وح فقوله ان علیهم لعنةالله ان‌کان جملة انشائیة ، فمعناها انشاءالله السخط والطرد لهم من‌قبل نفسه وملائکته وعباده ، وان‌کانت اخباریة فمعناها الاخبار بتحقق‌تلك‌الصفة

اوالفعل من الله تعالى وملائكته والناس بالنسبة اليهم ،والظاهر ان المراد بالناس هنا المؤمنون ، وان كان قديقال بالعموم ، فان الكافر ايضايلعن الظالم والمنحرف عن الحق وان لم يرانطباقه على نفسه .

قوله خالدين فيهااى فى اللعنة ، فان سخط الله لهم او ابعاده مستمر دائم فى الدنيا والاخرة اذاماتوا كذلك ، فلاتخفيف ولاامهال ولاانظار ، وقدوقع التصريح بعدم تخفيف العذاب عن الكفار فى موارد من الكتاب الكريم قال تعالى: ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) (۱۶۲-البقرة)

والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور. (۳۶-فاطر)

وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب . (۴۹ - غافر)

قوله تعالى الاالذين تابوا اه التوبة هى الرجوع وتوبة العبد من الذنب كفه عنه لقبحه ، ويتحقق جوهرها فى العبد بامرين الندم على ما مضى، والعزم على عدم العودفيما يأتى، قال الراغب (وهوابلغ وجوه الاعتذار فان الاعتذار على ثلاثه اوجه اماان يقول المعتذر لم افعل اويقول فعلت لاجل كذا ، اوفعلت واسأت وقد اقلعت، وهذا الاخير هوالتوبة اه .

ثم انك عرفت ان توبة العبد تقع دائماً بين توبتى الرب ، فهوتعالى يرجع الى عبده بالاحسان حتى ينتبه العبد بقبح ما فعل ولزوم الرجوع والانقلاع عنه ،فاذا رجع وندم رجع الله اليه ثانيا بقبوله وستره ما مضى وتكفيره له وبذل رحمته فيما يأتى .

قال تعالى : ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هوالتواب الرحيم (۱۱۸ التوبة)

وقال : فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه (۳۹ المائدة)

واثر توبة العبد ازالة استحقاق العقاب واللوم وحصول القرب الى الله جبرا للبعد الحاصل بالذنب ، فالتوبة مكفرة ومطهرة ، وهى اتم المكفرات وابلغهافانها تكفر الصغيرة والكبيرة حتى الكفر والشرك من حين حصول الذنب الى مايقرب من الموت .

وليعلم ان المكفرات كثيرة نشيرهنا الى بعضها بنحو الاجمال.

فمنها الحسنات فانها تكفر الذنب وتمحوه ، والظاهر ان ذلك من لوازم طبيعة الحسنة وآثارها ، فكل حسنة تؤثر فى تكفير شىء من السيئات وان لم يعلم مقداره ، وهذا بخلاف الحبط الموجود فى السيئات فانه لاعموم له بل هو من آثار بعض الخطايا المخصوصة كالحسد والغيبة والبهت ونحو ذلك ، فالكلية ثابتة فى ناحية التكفير ولا كلية فى ناحية الحبط قال تعالى:

واقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات. (١١٤ هود)

ومنها المصائب فان المستفاد من قوله تعالى: وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم (٣٠- الشورى) ان المصائب الواردة للانسان انما هى عقوبة للذنوب الصادرة عنه فتكون كفارة لها وسببا لغفرانها.

ان قلت كون المصائب عقوبة غير ملازم لكونها مكفرة مسقطة للاستحقاق ، فلعلها عقوبة عجلت للمذنب قبل العقوبة الاخروية قلت كلا انه قد ورد فى الاخبار المعتبرة ان الله تعالى اجل من ان يعاقب عبده بذنب واحد مرتين ، فالمصائب احدى المكفرات الا ان حدود التكفير ومقداره غير معلوم لنا هذا ، ولكن الانصاف امكان القول بكون ذلك من قبيل تشديد العقوبة وهو غير منفى.

ومنها الحدود والتعزيرات وفيها ورد ان الله لايعذب مرتين بذنب واحد.

ومنها ترك الكبائر من الذنوب ، فانه كفارة للصغائر الصادرة من المؤمن كما ان ترك الكبائر والمواظبة على الاجتناب عنها تكفر مايقع احيانا او ندرة ولو كان كبيرة قال تعالى

ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفرعنكم سيئاتكم (۳۱ النساء) اى سيئاتكم الصغائر . و قال تعالى: الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الااللمم انربك واسع المغفرة (۳۲ النجم) وفى الحديث ان اللمم ما يصدر عن العبد ندرة فكانه ينزل عليه فى بعض الاحوال.

ومنها دعاء المؤمن فى حق غيره من المؤمنين بالغفران فانها مكفرة لذنب المدعوله وفى الحديث ان الدعاء سبب للمغفرة.

ومنها دخول الايام المتبركة كالاعياد الدينية وشهر رمضان وليلة القدروغيرها فانه قد وردت احاديث كثيرة ان الله يعتق فيها ولبركتها اقوامها كثيرة من النار و يفك اعناقا من العذاب وهذا هو التكفير.

ومنها كبرسن المؤمن ودخوله فى سنى الهرم فانه ايضامكفر لذنوبه فى الجملة كما فى الحديث وان لم نعلم حدود ما يكفره الله به

ومنها سكرات الموت وغمراته فانها تكفرشيئا من المعاصى لم نعلم مقداره .

و منها الشفاعة فانه لا اشكال فى تحققها فى الاخرة ، و هى ثابته للانبياء و الائمة والملائكة المقربين والمؤمنين باذن الله ، وهم يشفعون لمن ارتضى الله دينه وقد ادخر نبينا الاعظم (ص) شفاعته لاهل الكبائرمن امته.

ومنها رحمة الله الواسعة وفضله العميم فيغفرلمن يشاء ويعذب من يشاء ولايحد غفرانه بحدولايقيد بمحل التوبة وغيرها من المكفرات، قال تعالى: ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفرما دون ذلك لمن يشاء (۴۸ ـ النساء) والاية غير مقيدة بالتوبة بقرينة عدم غفران الشرك ، فالمعنى ويغفرلمن يشاء ولولم يكن قد تاب منه اوحصل من المذنب سائر المكفرات ، ثم انه ينبغى التنبيه فى باب التوبة على امور:

الاول ان التوبة موضوعها مخالفة الله فانها فى الاصطلاح عبارة عن الرجوع من الذنب الى الطاعة ، واما اداء حقوق الناس فلادخل له فى حقيقتها، نعم قديكون ذلك من لوازم التوبة كما يكون غيره ايضا منها ، و بالجملة حقيقة التوبة يتحقق

بحصول الندم ،فتارة لايحتاج الى غيره حتى العزم على العود ايضا كما فى الندم عن الذنب مع عدم القدرة عليه فى المستقبل ، واخرى يحتاج الى العزم ايضا كما فى الذنب الذى يقدر على العود اليه ، وثالثة يحتاج الى اضافة امر ثالث كالقضاء فى الصلوات المتروكة عمدا و كاتلاف مال الغير عمدا المستلزم لاداء البدل ، و رابعة يحتاج الى امر رابع كالكفارة فى الصوم الذى افطره عمدا ، و كالقتل عمدا فانه يحتاج الى تسليم النفس للقصاص والكفارة الجامعة للخصال الثلاث ، واما فعل مايشغل الذمة بحق الناس فقط من غير تحقق الذنب كاتلاف مال الغير خطأ ، و القتل كذلك فلامحل للتوبة فيه ، نعم اداء حق الغير واجب ، فلو تركه كان عصيانا محوجا الى التوبة ، ويمكن ان يقال ان التوبة امر انتزاعى ينتزع من تحقق ما ذكر فى تلك الموارد ، ففى مورد ينتزع من امر واحد وهو الندم ، وفى آخر من امرين ، وفى ثالث من امور ثلاثة وهكذا،ولايبعد القول بوجود كلا الاطلاقين له.

الثانى يظهر من بعض الايات ان التوبة مقبولة اذا كان الذنب صادرا عن جهل، ففى غير الصورة لاتقبل التوبة قال تعالى:

انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم (١٧ النساء)

كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم . (٥٤-الانعام)

ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم. (١١٩-النحل)

فان الجهالة اما بمعناه الحقيقى ، وهو عدم العلم اللازم تقييده ح بالجهل التقصيرى اذلاذنب لمن عمل بالسوء جاهلا به قاصرا فى جهله ، فمفاد الايات ان قبول التوبة انما هو فى الذنب الصادر عن جهل دون الصادر عن علم وعمد، وان كان معنى الجهالة السفاهة اى العمل الصادر عن غلبة الهوى والشهوات بحيث نزل

علمه عند العقلاء منزلة الجهل، فصار صاحبه كالجاهل لزم ايضا تقييد مطلقات الايات بهذه الصورة .

والجواب هو مايقال فى المقام انه يمكن دعوى كون قيد الجهالة توضيحيا بمعنى ان السوء لايصدر من الانسان الاعن جهالة، لابمعنى الجهل بالحكم او الموضوع الرافع للتكليف، بل بمعنى الغفلة عن عظمة الخالق وعن مفاسد المخالفة والمضار المترتبة عليها فى الدنيا والاخرة، اذلااشكال فى ان العارف بجميع جهات الحكم لايقدم على المخالفة ، فالعامل بالسوء لايعمله الابجهالة .

الثالث: يظهر من بعض الايات ان التوبة تقبل اذا صدر بعد الذنب بلافصل او بغير فصل طويل ، واذا اخر العبد التوبة الى اواخر العمر فلاتقبل فيها قال تعالى :

انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (۱۷ـالنساء) .

و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الان (۱۸ النساء) .

والجواب ان المراد بالقريب هوماقبل حضور الموت ، ويشهد بذلك مقابلة القرب بقوله : حتى اذا حضر احدهم الموت مع ان اطلاق الايات والاخبار الواردة فى باب التوبة ، المحددة زمانها بحضور الموت كافية فى كشف المراد من الايتين .

الرابع: قيل ان التوبة انما تؤثر فى تكفير الذنوب غير الشرك ، واما الشرك فلاتنفع فى تكفيره التوبة . قال تعالى :

ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء و من يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما (۴۸ النساء و۱۱۶ النساء) .

والجواب ان مقايسة الايتين مع اطلاقات التوبة الشاملة لكل ذنب حتى الكفر والشرك تحوجنا الى احد امرين :

احدهما تقديم ظهور الايتين وتقييد اطلاقات قبول التوبة بغير الشرك .

والثانى تقديم تلك الظواهر وتقيد الايتين بغير حال التوبة والمعنى ان فى صورة عدم تحقق التوبة من العبد لايغفرالله منه الشرك ، ويغفر غير ذلك لمن يشاء سواء فى ذلك حال حياته وبعد مماته ، وهذا ارجح بل متعين بالنظر الى روايات كثيرة واردة فى قبول التوبة الى حين حضور الموت و معاينة العبد بعض حالات عالم البرزخ .

الخامس : قديستشكل فى تشريع التوبة بانهاسبب لتجرى الناس على المعاصى اذ بعد ماعلم من سعة دائرتها وشمولها للمعاصى الصغيرة والكبيرة فى جميع ايام العمر ، تستلزم جرئة الانسان على العصيان ووسيلة لتسلط الشيطان .

والجواب ان تشريع كل حكم تابع للملاك الغالب ، فرب واجب فيه مفسدة مغلوبة لمصلحته . فاللازم ، ح تشريع الايجاب كما ان الحرام ايضا قد يكون فيه مصلحة مغلوبة لمفسدته ، فالحكم هو الحرمة لامحالة ، ففى المقام لوفرضنا عدم تشريع التوبة للمعاصى وعدم عفوه تعالى عن اى جرم وعصيان حتى الصغائر من الذنوب ، فمعنى ذلك اولا عدم قبول الاسلام من احد من الكفار و عدم الاذن لدخولهم فى الدين ، فيكون ذلك نقضا للغرض من تشريع الشريعة و ارسال الرسل و انزال الكتب ، فمن البين ان اللازم عقلا على مشرع الشريعة قبول توبة من تاب عن كفره وضلاله .

ولو فرضنا الكلام فى غير الكفر و الشرك بل فى توبة المؤمن عن معاصيه الفرعية صغارها وكبارها فعدم القبول فيها يكون سببا ليأس المجرم من رحمة الله وتجريه على ماوقع فيه من المعصية وغيره وعلى الاصرار والاستمرار بل قدينجر ذلك الى الخروج عن الدين مع ملاحظة ان اغلب افراد المكلفين يبتلى بالمعصية لامحالة .

فهذه المفسدة اعنى تجرى العاصى على دوام العصيان او على الخروج عن الدين اكثر واقوى من مفسدة التجرى الحاصلة من تشريع التوبة .

مع ان مسئلة العفو عن الذنب امر عقلائى و سنة جارية بينهم يعملون بها ولاينكرونها ،فكيف يكون منكرا من الرئوف الرحيم الذى كتب على نفسه الرحمة، مع ان عدم علم الانسان بالتمكن من التوبة ، واحتمال فوتها عنه بنسيانها او الموت فجأة مانع عن التجرى فى الجملة :

قال تعالى **ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون (۹۰) ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملاء الارض ذهبا ولوافتدى به اولئك لهم عذاب اليم ومالهم من ناصرين** (۹۱ ـ آل عمران)

التفسير

هنا ابحاث الاول ان الكفر بعد الايمان هو الذى يسمى فى علم الفقه ارتدادا وله احكام كثيرة وآثار دنيوية واخروية لم تتعرض الاية الشريفة لبعضها ، و اجمال الكلام فيها ان المرتد ان كان احد ابويه او كلاهما مسلما عند انعقاد نطفته و حكم باسلامه لذلك ثم ارتد بعد كبره ، يسمى مرتدا فطريا ، وان كان ابواه كلاهما كافرا فحكم بكفره .

ثم اسلم بعد البلوغ ثم ارتد عن الاسلام يسمى مرتداً مليا ، وعلى التقديرين فهو اما رجلا او امرأة .

أما المرتد الفطرى فقد رتب عليه احكام، استحقاقه القتل فيجب على الحاكم او لكل من اطلع على حاله قتله ، وبينونة زوجته منه ولزوم اعتدادها عدة الوفاة ، و خروج امواله عن ملكه وانتقالها الى ورثته المسلمين ؛ و نجاسة بدنه وعدم صحة العبادة منه ، وحرمة تزويجه المسلمة ، وجواز اخذ ما اكتسبه من المال بدون رضاه وغير ذلك ، ثم انه اذا تاب بعد ذلك لم تتغير الاحكام الثلاثة الاول ، ويتغير الباقى فيصير بالنسبة اليها مثل المسلم، فتوبة الفطرى غير مقبولة من جهة ومقبولة من اخرى.

واما المرتد الملى فينظر ثلاثة ايام ويستتاب فيها، فان‌تاب والا قتل ، وتعتد زوجته من‌حين ارتداده، فان تاب كان احق بها ولاتخرج امواله عن ملكه تاب ام لم يتب ، نعم لوقتل ورثها المسلم من وراثه .

واما المرتدة الفطرية والملية فلا قتل لهما بل‌تحبسان وتستتابان فان لم‌تتوبا خلدتا فى السجن ولاتخرج اموالهما عن ملكهما .

الثانى: انه‌يفهم من‌الاية ان الوجه فى‌عدم قبول التوبة هنا هو ازدياد الكفر ، فيتوجه سئوال انه ماهو معنى ازدياد الكفر وكيف يكون ذلك ؟ فنقول ان قلنا بان الكفر وهو الانكار مفهوم ذومصاديق فان منها الانكار قلبا ، ومنها الكفر لفظا ومنها الكفر عملا كقتل النبى والوصى ، والخروج على الامـام والقاء المصحف فى النار او النجس وغير ذلك و نعوذ بالله منها ، فازدياده يكون فى الكمية ، كمن انكر قلبا ثم‌لفظا ثم عمل ما يكون كفرا فى الكمية وهو واضح . وان قلنا بانه امر قلبى فيمكن ان يكون ايضاً كجحد الاصول فى القلب متدرجا ، و ان يكون فى الكيفية فان الجحد القلبى ظلمة وقسوة ورين فى القلب كما ان الايمان نور وضياء فيه ، فازدياده يكون فى الشدة والضعف ، وما به الازدياد هو العمل المحرم من صغائر الذنوب وكبائرها ، فكما ان القلب يستضيىء بنور الايمان ويشتد ويتقوى بالعمل الصالح ، فكذا يظلم بالكفرويتقوى بالسيئات حتى يصل الى الطبع والختم والرين .

الثالث: ان‌ظاهرالاية الشريفة عدم قبول‌توبة الكافرالذى ازدادكفره ، ولكن الذى دلت عليه اطلاقات الادلة من الايات والاخبار ، قبولها الى قرب الموت بل الى‌حضوره بمشاهدة الميت من‌آثارالاخرة مالم‌يشاهده الاحياء ، فيحصل التنافى بين الايات .

ولوقيل‌بأن فن‌الاستدلال الاصولى‌يقتضى‌تقييد الاطلاقات ، فكل توبة مقبولة الا التى وقعت بعد ازدياد الكفر، فلا منافاة .

قلنا لااشكال فى دلالة الاخبار بنحو الصراحة على قبولها الى زمان حضور

الموت مطلقا حتى‌ممن زاد فى كفره فراجع اخبار الباب ، ولذلك اول‌المفسرون ظاهر الاية الى ان المراد ، عدم تمشى‌التوبة ممن‌ازداد الكفرحقيقة وانه يمنعه كفره ذلك عن‌الرجوع التام والندم الحقيقى، فلايتحقق الا التوبة الظاهرية وبنحوالنفاق وهذا غير بعيد ، ولعل اليه يشير قوله تعالى فيما بعده (واولئك هم الضالون) اى حتى حال توبتهم وبعد وقوعها ، ولازم ذلك‌كون التوبة عن نفاق خوفا أورياء أو لغيرهما .

الرابع: انه يظهر من قوله تعالى : (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار اه) ان الكافر اذالم يتب عن كفره فى‌الدنيا ، فلامخلص له من‌شديد العذاب وأليم‌العقاب فى‌الاخرة ، وقد ذكرفى‌الاية أمران مما يتوسل‌به اهل‌الدنيا لنجاتهم عن الحوادث والكوارث ، المال المفدى به للاستخلاص ، والناصر الشافع فى‌الانجاء ، ويلازم ذلك انه لاينفعه اعماله الدنيوية لو فرضنا صدور الخيرات منه وهذا هو المسمى بالحبط .

فهيهنا امران نتعرض لهما اجمالا :

الاول ان الكافر معذب فى الاخرة وانه لاينفعه الفداء والشفيع .

الثانى انه لاتنفعه اعماله الصالحة لحبطها وبطلانها ، وحيث ان موضوع الحكمين عنوان الكافر سواء أكان كفره بعد الايمان ام كان أصليا ، فينبغى اولا التوجه الى معنى الكفر والمعروف منه عند الشارع والمتشرعة انه عبارة عمن انكرشيئاً من‌اصول الدين‌أوفروعه اذا رجع الى‌انكاراصوله ، ويدل عليه فى‌الجملة قوله تعالى :

ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن‌ببعض ونكفرببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم‌الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا (۱۵۱ - النساء)

وقوله تعالى :ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل

ضلالا بعيداً (١٣٦ النساء) وغيرهما من الايات الكثيرة التى يستفاد من مجموعها المعنى المذكور.

أما الامر الاول فالاية المبحوث عنها تدل بصريحها على عذابهم فى الاخرة وعلى عدم قبول الفدية منهم، فلا ينفعهم المال، وعلى عدم الناصر لهم فلا تنفعهم الشفاعة، ويقرب منها فى الدلالة قوله تعالى :

ان الذين كفررا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم .

(٣٤ - محمد ص)

ولو ان لكل نفس ظلمت مافى الارض لافتدت به . (٥٤ - يونس)

للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لوان لهم مافى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به اولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد .

(١٨ - الرعد)

ان الذين كفروا لوان لهم مافى الارض جميعاو مثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم . (٣٦ - المائدة)

يود المجرم لويفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الارض جميعا ثم ينجيه كلا انها لظى نزاعة للشوى تدعوا من أدبر وتولى

(١١ - ١٧ - المعارج)

(فى المنافقين) فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولامن الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير. (١٥ - الحديد)

يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جائت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا اونرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا انفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون . (٥٣ - الاعراف)

وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين .

(٤٦ - ٤٨ - المدثر)

واندرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . (۱۸ - غافر)

واما الامر الثانى اعنى عدم نفع اعمالهم الصالحة لحالهم ، فنقول فى توضيحه ان الخيرات الصادرة من الانسان على اقسام ، فانها اما ان تصدرمنه حال ايمانه اوفى حال كفره ، وعلى كل تقدير فاما ان يموت مؤمنا اويموت كافرا ، لااشكال فى القسم الاول اعنى الصادرة منه حال ايمانه مع الموافاة عليه .

واما سائر الاقسام فمقتضى الايات عدم نفع العمل الصادر حال الكفر مات عليه اوعلى الايمان ، كماان مقتضى الايات بطلان عمل من مات على الكفر صدر منه عمله حال كفره اوحال ايمانه ، فهنا دعويان :

الاولى بطلان العمل حال الكفر.

الثانية بطلان عمل من مات على الكفر وتدل على الاولى آيات .

فمنها قوله : ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة . (۱۲۴ - النساء)

ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه (۹۴ - الانبياء)

ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. (۱۹ - الاسراء)

ومن يأته مؤمنا قدعمل الصالحات فاولئك لهم الدرجات العلى . (۷۵-طه)

واما الثانية فتدل عليها الايات التالية قال تعالى : والذين كذبوا باياتنا ولقاء الاخرة حبطت اعمالهم هل يجزون الاماكانوا يعملون . (۱۴۷ -الاعراف)

وعدالله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها اولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة واولئك هم الخاسرون . (۶۹-التوبة)

اولئك الذين كفروا بايات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلانقيم لهم يوم القيامة وزنا (۱۰۵-الكهف).

من كان يريدالحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون اولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون. (١٦ هود)

ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والأخرة واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . (٢١٧ البقرة) .

والذين كفروا فتعسالهم واضل اعمالهم ذلك بانهم كرهوا ماانزل الله فاحبط اعمالهم (٩ محمد) وقد مثل الله تعالى لاعمال الكفار بامثلة، فلاحظ الايات التالية:

مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت بـه الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيىء ذلك هو الضلال البعيد . (١٨ ابراهيم)

والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئآن ماء حتى اذا جـائه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . (٣٩ النور)

اوكظلمات فى بحرلجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور (٤٠ النور)

كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الاخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شيىء مما كسبوا. (٢٦٤ البقرة)

مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فاهلكته وماظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون. (١١٧ آل عمران)

فالمشبه فى الايات الاربع اعمالهم الحسنة، وفى الاية ٤٠ من النور اعمالهم السيئة، فشبه الله فى سورة ابراهيم اعمالهم بالرماد الواقع فى مهب الريح العاصف، فلايبقى من ذلك، فالنتيجة انهم لايقدرون منها على شيىء وهذا يشمل جميع اعمالهم الصالحة بذاتها .

وفى سورة النور بسراب يتراءى فى القيعان ، ويتخيل انه ماء، وذكر الظمآن

لاجل كون تخيل الماء منه اقوى من غيره ، وهو مع ذلك ساع فى الوصول اليه، وهذا حال الكافر بالنسبة الى اعماله ، و قوله حتى اذا جائه يمكن ان يكون من تتمة المثال او بيانا لحال الممثل الكافر ، فان مجيئه الى عمله عبارة عن موته وروده الى عالم الاخرة ، فلم يجد عمله ووجد الله مالكا لذلك اليوم موفيا حساب الخلق .

وشبه تعالى فى سورة البقرة نفس من انفق المال رياء ومن لايؤمن بالله واليوم الاخر بالصفوان وهو الاحجار الصافية الملساء ، وشبه اعمالهم بالتراب الموجود عليها، فاذا نزلت عليها الأمطار الشديدة ذهب التراب بالكلية فتبقى صلدا صافيا لاتراب عليه

وشبه تعالى فى سورة آل‌عمران انفاق الكافر الذى هو مثال لسائر مايصدر منه من الخيرات بالحرث الذى اصابته ريح فيها شدة وبرودة، فاذهبته وافنته واهلكته، فلم يبق فيه ماينفعهم، والتقييد بكون الحرث للقوم الظالمين لاجل ان غضب الاهلاك فيهم اشد .

والاية الثانية فى سورة النور تفيد تشبيه اعمالهم السيئة من كفرهم وعقائدهم الفاسدة ورذائل اخلاقهم وعاداتهم ومعاصيهم البدنية بظلمات البحر الزاخر، والامواج المتراكمة والسحاب الحائل المانع عن ضوء الشمس ونور القمر والكواكب ، فالانسان المفروض فى قعر البحر يكون فى ظلمات ثلاث .

فهو لايرى شيئا حتى يده التى يقربها من عينه ، فالكافر واقع فى ظلمات عقائده واخلاقه واعماله ، فلايمكن ان يرى شيئا من حسناته وان كانت قريبة منه لصدورها منه .

ثم ان ظاهر الايات افادة العموم فى الاعمال حتى آية البقرة لمكان الجمع المضاف (اعمالهم) ووقوع الجنس فى النفى (لايقدرون على شىء مما كسبوا) فلادليل ح على كون عملهم نافعا فى حقهم ، وهذه الايات بمثابة التوضيح للحبط المذكور فى الايات السابقة بالامثلة الموضحة المبينة للمقصود .

ان قلت: ان الايات المذكورة تعارضها آيات اخر تدل على عدم خلو العمل الصالح الصادر من الانسان عن ثواب وجزاء فلاحظ قوله تعالى :

وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى

(٤١ النجم)

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٨ الزلزلة)

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا (٣٠ آل‌عمران)

ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا (٢٢ الانسان)

ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم ربك احداً (٤٩ الكهف)

ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥ طه)

ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها فاولئك كان سعيهم مشكورا .

(٢٠ ـ الاسراء)

قلت بعض هذه الايات يدل على ان العامل يرى عمله اى يطلع ويقف عليه، ولاتعرض فيه للجزاء ، فيكون مدلوله نظير قوله تعالى : (ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة الااحصاها) وبعضها الاخر وانكان يدل على المجازاة ، فكل عمل صالح له جزاء وثواب ، وكل عمل سيىء له عقاب ، الا ان نسبة هذه الطائفة الى ما ذكر من ادلة اشتراط الايمان وادلة الحبط ، نسبة المطلق الى المقيد والعام الى الخاص اوالمحكوم الى الحاكم ، فينتج الجمع بينها ان كل عمل صالح له جزاء اذا قارن صدوره الايمان ، ولم يحصل مايكون سببا لحبطه من الكفر والشرك ،هذا مقتضى العمل بالادلة فى مرحلة الاثبات .

واما مرحلة الثبوت فيكون النتيجة القول بكون تأثير الخيرات والصالحات فى المثوبة بنحو الاقتضاء والعلية الناقصة المحتاجة فى فعلية الاثرالى تحقق الشرائط وفقد الموانع ، فاذ لاايمان حين العمل فلاشرط ، واذا ارتد بعد الايمان ومات عليه فقد وجد المانع اوالرافع فلامسبب .

وهذا نظير مايقال فى عكس المسئلة وهو مقايسة اطلاقات ادلة السيئات او عموماتها المقتضية لتأثيرها فى العقوبة بنحو العلية التامة كقوله :

۱ ـ واما من طغى و آثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى.

(۳۷ ـ النازعات)

۲ ـ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا . (۱۴ النساء)

۳ ـ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزائه جهنم خالدا فيها . (۹۳ النساء)

۴ ـ الذين يأكلون الربا لايقومون الا . (۲۷۵ البقرة)

ومن عاد (الى الربا) فاولئك اصحاب النار . (۲۷۵ ـ البقرة)

۵ ـ ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا . (۱۰ النساء)

۶ ـ ومن يفعل ذلك يلق اثاما يضاعف له العذاب (۶۹ـ الفرقان)

فمقتضى الجمع بينها وبين ادلة قبول التوبة اووقوع الشفاعة القول بكون تلك الادلة مقيدة اومخصصة اوحاكمة على هذه الايات ، ومآله القول بكون مؤدى هذه الايات بنحو الاقتضاء الناقص لاالعلية ، وهيهنا امر ينبغى التنبيه عليه ، وهو ان الكفار ينقسمون الى طوائف .

فمنهم من كفر على علم بالله وبدينه عنادا وتعصبا ، ومنهم من كفر عن جهل تقصيرى لاعذر له فيه ، ومنهم من هو معذور فى كفر داخل تحت عنوان المستضعف والظاهر شمول الادلة الدالة على حرمان الكافر من عمله فى الاخرة للطائفتين الأولتين ، وانصرافها عن الاخيرة ، بقرينة ورود التوعيد بالعذاب والنار فى بعض تلك الايات ، اذلااشكال فى عدم تعذيب القاصرين ، سواء اكانوا قاصرين فى الاصول ام فى الفروع ، كماقال تعالى :

(وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله تعالى: (لايكلف الله نفسا الاما آتاها) اى اعلمها، وح فتبقى اعمالهم تحت الادلة العامة الدالة على ترتب الجزاء والمثوبة

لكل عمل صالح ، كما ان الأدلة الدالة على اشراط تقارن الايمان بالعمل ناظرة الى اثبات الجزاء للعمل المقارن للايمان لا نفيه عن غيره ، فلامفهوم لها ، فيبقى مورد الفرض خارجا عن شمولها داخلاتحت اطلاق آيات الجزاء .

ثم انه بعدملاحظة نعم الله السابغة فى الدنيا وشمولها للبر والفاجر والمؤمن والكافر نعما لايقدر القادرون قدرها ويعجز العادون عن احصائها ، يسهل القول بحرمان الكافر الذى فرض صدور صالح الاعمال منه فى الاخرة ، فان ماانعم الله عليه من النعم ومنها القوى المبذولة له فى الاتيان بنفس تلك الاعمال يفوق ماعمله اضعافا مضاعفة

قال تعالى **لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون و ما تنفقوا من شيء فان الله به عليم ٩٢**

كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين ٩٣

فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فاولئك هم الظالمون ٩٤

قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ٩٥ آل عمران

التفسير

الايات منفصلة عما قبلها بحسب الظاهر فهى مبدء لاحكام و مقاصد أخر ، و البر هو التوسع فى فعل الخير ، وهل المراد به بر الله لعبده وفضله و انعامه ، فيعم خير دنياه وصلاح عقباه ، فالمقصود ان الانفاق الخاص سبب لشمول انواع النعم فى حق البار؟ او المراد بر الانسان ، وح فقد يستشكل بان البر منه هو الانفاق ،فيصير المعنى لن تنالوا الانفاق الا بالانفاق، لكن الظاهر على هذا ارادة البر بمعناه الاوسع

وهو البر الاعتقادي والخلقي والعملي، فانه ذو ابعاد اوذو مصاديق ثلاثة ويبينه قوله تعالى (في سورة البقرة ۱۷۷)

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى و اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون.

فقد عد في هذه الاية البر أمرا مركبا من الايمان بالمبدء والمعاد وما بينهما من الامور الثلاثة ، ومن العمل وهو الانفاق المستحب ، والصلاة والزكاة الواجبة ، و من الخلق والملكة الفاضلة وهو صفة الوفاء والصبر، وقد اشير في اخر الاية ان تحقق تلك الامور هو الصدق المطلوب من العبد ، وهو التقوى المحثوث عليها من جانب الله تعالى.

وقوله تعالى : مما تحبون ، الموصول فيه عام شامل للاموال و الاولاد و الجاه والبدن والدم وانفاق كل منها بحسب حاله ، فحاصل معنى الاية الاولى ان نيل البر بجوانبه وابعاده لايتسنى لاحد الا ببذل ما يملكه ويتسلط عليه من الاموال وغيرها حتى المهجة ...

وقوله تعالى : وما تنفقوا من شيء اه بيان لعلمه الازلى وتعلقه بالانفاق عبارة عن كمه وكيفه وعلته وآثاره الدنيوية وجزائه في الاخرة ، والتعبير بكلمة عليم لبيان ان علمه غير مقيد بزمان دون زمان.

قوله تعالى كل الطعام اه الطعام كل ما يطعم ويؤكل ، و قد يستعمل بمعنى البر، والظاهر انه كان لغة اهل الحجاز ، والحل الحلال المرخص فيه ، و اسرائيل اسم يعقوب النبى قيل سمى به لانه كان مجاهدا فى الله مظفرا به ، وعند اهل التوراة معناه الغالب على الله الظافر به ، لانه قد صارع الله فى ليلة الى الصباح وظفر عليه

راجع سفر التكوين من التوراة (الباب ٣٢ العدد ٢٤)

ثم الايات الثلاث وهى قوله كل الطعام الى قوله من المشركين ، ناظرة الى رد اليهود فى امر اعترضوا فيه على النبى والمسلمين ، وفى امر ادعوه لتصحيح مزعمتهم فى بطلان نسخ الاحكام وعدم امكانه وقوعا ، وتوضيح ذلك يتوقف اولا على ملاحظة قوله الاية ١٤٦ فى سورة الانعام وهى قوله تعالى :

وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما اوالحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون .

تدل هذه الاية على ان الله حرم على اليهود كل ذى ظفر من الحيوان وهو يشتمل الطيور كلها حتى المحللة لنا ، وكذا الوحوش المحللة كالضبى والغزال و التيس والجوذر ونحوها ويشمل الابل.

وقوله ومن البقر والغنم اه معناه لم نحرم هذين النوعين من بين ذى الظفر مطلقا بل شحومهما ، ولم نحرم ذلك ايضا مطلقا بل الشحوم القابلة للانفكاك عن اللحم بسهولة كشحم الالية ، ومايكون فى جوف الحيوان سوى ما حملته الظهور مختلطاً باللحوم وماحملته الحوايا اى الامعاء محاطة به وسوى المختلط بالعظام

وثانيا على ملاحظة قوله تعالى فى سورة النساء الاية .(١٦٠)

فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل . وهذه الاية تدل. اولا على كون ما حرمه الله عليهم هو من الطيبات التى ينبغى ان يكون حلالا للناس .

وثانيا على انها كانت محللة لهم فيما قبل التحريم، فطرء عليها التحريم لاجل ظلمهم انفسهم و انبيائهم ، ولما ذكر فى الاية من الامور الثلاثة ، فقد وافقت هذه

الاية قوله تعالى فى ذيل سابقتها (ذلك جزيناهم ببغيهم) .

وثالثا على الفات النظر الى ان اليهود كانوا قائلين ببطلان النسخ ، سواء أكان نسخ الحكم فى الشريعة اونسخ نفس الشريعة ، ولازم ذلك بقاء الاحكام التى كانت فى دين ابراهيم الى زمان موسى وتصديق موسى جميعها .

ورابعا على العلم بان يعقوب النبى كان قدحرم على نفسه بعض مايشتهيه من الاطعمة زهادة عن الدنيا وقربة الى ربه ،ويقال انه كان لحم الابل اولحم الجزور او الكبد والكليتين او الشحوم وبعد ملاحظة ماذكرنا يعلم توجه اشكالين الى اليهود:

الاول انهم كانوا من قبل اهل الظلم والطغيان والاثم و العصيان ، حتى انه حرم الله عليهم بذلك شيئا كثيرا من الطيبات المحللة لغيرهم .

الثانى بطلان قولهم بالنسخ فان تحريم الطيبات عليهم عبارة عن نسخ حليتها الثابتة فى دين ابراهيم .

ثم انهم احتالوا فى رد الاشكالين وتوجيه ماهم عليه بانكار كون حرمة تلك الاشياء حادثة بنزول التوراة ولسان موسى الكليم ، بل التحريم كان ثابتا فى دين ابراهيم وشريعته بل وفى الشرايع السابقة ايضا.

فهوحكم ثابت الهى غير منسوخ ، فاندفع بذلك كلا الاشكالين بل توجه اشكال الى النبى الاعظم والمسلمين بانهم مع تصديقهم ملة ابراهيم وشرعه ، قد اجترئوا على تناول تلك الاطعمة فهم مخالفون لما اعترفوا واقروا به من حكم الله الثابت فى الشريعتين .

اذاعرفت ماذكرنا يظهرلك المرادح من آيتنا المبحوث عنها وان الغرض منها ابطال ماادعته اليهود من حرمة الاشياء المذكورة قبل نزول التوراة ، وفى شريعة ابراهيم دعوى بنوا عليها امورا هامة .

فمعنى الاية الشريفة ان جميع الاطعمة كانت محللة على بنى اسرائيل قبل نزول التوراة حلية ثابتة فى شريعة ابراهيم باقية الى زمان نزول التوراة (سوى ما

حرمه يعقوب النبى لنفسه حرمة انشائية حاصلة بنذراو عهداو حرمة عملية بمعنى عزمه على ترك شىء ممايحبه من المأكل ، كمااتفق نظيره لنبينا محمد « ص » حيث قال تعالى ياايهاالنبى لم تحرم مااحل اللهلك تبتغى مرضاة ازواجك .

فقدورد فى تفسير الاية انالنبى «ص» قدعزم انلايأكل العسل اولا يقارب مارية القبطية، ثم حرمها الله فىالتوراة على لسان موسى ،وحفاذا لوحظ نفس تبدل الحلية الى الحرمة، ثبت وجود النسخ فىالاحكام وبطل دعوى بطلانه، واذالوحظ علةذلك النسخ وانهاكانت هىما ذكر فىآية النساء، ثبتان اليهودكانتامة ظالمة طاغيه مجزية بسيىء اعمالها فىالدنيا قبل الاخرة .

ثم ان مقتضى ظهور الاية ان الحلية السابقة ثم تبدلها الى الحرمة ثابتة فى التوراة مكتوبة فيها ، ولذلك قدامروا بالاتيان بالتوراة وتلاوتها ، ولازم ذلكانهم اناتوا بها وتلوها انكشف بطلان دعويهم وافتضحوا.

وانلميأتوا بها مع هذه الدعوة الصريحة، انكشف كذبهم على الله وافترائهم فىدعوى سبق التحريم وعدم عروض التغير والنسخ ، ولذلك قال(فمن افترى على الله الكذب آه) اىهم الظالمون لموسى وللتوراة ولامة اليهود ولانفسهم ،وفىهذا تنبيه علىان كل من كتم امرا ثابتا وحقيقة راهنة ينبغى اظهارها ، فهوممن ظلم نفسه وامته واتباعه وظلم تلك الحقيقة .

وقوله تعالى : قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم اه الملـة هنا بمعنى الدين والشريعة ، والحنيف المائل الى الحق والثابت عليه، والظاهر ان الغرض منسوق الاية انه لماثبت ان النبى اخبر عما فى التوراة بنحو الاعجاز وان الله صادقفيما امر نبيه بابلاغه ، لزمهم اتباع دين الاسلام وهو فى الحقيقة عبارة عن اتباع ملـة ابراهيم ، وابراهيم هو النبى الحنيف فى ابعاده المختلفة اى فى عقائده وملكاته واعماله .

وقولـه وماكان من المشركين اى ليس هو يهوديا ولانصرانيا ليكـون من

المشركين كما اشير اليه فى قوله تعالى ماكان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا اه : فانه لوكان كذلك مع ما هم عليه من اعتقاد ببنوة عزير وعيسى لله تعالى ، لزم كونه مشركا .

قال تعالى : **(ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ۹۶)**

فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان امنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين .
(۹۷ آل عمران)

التفسير

يستفاد من الايتين وغيرهما من الايات المربوطة بالمقام، ان للبيت الشريف احكاما وصفات نشير الى بعضها فيما يلى اجمالا ، ثم نفصلها بعض التفصيل :

الاول ـ انه اول بيت وضعه الله للناس .

الثانى ـ انه قيام للناس .

الثالث ـ كونه حرما وحراما .

الرابع ـ وجوب استقباله فى الصلاة ورعايته لامور اخر .

الخامس ـ وجوب حجه على جميع الناس وكونه مثابة .

السادس ـ وجوب الطواف به .

السابع ـ كونه هدى للعالمين .

الثامن ـ وجود الايات البينات فيه .

التاسع ـ كونه محل امن .

العاشر ـ كونه مباركا .

الحادى عشر - كفرمن ترك حجه .

ثم ليعلم قبل التعرض لبيانها انه قد يقال ان الاية مسوقة لرد مادعاه اليهود من ان اول بيت موضوع لعبادة الناس هو المسجد الاقصى، ولم يبين القائل وجه الاستدلال ، الا انـه واضح ، فان بناء بيت المقدس بيد سليمان النبى قبل الميلاد بما يقرب من الف وخمس سنين ، واما البيت الشريف فهو بناء ابراهيم الخليل بما يقرب من الفين قبل الميلاد ، فالبيت الحرام اقدم بناء من بيت المقدس ، واما الاحكام المزبورة :

فاولها ان البيت الشريف اول بيت وضع للناس بمعنى انه اول بناء بنى لكونه محلا لعبادة الله كمساجدنا بالفعل ، اويتوجه الناس فى عباداتهم نحوه ، او لكلا الغرضين، ولم يكن الى ذلك الزمان محل خاص العبادة، ويقرب من الاية مضمونا قوله تعالى: والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد. (٢٥ الحج) اى وضعناه وبنيناه لهم حال كونه يستوى فيه المتوطن حوله والوارد اليه من امكنة بعيدة فى استحقاقهم العبادة فيه ، لااحد احق بـه من آخر ، وقوله تعالى : واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . (٢٦ الحج)

والتبوء التهيؤ والاعداد وتعيين الموضع ، وقوله الاتشرك اى اوحينا اليه الاتشرك وطهر اه .

فالاية ممايدل على كون البناء بيدابراهيم الخليل والامربه هوالله، والمهندس لبنائه جبرئيل الامين ،كما فى بعض الروايات ، والبناء ابراهيم الخليل ، والعامل تحت يده ابنه اسماعمل ، ويكفى هذا فى طهارة البيت واتصافه بما يذكر القرآن فى حقه من الاوصاف والاحكام .

وقوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .

ان قلت يظهر من قوله تعالى نقلا عن ابراهيم الخليل (ربنانى اسكنت من ذريتى بوادغيرذى زرع عندبيتك المحرم اه) ان البيت كان قبل ابراهيم، فان‌الدعاء صدر منه فى اول ماورد ارض مكة وجاء اليها مع زوجه هاجروابنه اسماعيل من موطنه الثانى اعنى بعض قرى الشامات .

قلت لايبعد صدور الدعاء منه بعد بناء البيت ، و المراد بذريته اسماعيل واولاده ، ولو فرض كونه قبل بناء البيت ، فالمراد بالبيت محله المعين الذى مضى فى علم الله تعالى ان يكون بيتاله ويقصده عباده بالعبادة.

ويؤيده ما ورد فى تفسير قوله تعالى : والبيت المعمور،انه محل فى السماء معد لعمرة الملائكة يقابل البيت الحرام فى‌الارض ، ولااشكال فى سبق خلق ذلك ولازم المقابلة سبق اعداد البيت الحرام فى الارض .

وفى تفسير الفخر الرازى الاستدلال على تقدم بناء البيت على زمان‌ابراهيم بان مقتضى تشريع الصلاة و السجود للانبياء قبل ابراهيم هو وجود الكعبة قبله ، فانهم لوامروا بالصلاة والسجود الى غيرالكعبة لزم وضع بيت قبلها ، فليست‌اول بيت ، وان امروا بالسجود اليها لزم تقدم بنائها ، والدليل على‌تشريع السجودقبل ابراهيم قوله تعالى

اولئك الذين انعم الله عليهم من‌النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع‌نوح ومن ذرية ابراهيم و اسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً و بكيا . (۵۸ مريم) .

و لكن فيه مع انه لاتعرض فى الاية للصلاة انه لاملازمة بين تشريع‌الصلاة فضلا عن السجود وبناء الكعبة بيتا للعبادة ، اذكما ان صلاتهم لم تكن فيها فاتحة الكتاب والسورالقرآنية ، فلابعد فى ان لاتكون مشروطة بالاستقبال ايضا كما فى نوافلنا فى المحمل والسيارة وفى حال المشى ، مع ان الامر بالاستقبال الى بيت واحد تبيان للزوم الاتحاد ، و تسبيب لتحقق الوحـدة بين الملل الاسلامية .

ثم جميع اهل الارض فى زمـان يلزمهم الاتحاد ويضرهم الافتراق والانشعاب

وهذه الحكمة لم تكن موجودة فى عصر كان الانسان يعيش فيه عيش التوحد والتوحش نظير الحيوانات ، و على اى تقدير فلا دليل فى ذلك على تقدم بناء الكعبة ، مع ظهور الايات فى كونه بيد ابراهيم الخليل عليه السلام وابنه ، هذا ولكن قد ورد فى بعض الاخبار ما يظهر منه سبق بناء البيت عن زمان ابراهيم عليه السلام ، بل كونه موجودا مقصودا بالعبادة منذ زمان آدم النبى الى عصر نزول الاية الشريفة .

ففى الكافى عن مولانا الصادق عليه السلام (الفروع ص ١٩١) قال بعث الله جبرئيل فقال السلام عليك يا آدم التائب من خطيئته الصابر لبليته ان الله ارسلنى اليك لاعلمك المناسك التى تطهر بها ، فاخذ بيده فانطلق به الى مكان البيت وانزل الله عليه غمامة فاظلت مكان البيت وكانت الغمامة بحيال البيت المعمور ، فقال يا آدم خط برجلك حيث اظلت عليك هذه الغمامة ، فانه سيخرج لك بيتا من مهاة (البلور وكل شيىء صاف) فيكون قبلتك وقبلة عقبك ، واخرج الله له تحت الغمامة بيتا من مهاة . . وانزل الحجر له آه .

وفى معتبرة معاوية بن عمار عن مولانا الصادق عليه السلام قال لما طاف آدم بالبيت وانتهى الى الملتزم قال له جبرئيل يا آدم اقرء لربك بذنوبك اه (الفروع ص١٩٤)

وفى الخطبة القاصعة من نهج البلاغة قال عليه السلام الا ترون ان الله اختبر الاولين من لدن آدم صلوات الله عليه الى الاخرين من هذا العالم باحجار لاتضر ولاتنفع ولاتبصر ولاتسمع ، فجعلها بيته الحرام الذى جعله قياما للناس (خ ١٩٠)

و يمكن الجمع بينها وبين ماذكرنا من ظهور الايات فى كون البناء محدثا بيد ابراهيم الخليل ، بالقول بكون اصل البيت وما يبتنى عليه قواعده موجودا من زمان آدم بل قبل ذلك ، منذ خلق الله الارض كما يشير اليه بعض الاخبار الواردة فى دحو الارض وان كنا لانعلم اصله وجوهره ، وانه هل كان من درة اوحجر خاص ؟ وانه هل كان مساويا مع سطح الارض اوارفع منه بيسير؟ وعلى اى تقدير لم يكن بناء

مرفوعا كما بناه ابراهيم ، فامره الله تعالى ببنائه ورفع قواعده مـع ابنه اسماعيل وهذا وجه جمع حسن .

وثانيها كونه قياما للناس قال الله تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض وان الله بكل شيىء عليم (۹۷ المائدة)

والقيام والقوام اسم لما يقوم به الشيىء كالسناد والعماد لما يسند اليه الشيء ويعمد ، وقيل هو بمعنى القائم والثابت الذى لاينسخ، والمراد بالكعبة هنا الامور المتعلقة بها الصادرة فى الامكنة البعيدة والقريبة كالصلاة المأتى بها نحوها، وتوجيه الذبائح اليها و رعاية استقبالها بالنسبة الى المحتضرين الى ان يدفنوا ، و السفر اليها معتمرا وحجيجا ، وفى بعض الروايات ان المراد بكون هذه الامور قواما للناس ،كونها قواما لامر معايشهم ومعادهم لابمعنى وقوع التجارات والتكسبات بين الحجاج واهل مكة فيستفيدوا ربحا ويفيدوا غنائم (وان كان قد يحصل ذلك) لبعد ان يكون هو الغرض من سفر الحج والسير الى الله والى شعائره ، مع ان هذا مربوط بخصوص العمرة بالحج ، والاية حاكية عن كون جميع الامور المتعلقة بها قواما للناس .

فالظاهر ان المراد ان مراعاة مايرتبط بها من بعيد، سبب لحصول نحو تقارب واتحاد بين المسلمين ،كما ان قصدهم اليها معتمرين وحجاجا وتلاقيهم وتعارفهم فى الايام المعلومات، واشتراكهم فى المناسك والاعمال المخصوصة، سبب لاطلاع كل طائفة منهم على حال الاخرى ومعرفة بعضهم بعضا فى مختلف امورهم الدينية والدنيويـة وشتى جهاتها العلمية و السياسية و الاقتصاديـة ، فيتعارفون و يتفاهمون ويتقاربون ويحصل بينهم ائتلاف واتحاد فيتشكل دولة اسلامية كبيرة، فيتقوم صلبهم ويقومون على ساقهم فى معارفهم الدينية المغنية عن كل ماسواها من اوهام ماعند

غيرهم واحلام، وكذا يستغنون بما يحصلونه من العلوم الدنيوية المرتبطة بالمعاش، ثم يقومون على سوقهم فى امر اقتصادهم ، ومايرتبط بذلك من استخراج ماوهب الله لهم من خزائن الارض ودفائنها ، وكيفية صرفها فى مصارفها ، ثم يتقوون فى اعداد القوى الدفاعية والجهادية، فيحصلون العظمة والمجد الاسلامية الغابرة التى اضاعوها واتلفوها باختلافهم وتشتتهم وافتراق بعضهم من بعض ومحاربة بعضهم مع بعض .

وثالثها كونه حراما و محرما ، و اطلق عنوان الحرام و الحرم فى الكتاب الكريم تارة على الكعبة المشرفة، واخرى على المسجد ، وثالثة على مكة، ورابعة على جميع الحرم ، قال تعالى : جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس . (٩٧ المائدة)

وقال: سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى (١- الاسرى)

وقال تعالى : فول وجهك شطر المسجد الحرام . (١٤٤-البقرة)

وقال تعالى: رب انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم (٣٧- ابراهيم)

وقال تعالى : انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة التى حرمها وله كل شيء (٩١-النمل)

وقال تعالى: اولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء . (٥٧- القصص)

و قال تعالى : اولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم . (٦٧ - العنكبوت)

ثم ان الحرمة عبارة عن الممنوعية ، وهى على اقسام الممنوعية التكوينية، كما فى قوله تعالى: (وحرمنا عليه المراضع) والممنوعية العقلية كالظلم على البريء، وقتل النفس الزكية والكذب بلا موجب ، والاسائة فى مقابلة الاحسان ونحوها ،

فان كل ذلك حرام عند العقل ، والممنوعية الشرعية كما فى قوله تعالى : حرمت عليكم الميتة والدم اه وقوله تعالى: وحرمت عليكم امهاتكم وبناتكم وقوله تعالى: قل لااجد فيما اوحى الى محرما على طاعم يطعمه،وغيرذلك .

وهل المراد بالحرمة فى المقام الحرمة التكوينية بمعنى ان الله يحفظ تلك الامكنة عمايقصده الجائرون من تخريبها وقتل اهلها ونهب اموالها ، اوالتشريعية كتحريمه تعالى (۱) القتال فيها (۲) ودخولها بلاعقد احرام (۳) والاصطياد فيها (۴) وقطع شجرها(۵) واختلاء خلاها اى اقتطاع نبتها(۶)والقصاص فيها، والظاهر ارادة الاعم منهما ، الاان الحرمة التكوينية ليست مطلقة بل هى ثابتة فى الجملة .

وقد تحققت فى بعض الاحيان كما فى قصة اصحاب الفيل ، فقد دفع الله تعالى قاصدى بيته بالسوء بطيرابابيل ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ، ويشهد على عدم عموم المنع التكوينى قصة القرامطة ونصب الحجاج عليه لعائن الله المنجنيق ورمى الاحجار به نحوالكعبة المشرفة ، واحراقه استارها وتخريبه بعض جدرانها

ويقرب من هذا المعنى قوله تعالى

(ياايهاالذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ...) ولاآمين البيت الحرام يبتغون فضلامن ربهم ورضوانا. (۲-المائدة) والشعائرجمع شعيرة وهى العلامة ، والمراد بها هنا احكام الله مطلقا اوخصوص مناسك الحج واحلالها عبارة عن الاعراض عنها وعدها محلل الترك

ورابعها: رعاية التوجه اوتوجيه الغير اليهاوجوبا او استحبابا فى موارد كحال الصلاة الواجبة والمندوبة، وحال احتضار الميت والصلاة عليه ودفنه ، وحال تذكية الحيوان بذبح ونحر ونحوها من الموارد ، ويدل على الحكم فى الجملة قوله تعالى

قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره . (۱۴۴-البقره)

وخامسها: وجوب حجه على الناس قال تعالى :

١- ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا . (٩٧ - آلعمران)

والحج بالكسر والفتح بمعنى واحد وهو القصد كما فى المفردات ، وقد صار عند الشارع والمتشرعة حقيقة فى القصد الخاص ، وهو قصد بيت الله و مايتعلق بذلك على النحو المعين ، وقد يطلق على نفس الاعمال المخصوصة ، وعلى الاول قد تعلق حق الله تعالى بالامر القلبى المؤثر فى العمل ، وعلى الثانى بنفس العمل الخارجى

ثم ان الكلام هل هو انشاء للحق ولتعلقه بالحج كقول الناذر مثلا لله على ان اصوم غدا ؟ اواخبار عن الحق المتعلق به فيما قبل ، وعلى الاخبار فهل هو حكاية عن ثبوت ذلك فى اللوح المحفوظ ؟ اوعن ثبوته بتشريح ابراهيم الخليل (ع) ، ثم من بعده من الانبياء ؟ الظاهر كونه اخباراً ، الا انا لم نعلم زمان حدوث المحكى عنه ولازم تعلق الحق هنا هو الوجوب ، وقال تعالى :

٢- واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر ياتين من كل فج عميق . (٢٧ الحج)

الرجال جمع راجل اى الماشى ، والضامر البعير المهزول ، و يأتين جمع محمول على المعنى ، فكانه قيل ضامرات ، والفج الطريق ، والعميق البعيد والخطاب اما لابراهيم الخليل (ع) نظرا الى ملاحظة ما قبل الاية (واذبوأ نا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بى شيئا و طهر بيتى ...واذن فى الناس)

فتدل الاية (ح) على ان ايجاب الحج للناس كان فى شريعة ابراهيم و بلسانه، و لم يكن قبله ، وما ينقل من حج آدم وزيارته مكان البيت لعله كان حكما خاصا له لاعاما للجميع ، فالاية من آيات وجوب الحج ، ويمكن كون الخطاب فى الاية للنبى الاعظم محمد (ص) ففى الاية التفات ، وقال تعالى :

٣- الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلارفث ولا فسوق ولاجدال فى الحج. (١٩٧- البقره) .

اى اشهر الحج اشهر معلومات، وهى شوال وذوالقعدة و ذوالحجة ، و قوله فمن فرض اى اوجب على نفسه ذلك بالاحرام، والمراد انه من احرم بالحج فى تلك الاشهر فليجتنب عن الامور المذكورة ، فالاحرام سبب لفعلية الوجوب كما فى تكبيرة الاحرام للصلاة، والرفث الفحش اوالجماع ، و الفسوق مطلق المعاصى، والجدال قول لاوالله وبلى والله ،والاية تدل على وجوب الحج ايضاً .

و سادسها : وجوب الطواف به ، قال تعالى خطابا لابراهيم عليه السلام : وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود. و قال : وليطوفوا بالبيت العتيق. (٢٩ الحج) .

وقوله للطائفين لايدل الاعلى تشريع الطواف الشامل للواجب والمندوب، فلا يدل على الوجوب كما فى القيام والركوع والسجود ، نعم الظاهر من قوله وليطوفوا هوالوجوب ، الا ان شمول الطواف للواجب منه والمندوب ربما يكون قرينة على حمل قوله وليطوفوا على مطلق المطلوبية والقدر الجامع بين الوجوب و الندب .

وسابعها : كونه اى البيت الشريف هدى للعالمين كما هو المذكور فى آيتنا المبحوث عنها وذلك لامور.

الاول- قدم بنائه و دوام بقائه، فانه يهدى المتأمل الى ربه ، حيث انه تعالى ابقى بيته ومحل عبادته فى العصور المتطاولة سليم البنيان محفوظا عن الحدثان،

الثانى- نفس الاعمال الواجبة والمناسك المشروعة المتعلقة به، فان المتامل فيها والعامل بها يهتدى الى ربه.

الثالث - توجه النفوس نحوه فى صلواتهم و اوقات احتضارهم وموتهم ، وتوجيه الذبائح اليه فان جميعها مذكرة للنفوس وهادية لها الى الله .

الرابع- هداية الحضور عنده والعمل لمناسكه الخاصة العالم الاسلامى الى توحيد الكلمة وتقارب القلوب والافئدة ، و رفع الاختلاف و العداوة و البغضاء ، ويهديهم ايضا الى معرفة امامهم و العمل بما امرهم به و نهاهم عنه ، فالبيت بذاته

هدى للعالمين عامة ، و هدى للمسلمين خاصة ، كما ان القرآن هدى للناس عامة وللمتقين خاصة.

وثامنها - كون البيت شاملا للايات البينات قال تعالى: فيه آيات بينات. والايات هى العلائم الدالة على وجوده تعالى وعظمته وحكمته، و على صدق انبيائه وكتبه ورسله، وقد يقال فى تفسير الايات انها عبارة عن الحوادث الخارقة لناموس الطبيعة الواقعة فى البيت اوفى حواليه، كقتل اصحاب الفيل ، وغور قدمى ابراهيم فى الحجر الذى هو المقام الى الكعبين، وامتناع الطيور عن الاستعلاء على البيت والطيران من محاذاته، الا للاستشفاء، وغيرذلك.

لكن الظاهر ان المراد بالايات العلائم التى تطمئن القلوب بعد ملاحظتها بصدق كون البيت بيت الله تعالى المعمور بامره لعبادته كبقائه فى الوف من السنين معبداً يعبدالله فيه واليه ، وملجأ ياوى اليه كل ذى حاجة، ، وليس فى الأرض محل اقدم منه بقى سليما من الحوادث ، و قد كان اهل الجاهلية قبل الاسلام يزورونه ويعظمونه .

وقد قيل ان قول شعيب لموسى(ع)(انى اريدان انكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى ثمانى حجج) الحجج جمع حجة ، و اريد بها المرة من الحج وكانوا يعدون عندئذ الاعوام بالحجة لجريان عادتهم بايقاعه كل سنة، وعلى اى تقدير فالظاهر ان الايات قدفسرت بقوله تعالى بعدها:

مقام ابراهيم الى آخر الاية ، فالايات ثلاث ، (١) مقام ابراهيم (٢) وامن من دخله (٣) ووجوب حجه والاتيان بمناسكه ، اما الاول فلان وجود المقام فيه مذكر لابراهيم ونبوته ومن ارسله بالنبوة ومن عليه بالرسالة .

قد يقال ان كون مقام ابراهيم آية لاجل غوص قدمه الشريف فى الصخرة التى قام عليها لان يغسل رجله زوج اسماعيل عند قدومه من الشام لزيارة ابنه ، اوقام عليها لبناء البيت ورفع قواعده، اولان يأذن للناس بالحج بعد اتمام البناء .

واما الاخيران فلان تشريع الامن للبيت كجعل الامن التكوينى له فى الجملة كماعرفت ، وكذلك ايجاب حجه وجعل الاحكام الخاصة للمعتمرين والحجاج، فانه اية تهدى المتأمل الى صدق النبى الاقدم ابراهيم ، والرسول الاعظم محمد(ص) فى دعويهما النبوة.

وتاسعها كونه محل امن كما ذكره تعالى فى ايتنا المبحوث عنها، و يقرب منها قوله تعالى . و اذ جعلنا البيت مثابة و امنا (۱۲۵ البقرة)

واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات.(۱۲۶ البقرة) (۳۵-ابراهيم)

اولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيىء(۵۷-القصص)

وقدوقع وصف الامن صفة للبيت تارة، وللبلد اخرى، وللحرم ثالثة، فالجميع امن اى ذات امن ، اوالوصف بحال المتعلق ،

وهل المراد بالامن الامن التكوينى كما ذكرنا فى كونه حرما فلايقدر احد على التعدى له ولمن دخله ، فهوامن من النهب والهتك والقتل، ونظيره امن الطيور والوحوش والنبات فيه ؟

اوالامن التشريعى فلايجوز لاحد هتكه وايذاء الداخل فيه وان كان جائزا بنفسه كحرمة القصاص فيه ، والصيد وغيره ، اوالاعم من ذلك الظاهر ذلك .

و عاشرها: كونه مباركا والبركة نموالخير وتزايده او ثباته ودوامه ، وهذا الوصف تاره لاجل كون العبادات الواقعة فيها مباركة كثيرة المثوبة والأجر ،كما روى ان الركعة الواحدة فى البيت تقابل الف الف ركعة فى غيره .

واخرى لان التوجه اليه يكثر ويتزايد ويبقى ويدوم ، فان الصلوات المأتى بها فى جميع اقطار الارض تصلى اليها ، وهى تتزايد بسعة افراد المسلمين حينا بعد حين وتدوم وتبقى على التزايد حتى تظهر الدولة الحقه الالهية، و يملاء صاحبها ارض الله قسطا وعدلا ، فيتوجه جميع من على الارض الى البيت الحرام وايضا ان

الدوام يتصور في عدم انقطاع الصلاة نحوه في جميع آنات الليل والنهار فان حركة الارض توجب حلول اوقات الصلات لجماعات اهل الارض وقتا بعد وقت وساعة بعد ساعة فلا ساعة الا وهم يصلون فقوم يصلون الظهر وآخرون العصر وثالث المغرب وهكذا ، فالصلوات مستمرة دائمة ،

وثالثة لاجل توجه البركة الدنيوية والمالية نحو البيت كما في قوله تعالى : اولم نمكن لهم حرما امنا يجبى اليه ثمرات كل شيىء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لايعلمون . (٥٧ القصص)

وحاديعشرها: كفر من ترك حجه قال تعالى و من كفر فان الله غني عن العالمين والكفر هو الجحد او الستر ، وكثيراً ما يستعمل في الاول ، واستعماله في ترك شكر النعمة لكونه نحوا من جحدها وسترها، والكفر بالاصول ، قد يراد به كفر القلب تارة واللسان اخرى والعمل ثالثة ، وعلى التقادير فقد يراد الكفر بالاصول ، وقد يراد الفروع وينبغي ان يكون المراد به في المقام الكفر بالفروع عملا، وجزاء الشرط محذوف ناب منابه علة ، والتقدير فلن يضر الله شيئاً فانه غني عن العالمين .

بسم‌الله الرحمن الرحيم

الحمدلله ، وصلاته على عباده الذين اصطفى، محمد وآله‌الطيبين الطاهرين فهذه ابحاث فى التفسير، وفقنا الله لكتابها راجين بذلك مرضاته تعالى . . مع الاعتراف التام ، بأن القرآن، لاتنفد عجائبه ، ولاتفنى غرائبه ، ولايمكن حتى للاوحدى من الناس ، ان يدرك كل معانيه ، اوان يلم بكل مراميه .. فحقائقه دائماً تتجلى وتظهر ، مادام هناك عقل يعمل ، وانسان يتأمل ..

هذا ..ولبعض الظروف القاهرة ، لم نوفق للابتداء الامن اواسط سورة آل عمران .. فهانحن نقدم ماوفقناالله تعالى الى‌القارىء الكريم ، على أمل‌ان تتاح لنا الفرصة للاتمام، مع‌رجائناالاكيد، من‌كل ناظرفيه ، ومطلع عليه : ان يغض الطرف عن التقصير ، وينبهنا لمايراه مناسباً ، وله منا جزيل الشكر وفائق التقدير ..

ومن الله نستمد الحول والقوة وهوالموفق والمسدد .

على المشكينى

فهرس الكتاب

الاية ٢٩ ـ آل‌عمران ـ ٣

الانسلاخ عن الزمان فى صفات الذات ٤ ـ سعة علم الله تعالى ٤ ـ العذاب على النية والعقائد والملكات ٥

الاية ٣٠ ـ آل‌عمران ـ ٧

دفع اشكال فى تعلق علم الله باليوم الاخر ٨ ـ النفس وشمولها للانس والجن والملائكة وغيرها ٨ ـ حضور العمل وان للانسان كتابان ٩ ـ معنيان آخران لحضور العمل ١٠ ـ يحذركم الله نفسه ورأفته بالعباد ١٠

الاية ٣١ ـ آل‌عمران ـ ١١

حب الله تعالى ١١ ـ مراتب الذنوب ١٣

الاية ٣٢ ـ آل‌عمران ـ ١٤

معنى طاعة الله والرسول ١٤ ـ كيف ينعم الله على الكفار وهو لايحبهم؟ ١٧

الاتيان ٣٣ ـ ٣٤ ـ آل‌عمران

اصطفاء آدم ونوح ١٨ ـ الاب الثانى للبشر ١٩ ـ آل‌ابراهيم واصطفاؤهم على العالمين ٢٢ ـ السميع والعليم ٢٧

الايتان ٣٥ ـ ٣٦ آل‌عمران ـ ٢٨

امرأة‌عمران ٢٨ ـ معانى التحرير ٢٩ ـ وليس الذكر كالانثى ـ ٣٠ الاستعاذة

من الشيطان الرجيم ٣١

الاية٣٧-آل عمران- ٣٣

حسن قبول الله لمريم ٣٣ - زكريا بتكفل مريم ٣٥ يفعل الله مايشاء ٣٦-
هداية الله واضلاله ٣٧

الاية ٣٨ - آل عمران - ٣٩

عصا موسى ٤١ ان الله سميع الدعاء ٤٠ -

الاية ٣٩ - آل عمران - ٤٣

اوصاف النبى يحيى ٤٣

الايتان ٤٠ - ٤١ - آل عمران - ٤٦

زكريا لايتكلم ٤٧

الايات ٤٢ - ٤٤ آل عمران - ٤٨

المخلوقات الاخرى تكلم الانسان ٤٨- ذلك من أنباء الغيب ٥٢

الايتان ٤٥ - ٤٦ آل عمران - ٥٣

من يزرع فى الدنيا يحصد فى الاخرة ٥٦ المسيح يكلم الناس فى المهد ٥٨

الايات ٤٧ - ٤٩ آل عمران - ٥٩

أم لم تتزوج ٥٩ كلمة الحكمة فى القرآن ٦١ - التوراة والانجيل ٦٤
الاديان خاصة و عامة ٦٥ - المسيح يخلق طيراً ٧٠ - حقيقة الروح ٧٢
المسيح يحيى الموتى ٧٤ - المسيح يخبر بالمغيبات ٧٥ - من خوارق
العادات ٧٧

الاتيان ٥٠ - ٥١ آل عمران ٧٨

المسيح لم يأت بدين جديد -- ٧٩

الاية ٥٢ آل عمران -- ٨٤

السفر الى الله ٨٥ انصار الله ٨٦ الاسلام والايمان ٩١ شهاده الله وشهوده

٩٣-الائمة شهداء على الفاسد ١٠٢

الاية ٥٤ آل عمران -- ١٠٦

المكر الحسد والمكر الشيء -- ١٠٦

الاية ٥٤ آل عمران -- ١٠٨

المسيح عليه السلام لم يمت ولكن الله رفعه اليه ١٠٩

اتباع المسيح فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ١١٤ اتباع الانبياء دائماً هم الغالبون ١٢٠

الاية ٥٧ آل عمران -- ١٢٤

هل يدخل الكفار الجنة؟ ١٢٦- الصالحات والسيئات ١٣٠ -- خلود الكفار فى النار ١٣٤ الاجر معاهدة بين الله والعباد ١٣٨

الايات ٥٩ -- ٦١ آل عمران

الدليل الانى والدليل اللمى على وحدانية الله تعالى ١٣٩ -- المباهلة والملاعنة ١٤١ -- آية المباهلة دليل على احقية على بالخلافة ١٤٤ -- بطلان الشورى ١٤٩ -- أبو بكر وعمر لم يكونا أهلا للخلافة ١٥٨ -- اسئلة حول الشورى ١٦٠ - ادلة اخرى على اختصاص الخلافة بأئمة الشيعة ١٦٤ -- الحكومة الاسلامية عند السنة ١٧٨ - الحكومة الاسلامية عند الشيعة ١٨٠ -- خلاف بين الشيعة والسنة ١٨٣ - الشيعة وصفات الحاكم ١٨٤ - أموال الامام ١٩٨-ولاية الامام التكوينية والتشريعية ٢٠٢- لابد للمسلمين من خليفة ٢١٣ -- صفات الحاكم ٢٢٥

الاية ٦٢ و ٦٣ آل عمران - ٢٣٧

صفات الذات وصفات الفعل - ٢٣٧

الاية ٦٤ آل عمران -- ٢٤٠

الكلمة السواء ٢٤٠ رأى الاناجيل فى المسيح -- ٢٤٢

الايات ٦٥ -- ٦٨ آل عمران ٢٤٤

ابراهيم خليل الرحمن ٢٤٤ ماكان ابراهيم يهودياً ولانصرانياً -- ٢٤٨

الايات ٦٩ -- ٧١ آل‌عمران -- ٢٥٢

ضلال‌وهداية ٢٥٢

الايات ٧٢ -- ٧٤ آل‌عمران ٢٦٠

الايات ٧٥ -- ٧٧ آل‌عمران - ٢٦٥

من هو الامى: ٢٦٦ - الناس عندالله سواء ٢٦٧ - بعض الناس مسلطون على غيرهم ٢٧٠ - ملكية الاموال على انواع ٢٧١

الايتان ٨٦ - ٧٧ آل‌عمران - ٢٧٩

انواع العهود ٢٧٩ - الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلا ٢٧٢ -

الاية ٧٨ آل‌عمران - ٢٨٥

الايتان ٧٩ - ٨٠ آل‌عمران - ٢٨٧

الله واحدوالدين واحد ٢٩٢ - ميثاق‌الامم ٢٩٣ - من معانى الاسلام٢٩٥

الايات ٨١ - ٨٥ آل‌عمران - ٢٩٢

الايات ٨٦ -- ٨٩ آل‌عمران ٢٩٧

اقسام الهداية وانواعها ٢٩٧ - مكفرات الذنوب ٣٠٠ --

الايتان ٩٠ -- ٩١ آل‌عمران - ٣٠٥

الكفار و التوبة ٣٠٥ - الكفار و عذاب الاخرة ٣٠٧ -- الكفار و اعمالهم الصالحة ٣٠٩

الايات ٩٢ - ٩٥ -- آل عمران

كل الطعام كان حلا لبنى‌اسرائيل -- ٣١٥

الايتان ٩٦ -- ٩٧ -- آل‌عمران -- ٣١٩

احكام البيت الشريف وصفاته ٣١٩

VETUS & TESTAMENTUM NOVUM
DEI·SUB·NUMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 057499277